د. فهد العرابي الحارثي

أنتِ قبيحة هذا الصباح

(نصوص قصصية)

ح فهد العرابي الحارثي، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحارثي فهد العرابي
أنتِ قبيحة هذا الصباح./ فهد العرابي الحارثي،- الرياض ١٤٣٤هـ
(٣٣٣) ص ؛ ١٤ X ٢١سم
ردمك: ٩-١٩٩٢-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- المقابلات العربية أ. العنوان
ديوي ٨١٣.٠٣٩٥٣١ ١٤٣٤/٣٦٩٢
رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٦٩٢
ردمك: ٩-١٩٩٢-٠١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
alorabi111@gmail.com

الطبعة الأولى
مارس 2013م

تصميم وإخراج
مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام
ص.ب 88111 الرياض 11662 المملكة العربية السعودية
هاتف: 4624229 فاكس: 4610324
www.asbar.com
www.facebook.com/asbarcenterforstudies
www.twitter.com/Asbar_Center
info@asbar.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أنتِ قبيحة هذا الصباح

استوت باريس في مقعدها!

أطفأت سيجارتها المنعشة، وتوقفت عن الكلام والضحك!

حدث الانفجار الأول، وتصاعد دخانه في الهواء والأفق، وانتثرت شظاياه في كل الجوانب والأنحاء.. ولقد كان هناك بعض القتلى، وعدد لا بأس به من الجرحى!

ها قد اشتعل ثوب باريس الأنيق، وها هي تنكبُّ تلملم أطرافه التي شرعت تتساقط على التراب.

- لا وقت للرقص الآن، فالحفلة لا بد أن تتوقف!

(هكذا تمتمتْ ثم استغرقتْ في صمت مطبق)، ولكن لم

يمض وقت طويل حتى استوت في وقفتها، فقد كان صوت الانفجار الثاني يدوِّي في كل الأرجاء!

كانت باريس تتطلع إلى الحرس بكثير من الإشفاق، وثمة جدار كان يهوي، وهنا لوحة "بورترية" كانت تتشوَّه على الأرض، والنار مازالت تعبث بها، ورائحة الصباغ والألوان والقماش تأخذ بتلابيب المكان. مسكين هذا الجنرال الكبير، لقد كان الحريق يزحف في ثقة وهدوء نحو ذقنه، ثم فمه، ثم أنفه الطويل وعينيه الصغيرتين، إنه الآن يحدّق بشدة في وجوه الحرس، الذين أخذت ملامح الاضطراب تبدو جليَّة في تمتماتهم! أجل، لقد كانوا يتمتمون في همس.. همس شديد شديد، يهيئون الجواب للسؤال الذي أخذ يتعاظم ويتعاظم في عينيّ الجنرال اللتين التهمت النار في هذه اللحظات أطرافهما:

- سيدي الجنرال! لقد أعلنا الحرب! (هتف قائد الحرس وهو يسابق اللهب الذي كان يأتي على نهاية العينين، بينما أطراف الجبهة تأخذ في الاحمرار).

وما كاد قائد الحرس ينهي هذه الجملة حتى

انثال بصخب جدار آخر، لقد سقط بالضبط عند أقدام باريس! ويقول بعض شهود العيان: إن بعض الطوب قد هوى على كتفها، وأن لوحاً خشبياً قد شجّها في الخدّ! فتكامل، في لحظة واحدة، خطٌ طويلٌ أحمر امتدّ من وجنتها اليمنى حتى أسفل الوجه، وهنا تراجعت خطوة أو خطوتين ثم عادت تستوي في جلستها.. تشعل سيجارة جديدة.. وتنهمر في الضحك.. ضحك هستيري يشبه الجنون.

- ارفعوا رماد الجنرال أيها الأوغاد (دوّت باريس بهذا الصوت، وهي تشير بقدمها اليسرى إلى اللوحة البورترية المحترقة للتوّ).

قال قائد الحرس:

- لقد أشعلنا الحرب يا سيدتي! وسنقبض غداً أو بعد غد على الأنذال الذين حطموا الجدار، وأحرقوا الجنرال، وشجّوا خدك المبارك! إننا نعرفهم! إنهم أمامنا الآن! في المطاعم.. في النوادي الليلية.. في محطات الميترو.. في مصانع سيتروين.. في موانئ مرسيليا.. في معامل الخمور في بوردو.. في

مقهى الفوكيتس والمقاهي الأخرى المتشابهة! إن لهم الملامح نفسها.. السحنة نفسها.. الوجوه المستطيلة نفسها.. الجباه الضيقة نفسها.. والشوارب النحيلة المثيرة للسخرية نفسها!

وأضاف:

- سيدتي الجميلة: سنلقي القبض عليهم جميعاً.. سنودعهم السجن.. سنطردهم من البلاد، ونحظر دخولهم إليها مرة أخرى.

ثم اختتم هكذا:

- سيدتي ذات الوجه المبارك! سننتقم!.. فأمريني بالانصراف الآن!

انصرف الجميع! وبقيت باريس تنصت بكثير من التحفُّز لحركة النار التي كانت تسري في المقاعد.. وتنساب في بطء مريب على الطاولات.. ومن حواف الأبواب.. وشقوق النوافذ.. وهذه الليلة لم يعد عازف الاوكورديون يستأنف شجوه الذي اعتاد أن يبثه وينشره في مثل هذه المساءات الصيفية الواضحة المبهرة. جميع النساء توقفن عن الرقص، أو هنّ

تسمّرن تماماً في الخطوة الأولى من "الفالس"، أو ربما في الثانية من "التانقو".. تسمّرن تماماً كما يحدث عندما نوقف فجأة فيلماً على منظر بذاته أو حركة بعينها. هناك صوت واحد ظل ينبعث من البعيد، ويجب أن تصمت كل الأشياء إذا أردنا بالفعل أن نتمكن من فهم كل ما يقول! إنه صوت "إديت بياف" تلك المغنية الشهيرة التي أخرسها الخمر والحشيش والموت، لقد كانت تردّد في وهن شديد أغنيتها.. أووه.. أقصد الأغنية التي لها فضل كبير في تألق نجم الأسطورة: "عندما تكون الحياة وردية". اقتربت باريس من النافذة، وأخذت تطل على الخارج، فقد أشجاها نداء "بياف" البعيد المتقطع فكأنه يصعد من قاع بئر.. كان الشارع خالياً من كل شيء، إلاّ من ذلك الصوت الذي يغور ويغور حتى ينطفئ، ثم يعود فيطفو متسللاً عبر الهواء الخفيف الحذر الذي كان سيّد الحركة في هذا المكان الموحش.

- يعيش الحب!

فجأة انبعث هذا الصوت من إحدى زوايا

الشارع.. كان هناك جسد ما يحتل مساحة متواضعة من الرصيف الرمادي! كان للجسد ركبتان.. ركبتان وهنتان.. يضمهما إلى صدره، وكان له ساقان يلفهما بذراعيه القصيرتين، لقد بدا على رأسه شعر كثيف.. كثيف بحجم الحزن، كان هذا الشعر يتمدد بصورة متوحشة إلى مساحات شاسعة من الوجه. كان يرقد بجانب الجسد خمس زجاجات فارغة، تبقّى في جزئها السفلي مقدارٌ هينٌ من النبيذ الرديء!.. الرديء جداً!

- يعيش الحب.. ويعيش أنا!

انفجر الصوت مرة أخرى من جوف ذلك الجسد، ولكن بدرجة أقل جلبة، فقد كان الرجل الهائم المتهالك يستسلم للنوم. ويبدو سعيداً بهذه المساءات الصيفية التي تنسيه برد الشتاء القاتل!

- كم هم سعيدون هؤلاء المشردون "الكلوشار"، فهم لا يدرون ماذا يحدث لمدينتهم الجميلة!

قالتها باريس الحسناء وهي تسند رأسها إلى

جدار النافذة وتمسح الخط الأحمر من الدم الذي تكامل على خدها منذ اليوم.

صوت آخر كان يأتي من الداخل.. من داخل صندوق شرير اسمه التليفزيون:

- إنهم العرب!.. يريدون إطلاق سراح إبراهيم عبدالله!

سمعتُ هذا الصوت.. في غرفتي.. في الفندق الذي أسكنه! فتعجَّبت!

ثم عاد الصوت:

- أجل إنهم العرب.. وإن تاريخهم لملطخ بالإرهاب وقتل الأبرياء!

أما الآن فقد غضبتُ فعلاً!.. فهذا الصوت الشرير الذي يتدفق منه هذا الهذيان يحذف عمداً "جورج" من مقدمة اسم "إبراهيم عبدالله"، ثم إنه يتجاهل -عمداً أيضاً- أن هناك عرباً أبرياء لا يعرفون أصلاً من هو هذا "المناضل" المعتقل، الذي لا بد من إطلاق سراحه، وهذا الصندوق الشرير - في النتيجة - يدلِّس على نفسه وعلى الناس عندما يقول: "العرب!". هكذا على إطلاقها.. فلا يستثني.

- سيدتي الجميلة ذات الوجه المبارك! إننا نعرفهم.. هؤلاء الذين أشعلوا النار في ثوبك الأثير الجميل! هؤلاء الذين رسموا هذا الخط الأحمر القبيح الذي يتمدد من جديد على خدك المبارك! إن لهم السحنة نفسها.. الوجوه المرعبة المستطيلة نفسها.. الشوارب النحيلة المثيرة للسخرية نفسها.. سنطردهم من البلاد، ولن ندخلهم إليها مرة أخرى!

ثم أضاف:

- هل تعلمين - سيدتي! - ماذا فعلوا قبل إذاعة هذه النشرة بقليل؟ لقد فجروا ثكنة الحرس نفسها.. قتّلوا الناس والبوليس في مقر البوليس نفسه! أجل! لقد تجرع البوليس قبل لحظات أمرّ كؤوس العار.. تصوري يا سيدتي أقول لقد فجروه هو نفسه! وهاهم رجال الحرس يقفون تحت نافذتك الآن، وعيونهم مزروعة في الرصيف.. ينظرون إلى تحت، فالخجل يجللهم كاملين!.

ثم انطلق من جديد يكرر تحديد هويات المذنبين، بسحناتهم السمراء، ووجوههم المستطيلة، وشواربهم النحيلة "المثيرة للسخرية".

لقد أخذت أشعر أنني أختنق داخل هذه الغرفة فقد بدت ضيقة جداً.. وحقيرة جداً.. وتافهة جداً.. فخرجت ألوذ بباب المصعد الذي سيأخذني إلى تحت. ولحظتها لم أجد شيئاً أقوله لباريس الجميلة الجريحة سوى هذه الجملة:

- سيدتي الجميلة! إنني خائف.. خائف مثلك!

****

انفرج باب المصعد فالفَيْتُني بين يديه!

كان بديناً وهائلاً جدّاً، وكانت له همهمات تتدحرج بتثاقل شديد من بين شفتيه الغليظتين.. ومن تحت أنفه الضخم:

- إلى أين؟ (سألني)

- إلى الخارج (أجبته وأنا أنسحب من بين قبضتيه اللتين تراختا الآن).

لقد رأيتُ خلفه اثنين.. ثلاثة.. عشرة.. وكلهم يشيرون إلى مخرج النجاة في الطرف القريب من الصالة الفسيحة في أرض الفندق! البهو الذي بدا معتماً وقلقاً، قيل: إن هناك صندوقاً صغيراً فوق

إحـدى الطـاولات، وحيـث إنـه ظـلَّ مهمـلاً، وبمـا أن الجميع قد أنكروا علاقتهم به، فهو يحتوي - حتماً - على قنبلة، والفندق سينفجر بعد لحظات، إن تباطأ البوليس في التخلص من هذا الصندوق الورقي اللعين!

حين بلغتُ الشارع من مخرج النجاة، مشيت!.. وتذكرتُ عمّنا الشيخ رفاعة الطهطاوي.. تذكّرت كيف كان يتحدث عن هذه باريس الجميلة بكثير من الانبهار، وربما قليل من الفهم. لقد كاد الرجل أن يُغمى عليه وهو يتهيأ لأول وجبة إفطار أُعدّت له، دُهِشَ لعدد الصحون والأقداح، والملاعق، والسكاكين، والشوكات، وكان يؤكِّد أن هذا "الشعب العظيم" يوصل الأكل إلى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً، كما أنه لا يأكل بشوكة غيره. ثم يضيف الصعيدي البريء: "ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة". أما أنا فقد خُيِّل إليَّ أن هذه الشوارع الفسيحة المليئة اليوم بنساء العرب وأطفالهم، تحتضن الآن أكثر من طهطاوي، وقد جاؤوا جميعاً للركوع في

محـــراب الإنســـان المتفـــوق، يتزينـــون، ويتعطـــرون، ويـــدخنون الســـجائر الأمريكيـــة الفـــاخرة (الســـجائر الفرنســـية لا تطـــاق!)، وهـــم لا يـــأكلون بأيـــديهم، ويرفضون النوم على وسادة واحدة! ويبدو- فوق ذلك - أنهم قد آمنوا بمقولة رفاعة بيه، من أن "المقاهي هنا ليست مجمعاً للحرافيش، بل هي مجمع لأرباب الحشـمة! وهـم - علـى هـذا - يختـارون أشـهرها وأغلاهـا، فيعزفـون عـن الخمـارات الفقيـرة! المجمّلـة تجميلاً نسبيّاً!".

ياه!.. باريس ما تزال تحتشد بالعسكر، وهي تبدو منهكة وحذرة وكئيبة، كأنها عاشقة اكتشفت أمس، فقط أمس، أن رَجُلَها قد ارتمى في أحضان امرأة أخرى، أو كأنها زهرة لطمها الهواء المحمل بالنار والتراب، أو كأنها طفل سُرِقتْ لعبته الوحيدة، ولم يُحضر له بديل عنها. لقد كانت تدور في مكانها، وحول نفسها، وهي تكاد تتداعى نحو الأرض.

مشيتُ!.. وصورٌ كثيرةٌ كانت تقتحم الأفق: بول أيلوار يغني للحب. جاك بريفير يهتف للشعب. سيمون

سينيوريه تنادي للإغفاء البليد. مدام كلود تبيع النساء بأثمان باهضة.. جدّ باهضة!. لوي أراغون يحتضن "إلزا" والحزب. مسيو شوفالييه (الرجل الشقي) يراقص مارلين مونورو.. ولا يهمُّه أحد!! رجل واحد كان يبدو - في هذه الصور المتلاحقة - نصف جسد، ونصف فم، ونصف شارب، ونصف أنف، ويحمل في إحدى يديه نصف "باغيت"من الخبز الفرنسي المستطيل كالعكاز. (مرة دخل بهذا الـ"باغيت" إلى نيويورك، فاهتز العالم كله)، اسمه سلفادور دالي. كان يحمل في اليد الأخرى لوحته المحكمة التكنيك، التي تنظر إليها بالمنظار، فترى بورترية لفرانكلين روزفيلت، لكنك حين تعيد النظر إليها بدون منظار ترى المرأة العجيبة "غالا"ملهمة دالي وحبيبته، تراها من الخلف عارية، تطل من نافذتها على جزء من البحر الأبيض المتوسط، ربما في أسبانيا، أو إيطاليا، أو مكان آخر. لقد أدهشني التكنيك، ولم تدهشني أبداً اللوحة؛ لأن الموضوع كله يُذكّرني بما هي عليه باريس الجميلة: تنظر إليها من الفندق أو المطعم أو الملهى، فترى

امرأة فاتنة واحدة، وهي، بخلاف جميع النساء، وعلى ضد جميع العمليات الحسابية، تقبل القسمة على أكثر من واحد.. بل على ألف.. أو على مليون وألف مرة أخرى. تنظر إليها من "ساكري كور" أو الأكاديمية الفرنسية، أو جامعة السوربون، أو الكوليج دو فرانس، أو ساحة الكونكورد، فترى بورترية لـ رولان بارت، أو أندريه بروتون، أوشارل ديجول. تنظر إليها من مسرح أوديون، أو الأولمبيا، أو الغراند باليه، فترى مارسيل بانيول، أو جاك بريل، أو بيكاسو. تنظر إليها من الأزقة الضيقة الرطبة في سان دوني، أو شاتليه، أو بيغال، فترى مدام بوفاري، أو الأسماء الأخرى الأكثر وضاعة!

لم ينتزعني من متابعة هذه الصور التي كانت تقتحم الأفق، وتخترق جدار الرأس، إلا صوت قادم من هذا الجندي الذي يقطع عليّ الطريق والأنفاس، إنه يقف أمامي الآن، على الرصيف. سألني عن اسمي، وهويتي، وأوراقي، ولعله بدا أكثر سعادة حين اكتشف بدهائه العجيب أنني عربي! ظهر له أنني أنا الصيد

النادر الثمين الذي سيُعجّل بترقيته، فإن لم أشترك في التفجيرات الأخيرة التي اجتاحت المدينة، فأسوأ الاحتمالات أنني قتلت السيدة المسنّة "أوديت"، أو السيدة "ميشيل"، أو السيدة "لوسيين"، أو كلهن مجتمعات. فقد قرأت اليوم في "الفيجارو"، أن أحد الجناة قد اقتحم منازل الضحايا الثلاث في مدينة نانسي في جنوب فرنسا، ثم قتَّلهن أبشع تقتيل، واختفى. وتقول الجريدة: إنه خلال شهر أغسطس الماضي، وفي باريس نفسها سقطت -قتلاً- 75 امرأة مُسنّة، ثم يضيف كاتب التقرير ما هو أهم، وهو "أن قتل المسنات وحشية وسادية لا يعرفهما الفرنسيون!"، وأنا لست فرنسيّاً! فأنا -إذاً- الذي قتلت واحدة من هؤلاء النسوة، أو ربما جميعهن..!.. من يفك رقبتي من مخلب هذا الذئب القبيح؟! إنه ينظر إليّ بفراسة مزعجة تكاد تربكني! أجل! فهذا هو وجهي المستطيل، وجبهتي الضيقة، وسحنتي الداكنة، وشواربي النحيلة المثيرة للسخرية! إنني جورج إبراهيم عبدالله نفسه، هارباً من السجن، وإنني "أيُّ

محمـد"، أو "أيُّ علـي" مـن هـؤلاء القتلـة الـذين يُفجّـرون محطـات الميتـرو، وبعـض المقـاهي الآهلـة، ومراكـز البـوليس. إننـي "أيُّ أحمـد"، أو "أيُّ مصـطفى" يقتـل المسـنات لاغتصـابهن، أو لسـرقة أمـوالهن، أو لمجـرد إشـباع نزعـة القتـل فـي داخلـه. الرصاصـة لـم تعـد فـي جيبـي، لقـد انطلقـت فقتلـت واحـداً، أو اثنين، أو عشـرة، أو مائـة، وهـذا الجنـدي الشـرس سـيلتهمني فـي غمضـة عـين! إننـي أتعـرق.. أتفصَّد عرقاً.. وسأعترف حالاً بكل شيء! فلعل هذا يعجّـل بترقيتـه، ولعلـه يـدخل الرضـا عنـه إلـى نفـوس رؤسائه وزوجته، وربما عشيقته، وستظهر صورته غداً في الفيجارو، وسيستضيفه التليفزيون (القناة الأولى)، وسـيكون البطـل، وهـو قبـل هـذا وبعـده سـيرتاح! سـيرتاح! لأن الفرنسـيين لا يجيـدون هـذه التصـرفات الوحشـية! فهـم لا يقتلـون النسـاء! ولا يُفجِّـرون المقاهي، ولا يسرقون البنوك، ولا يختطفون الأطفال! ولا يُهرّبـون المخـدرات! .. أنـا شخصـياً سـأعترف! أجل.. سأعترف!

- أيها الجندي العظيم، أنا المجرم! (قلتها وأنا أمكِّن يده الأخرى من رقبتي).

- ماذا؟ (قالها وهو يعتدل في وقفته، ويضمُّ ساقيه في تحفُّز).

- أجل! أنا جورج إبراهيم عبدالله! وأنا الذي قتلت السيدة "أوديت"، وكل النساء المسنات، وأنا الذي فجَّرت مطعم "رينو"، والإدارة العامة للبوليس في قلب باريس!.

- ثنى الجندي رأسه قبالة وجهي، ولا أعرف ماذا كان يستنشق، ثم عاد يفحص أوراقي بسرعة، وهو يقول:

- هل تعرف عقوبة البلاغات الكاذبة؟

- يا سيدي هذا ليس بلاغاً كاذباً، فأولاً: أنا عربي، وجهي مستطيل، وجبهتي ضيقة، وشواربي نحيلة، تثير السخرية، وثانياً: لا بد أن تأخذ ترقيتك، وتتحوَّل إلى بطل، وثالثاً: لم نعلم قط أن الفرنسيين يقدمون على ارتكاب مثل هذه الأعمال الوحشية! أليس كذلك؟

- اغـرب عـن وجهـي الآن! وإلاّ اضـطررت أن أعطيك مخالفة لإعاقة البوليس خلال أداء عمله!

فما كان أمامي إلاّ أن أغرب عن وجهه!.. وبعد لحظة، تذكّرت أنني قرأت في مكان خلفي جداً من جريدة المساء: أن مسؤولاً فرنسيّاً كبيراً قد صرّح، في بلد عربي كان يستضيفه، بأنه "يجب عدم الخلط بين الإرهاب والعرب!" وفي ملامح الصورة التي نُشرتْ لهذا المسؤول وهو يدلي بالتصريح، كأنني قرأت نسبة طيبة من الاستحياء، ومثلها من الحرج الشديد! ترى هل تذكّر هذا الجندي، الذي طالبته قبل قليل باعتقالي، ذلك التصريح فعدَّه، ببلاهة، موقفاً حقيقيّاً لحكومته! ربما! المهم أنني "غَرَبْتُ" عن وجهه.. فذهب هو إلى الجحيم!

مشيت!.. وتذكرت عمنا الطهطاوي للمرة الثانية.. فهو يقول: "عادة نساء هذا البلد كشف الوجه، والرأس، والنحر وما تحته، والقفا وما تحته، واليدين إلى قرب المنكبين!". كان يقول ذلك، وهو في قمة انفعاله! أو قمة ارتباكه! فاجتاحني فجأة إحساس

غريب!.. لعل وراء "رِدَّة" السيد عبدالعال عن دينه إحدى هؤلاء النسوة، فرفاعة يشير بشيء من الخشية إلى تَنَصُّر عبدالعال، الذي تبع "الفرنسيس" أو امرأة منهم حين غادروا مصر. وكثير من حرافيش العرب الذين يملؤون الآن هذه المقاهي المنتشرة على حافتي الشارع الطويل، يعيشون في هذه اللحظات، نوعاً من أنواع الردة.. وهي رِدّة عاطفية على الأقل! وخلفها دائماً امرأة.. أو ربما أكثر من امرأة. مشكلتنا منذ زمن السيد عبدالعال، هي "النحر وما تحته"، و"القفا وما تحته". ولكن: ماذا يعني هذا الشيخ الأزهري بـ"ما تحته"، فلقد كررها مرتين؟ كأنه يريد أن يستر غريزته بالحياء! لعلّه كتب ذلك وهو في عنفوان ارتباكه! .. العاطفي!

باريس مازالت مرتبكة هي الأخرى، ولكن ليس للأسباب نفسها.. فهي عارية النحر وما تحته، حاسرة القفا وما تحته، ولكن هذه المرة بفعل النار والموت وليس باسم "الشياكة" والإثارة!

ينتشر العسكر في كل مكان! كأنهم يتساقطون من فوق.. من الأفق والأرجاء!

عجيبات حين يرتبكن الجميلات! يقلن: "لا"، وهن يردن "نعم". ويقلن: "نعم"، وهن يردن "لا". هل تصادَفَ أن قابلتَ أنت جميلةً مرتبكة؟ هل رأيت كيف تتعثَّر، ثم تتدحرج المفردات فوق نافذة الكلام؟! في مثل هذه الحالة، خذ يدها وأسكنها بين راحتيك، ثم دعها تنهمر في هدوء أو غير هدوء. باريس الجريحة تريد أن تتدفق.. أن تنفجر.. فاسند رأسها إلى صدرك قليلاً.. قليلاً.. فهي في حاجة شديدة إلى ذلك!

أما عن الصندوق الذي في الصالة الأرضية في الفندق (هل مازلت تتذكّره؟!) فقد قال لي أحد موظفي الاستقبال بأن البوليس قد أحضر إلى هنا كل الآلات ضد- متفجرات، وبعض الخبراء ضد- متفجرات أيضاً، وفرقة من المطافي.. وفرقة من الإسعاف.. وقد طوّق الفندق من جهاته كلها، ثم فتح الصندوق! فوجد فيه ما يلي: قارورة عطر صغيرة، ومنديلاً

أبيض، وربطة عنق سوداء، ومقصّاً للشوارب، فما كان أمامه إلا أن يُسجِّل القضية هكذا: بلاغ كاذب من الفندق، وإهمال لا مسؤول من امرأة .. "عربية" أيضاً! مجهولة، ويبدو أنها نسيت الصندوق؛ لأنها كانت -هي الأخرى- مرتبكة!

****

يبدو الصباح كسولاً وخاملاً.. وقد عبث الهواء برماد صورة الجنرال، ذلك الرماد الذي كان يعبر إلى الخارج في هدوء، من خلال النافذة التي كانت نصف مفتوحة.. هناك بعض الغبار الخفيف يهوي في تثاقل من السقف، ويغيّر ملامح الأشياء في المكان الذي أخذ يضيق ويضيق حدّ الوحشة والخوف والارتباك!

فتحت باريس عينيها في تثاقل شديد يبعث على القلق! لم تكن على عادتها في التهام قهوتها الصباحية بسرعة، ثم الانطلاق للريح! أجالت عينيها في المكان، وكأنها تستنجد الذاكرة، أشياء كثيرة هنا لم تعد في مكانها الصحيح، ولاسيما صورة الجنرال.. وأشياء كثيرة لم تعد على هيئتها الأولى، ولا سيما خَدُّ باريس

نفسها الذي مازال الخط الأحمر يُقسّمه إلى نصفين، شيء واحد فقط ظل هو الهاجس، وهو متى سيكون الانفجار القادم؟ وأين؟ وهذا الهاجس كان يثير حالة غامضة من الترقب والحذر، ما تفتأ تبعث سكوناً مميتاً في المكان، وفي ما وراء المكـــان!.. لا صوت في الخارج إلا صوت السيارات التي بدت هي الأخرى، منهمكة في الحذر والترقب.. الناس الذين خرجوا إلى الشارع لشراء الحليب وخبز الصباح، يسعلون.. ويتنحنحون.. كأنهم يريدون أن يذيبوا أكوام الوحشة التي تأخذ بتلابيب الذهن والقلب، عدد من أصحاب المقاهي أشعلوا المصابيح في الداخل، لكن الأبواب ظلت مواربة بين نصف الخوف ونصف الحذر.. كل الأشياء في كل مكان تبدو على نصف حقيقتها، حتى الرسالة التي نشرها اليوم، المهاجرون المغاربة في الصحف، والموجهة إلى جورج إبراهيم عبدالله، كانت تُظْهر نصف حقيقتها.. فهم يعلنون طلبهم إليه بالتدخل للإيعاز إلى أنصاره بوقف التفجيرات، دون أن يكونوا متأكدين من أنه هو - بالضبط - الذي يقف

خلف ما يحدث، لكنهم، في كل الأحوال، يعرفون أنهم سيدفعون هم وحدهم الثمن، مهما كانت هوية المسؤول الحقيقي عن هذه "الوحشية". فبقدرة هذا الصندوق الشرير (التليفزيون)، أصبح العرب يتصدرون الأحداث، مجتذبين اهتمام الغرب كله بسياسييه وخبرائه العسكريين والأمنيين.

باريس لا تأبه لأحد، فهي تشعر هي الأخرى أنه -بالفعل- خلف هذه الأحداث أشخاص مرعبون "ذوو ملامح شرق أوسطية"، وهذا اصطلاح جديد بدأ يستخدمه البوليس، والسيد جون ماري لوبن زعيم اليمين، وبعض أجهزة الإعلام.. وهو يعني وجوهاً مستطيلة، وجباهاً ضيقة، وشوارب نحيلة تثير السخرية!

باريس الجريحة تسخر من غزل بعض أعضاء الحكومة الفرنسية للعرب، وهي تعدُّ ذلك نوعاً من أنواع النخاسة أو العهر الممقوت! والوحيد الذي أطربها، هو كاتب الدولة لـ"شؤون قدماء المحاربين"، حين طالب بتدمير قرية صغيرة في لبنان، حيث تقطن

"عشيرة" جورج إبراهيم عبدالله! والنبأ الذي هزهما، قرار البوليس بالطلب إلى ما يقرب من عشرة رجال أعمال من العرب، الرحيل ومغادرة البلاد.. أما الجالية اللبنانية، وهي تُقدَّر بحوالي 75 ألف نسمة، فمهدّدة بالسجن أو الطرد!

- سيدتي ذات الوجه المبارك! يحيا العدل؟

قلتها في حضرة باريس التي بدت حاقدة جدّاً، بقدر ما هي جميلة جدّاً، وفاتنة جدّاً.

- سيدتي العظيمة! لقد قال بطليموس: "خذوا الدرّ من البحر، والمسك من الفأرة، والذهب من الحجر، والحكمة ممن قالها". فهل يليق بوزير في الحكومة أن يدعو لتدمير قرية آمنة في لبنان، لمجرد أن جورج عبدالله يعود أصله إلى هذه القرية!

مازالت المدينة تشيح بوجهها عن الصوت! وتنهمك في إعادة ترتيب ذاكرتها: كيف جاءت المفاجأة؟ ومن أي ثقب كان ينهمر البلاء؟ فباريس على خلاف غيرها من المدن، كانت تزهو بما قاله فيها علي مبارك، وبما يقول فيها كل الناس، من أن "كل

إنسان يتكلم هنا بحريته، ويكتب (أو يقول) ما شاء في أحوال الخلق".. والجلبة التي في الخارج الآن، هي جلبة البوليس السري، الذي يتعقّب الناس، يتصيَّد همساتهم، ويحصي أنفاسهم، ويفتش جيوبهم، ومحافظهم، وحلوقهم، ومناخرهم، في الدخول وفي الخروج.. لقد قرؤوا أوراقي الثبوتية ألف مرة منذ الليلة البارحة، ولقد فتشوني مثلها أو أكثر، ما بين اليقظة والحلم! إن أكثر من 70 ألفاً من أفراد الشرطة والقوات النظامية يفرضون حصاراً شديداً على المدينة، والقرار الأخير يكاد ينفي عن باريس كل صفاتها التقليدية الجميلة، وقد اُتخذت التدابير الأمنية اللازمة في التشدد، في منح تأشيرات الدخول إلى فرنسا كلها! ووزراء الداخلية في العواصم الأوروبية الأخرى اتفقوا على إجراءات تهدف إلى تعقُّب الحلقات المهمة في العمليات الإرهابية، واتفقوا على دعم التعاون بين هيئات الشرطة في تلك العواصم، التي ستستعمل جهاز اتصالات جديد، لمتابعة تحركات الإرهابيين المطلوبين!

- سيدتي.. إنني أنكر عليك هذه الهيئة! فأنتِ تظهرين على درجة من الحقد بأكثر مما ينبغي، إنك – أنتِ الأخرى- تظهرين لي على نصف حقيقتك! لقد كان متحف اللوفر بلا حراس، ورواده من عشاق الفن والجمال، هم الذين يفتحونه في الصباح، وهم الذين يوصدون الباب خلفهم عندما يأتي المساء! لكن "نصف" زوار المتحف هذا اليوم، هم من البوليس السري! ولقد كان رواد البرج الفضي "توردارجان" أو "الكوبول" أو "دوماغو" من المفكرين والفنانين والنابهين، أما اليوم فإن "نصف" مرتادي تلك الأماكن، هم من المباحث والجنود المتنكرين في الأزياء المدنية! ولقد كان زوار "نتردام"، و "الباتو موش"، و "برج إيفل"، وجزيرة "سان لوي"، وبلفار سان ميشيل، من السياح الذين جاؤوا من مختلف أقطار الأرض، محملين بالحنين والدهشة وكاميرات التصوير، أما اليوم، فإن "نصف" زوار هذه الأماكن يجيئون من ثكنات الجيش، ومراكز الشرطة، مدججين بأمهر الأسلحة، وبأمضى العصيِّ المبرومة. لقد كان

شارع "ريفولي" وحوانيت "فوبور سانت أنوريه" تكتظ بالمتسوقين، والباحثين عن الأناقة التي تُصْنَع هنا، ثم تُصدَّر للعالم كله، لكن هذه الأماكن اليوم، أخذت تكتظ بكاميرات المراقبة، وأجهزة التصنت، ووسائل الإنذار، ضد اللصوص، وضد الأسلحة المحرمة المخفية. لقد كانت الموسيقى التي تتردد في الأفق والأرجاء، هي موسيقى "جورج براسانس"، أو "سيرج ريجياني"، أو "جون ميشل جار"، أما اليوم فإن الموسيقى التي تصك الآذان، في تكرار ممل، هي موسيقى "المرسيلية" ونشيد الحرب.. أو نشيد الثورة الفرنسية.. الذي ألفه عام 1792م ضابط صغير، اسمه كلود جوزيف روجيه دوليزل، وما كان يدري هذا الضابط الصغير المسكين أننا سنلعنه اليوم، وسنحاول أن نسدّ آذاننا عن نشيده غير الشجي!

سيدتي! هل تعلمين ماذا وجدت مع الجريدة التي أحضرها لي الفندق مع وجبة الإفطار هذا الصباح؟ لقد وجدت ظرفاً بداخله ورقة صغيرة كتبوا عليها ما يلي: "نأسف للطلب إليكم مغادرة الفندق قبل الثانية

عشرة ظهراً؛ نظراً لحجوزات مسبقة!".. قمت توّاً إلى المرآة، وتفحّصت وجهي مليّاً.. كان التليفزيون لحظتها يـردّد المصـطلح المرعـب "الأشـخاص ذوو الملامـح الشرق أوسطية"، فوضعت يدي على جبهتي الضيقة، ثم على شواربي النحيلة المثيرة للسخرية، ثم مسحت وجهي المستطيل الباعث على الرأفة، وعدت إلى مكاني أردّد أنا الآخر لحن "المرسيلية"..

سـيدتي! كـم تبـدين اليـوم قبيحـة! وكـم تبـدين صغيرة وحقيرة!

وقت الظُّهر يتراءى كالحاً.. وشاحباً جداً.. وهذا موظـف مكتـب الاسـتقبال ينتصـب أمـامي الآن، خلـف الكاونتر، ويُظْهرُ في عناء "نصف" حقيقته! إنه يأسف لمـا حـدث، ويقتـرح علـيَّ عـدداً مـن رحـلات الطيـران الدولية! كم هي مربكة حالات "النصف نصف"، التي تتسيَّد على كل شيء في باريس منذ أمس!

وضـعت حقـائبي فـي التاكسـي الـذي ابتـلّ بـالخوف وبـالمطر.. وللمطـر هنـا كآبـة سـاحقة فـي وقـت ظُهـر صيفي كهذا.. كانت تحيتي للسائق ضئيلة ومختصرة..

جلست وراءه في المقعد الخلفي، فبدا، آنذاك، في غاية الارتباك.. بين "نصف" الرضا.. و"نصف" الغضب.. تلعثمت حركته لدرجة الخطأ. أما عيناه النحاسيتان، فلم تغادرا المرآة التي تكشف جميع أعضائي، التي كانت قد استعادت ترتيبها الطبيعي على المقعد. كان يتفحص في المرآة وجهي المستطيل، وجبهتي الضيقة، وشواربي النحيلة المثيرة للسخرية! نحن في طريقنا إلى المطار، وأنا أراجع قائمة الرحلات الدولية التي اقترحها عليَّ موظف الاستقبال في الفندق الذي أغادره منذ لحظات! لست "المطرود" الوحيد الذي يتوجَّب عليه أن يغادر المدينة حالاً! فهذا الراديو يعلن الآن أن الرقم الأخير لغير المرغوب في إقامتهم قد تجاوز الألفين! ثم يضيف: وهذا جزء من حملة مركزة للحكومة هدفها المهاجرون، والراديو يعزو هذه الحملة إلى وزير الأمن، الذي قال أمام الجمعية الوطنية (البرلمان): "إنني أفضّل أن أعمل على أن أشجب". فرحت أنا، وفرح سائق التاكسي. أما فرحي أنا، فلأن وزير الأمن قد نفى خيوط

المؤامرة الدنيئة التي تستهدف اختلاس حقوق الملكية الفكرية لشعار"الشجب" من أصحابه الحقيقيين، وهم العرب طبعاً، فهم الذين اخترعوه!، وهم الذين أخلصوا له، وجعلوه أساساً في ثقافة المواجهة مع خصومهم والمتربصين بهم؛ وذلك على المدى الطويل في تاريخهم المعاصر. أما فرح صاحب التاكسي؛ فلأنه يدرك - هو الآخر- أن هذا الرقم من المطرودين، والذي سيتضاعف في كل يوم قادم، هو الحل الأوحد لإزاحة كابوس الخوف الذي يجتاح المدينة. أدار السائق لسانه في فمه مرة أو مرتين، ثم ضغط بشدة على حافز السرعة وانطلق! كأنه لم يعد في حاجة إلى متابعة ترتيب أعضائي على هذا المقعد الجلدي الذي فقد أي وهج محتمل. تذكرتُ لحظةً الشاعر العظيم فيكتور هوجو، وهو يقول: "باريس هي السقف الأكثر ملاءمة، كي يعيش تحته الجنس البشري"، تذكرت كذلك أحمد الصاوي محمد (ابن العرب)، الذي قال: "باريس عاصمة العالم.. وهي بلد لا غنى لمفكر أو فنان، من أي جنس كان، عن العيش فيه زمناً ما!".

وبدا لي وأنا أختلس النظر لصاحب التاكسي (كان يدير لسانه في فمه للمرة الثالثة)، أن عبارة هوجو قد فقدت تماماً، هذا اليوم، رونقها ووهجها، وأن عبارة أحمد الصاوي، قد أضحت شائكة، وبليدة، ومخاتلة، ومحفوفة بالعديد من التحديات والمخاطر!. فسقف باريس أصبح هشّاً، يخترقه الذباب، والبعوض، والفئران، والعقارب السامّة، والمفكرون والفنانون الذين يحتاجون إلى العيش في هذه المدينة "زمناً ما". أصبحت مسألتهم في جيب البوليس، فيجب أن يكرروا المرور ألف مرة تحت أجهزة الإنذار، وكاميرات المراقبة! وهم - غالباً - المتهمون بالفوضى، وتهريب الكلام، والترويج لجميع أنواع الممنوعات! وهم المسؤولون عن إشعال الحرائق في الشوارع، وأعمدة الضوء، والأشجار، واللافتات الكئيبة!. وعلى ذكر سقف باريس الهش، الذي تستسهل الحشرات اختراقه، تذكَّرت عمَّنا الطهطاوي الذي قال يوماً عن هذه المدينة: "فهي خالية من السُّميَّات، بل الحشرات، فلا نسمع بأن إنساناً فيها لدغته عقرب أبداً". بالله

عليكم! من الذي يستطيع أن يقنعني الآن بوجاهة هذا القول؟ ومن الذي يستطيع أن يقنع هذه المدينة المتوترة نفسها بأنها ستغفو الليلة في هدوء، تتوسد ذراعاً كثَّة، وحلماً جميلاً؟! مثل هذا الأمر يبدو في غاية الصعوبة، ولكن الأكثر صعوبة على النفس، هو هذا التاكسي الذي أخذ يتعثّر بالمارة، ها هو يزحف بين "نصف" الإقدام و"نصف" التردّد، والواقع أن كل شيء في هذه الطرقات يظهر في حالة ارتباك مدهشة، بين "نصف" النجاة و"نصف" التردّي.. بين "نصف" الغموض و"نصف" الوضوح.. بين "نصف" الحق و"نصف" الباطل.. بين اليقظة والغفلة.. بين الوعي واللاوعي، وباريس لم تتوقف بعد عن الدوران حول نفسها، وعن تحسس شعرها، وعنقها، وصدرها، وأردافها، وجيوبها، وحتى أكمامها الحاسرة، إنها تشعر أن في كل عطفة من ثوبها الجميل "عقرباً ساماً" مستكنّة! وأن في كل جزء من مسام بشرتها البضّة حشرةً قذرة مطمئنة! متى يأتي النوم! متى يجيء الهدوء! ما دامت هذه الأنياب تلمع مشرعةً

للانتقام! أجل! الانتقام من أبي الهول، كما يحلو لميرابو أن يسمي هذه المدينة، حينما أقسم "لينتزعن السرَّ من صدرها"! ولكن لماذا الانتقام؟ هل من ذنبها، أن كانت "دُرّةً يتيمة في جبين هذا العالم"، كما يقول ميشيل دي مونتاني؟ هل خطؤها أن كانت "هي الدنيا، وبقية الأرض ضواحيها" كما يُلحّ ماريفو؟ إنّ الذي أستطيع أن أقرأه في ملامح الأشياء الآن، هو أن هذه المدينة مُقدِمة على اتخاذ قرار أسود، فهي لن تغني، أو ترقص، أو تنظّم الشعر بعد اليوم! وهي لن تخرج إلى الشارع، أو المطعم، أو السينما بدون حرس! ولن تذهب إلى المسرح أو معارض الرسم بدون مسدس أو رشاش! ولن تعطي موعداً على العشاء لأحد! ولن تشرب القهوة بعد العصر مع أحد! ولن تذهب إلى حديقة اللكسومبورج مع أحد! ولن تمشي أو تركض في غابة بولونيا، وكفها الناعم في كف أحد! لن تدع أحداً يُقبِّلها! أو يضمها! أو يعانقها! ستكون على مسافة واحدة من الحياة والموت، ومن الشعر والحب! سوف تعتزل الكلام! لن

يكـون هنـاك كـلام! سـتمحو مـن ذاكرتهـا الكـلام الجميل..وكل الأحلام الجريئة.. وسيجثو على شفتها الشّبعة كـل مـا فـي العـالم مـن صـمت ثقيـل! سـتقيم الحواجز الترابية حول عينيها، وستُحكمُ الحراسة على أبـواب قلبهـا!.. سـتبدو متجهمـة كالليـل! عابسـة كالجبل! كالحة كالرمل! مالحة كالألم! مرعدة كالبكاء! مزبدة كالبحر! ثائرة كالذعر! غاضبة كالحمى!..

يـا للدهشـة! إن يـديّ ترتعشـان، وهـذا التاكسـي مـازال يتعثَّـر فـي زحمـة الطريـق، والمطـار علـى بعـد ثلاثين دقيقة من هنا. ولكن لا مجال للقلق، فالرحلات الدولية التي اقترحها موظف الاستقبال متعددة وكثيرة، وهي كفيلة باستيعاب جميع "المطرودين"، وأنا لست وحيـداً فـي الإخـلاص لتنفيـذ هـذه العقوبـة! سـأرحل حتماً، وسأقترح على المرحوم طه حسين، أن يحذف الجزء الأول من عبارته هذه: "باريس اجتمع فيها كل ما يحتاج إليه الناس، وكل ما لا يحتاجون إليه".. لم يبق الآن من هذه الحقيقة إلاّ "نصفها" الأخير.. ألم أقل لكم في مرة ماضية، أن جميع الأشياء تبدو - منذ

اليوم - على نصف حقيقتها، حتى صاحب التاكسي الذي التفت إليَّ عند إحدى إشارات المرور، يدعوني إلى عدم الاكتراث بالتعليمات التي تحظر التدخين في التاكسي، كان يبدو على نصف حقيقته! فهو لا يعرف أنني من المدخنين، لكنه لاحظني متلعثماً في تفكيري، وفي حركة يديّ، وفي نظراتي التي كنت أصوبها إلى قفاه من حين لحين! إنه يريد أن يهدئني! فلربما خشي أن أُشهرَ في قفاه المرتعد الذي يزداد احمراراً، المسدس الذي أدسّه في جيبي! أو أسلّ السكين التي أخفيها في معطفي، أو أخرج القنبلة التي تسكن حقيبتي اليدوية! أخبرته أنني أحب الموسيقى، فالموسيقى أقل ضرراً من التدخين! لقد أظهرت له نصف حقيقتي، وعليه أن يفهم ما يشاء! أدار لسانه في فمه مرة، أو مرتين، أو ثلاثاً وانطلق يطوي الأرض من جديد! لكنه عاد، رغم إعلان حبي الشديد للموسيقى، يراجع في المرآة ترتيب أعضائي الملقاة على المقعد، أي خلف جمجمته التي بَدَتْ لي الآن مستديرة كالهمّ العظيم! سألته بمرارة، إن كان قد قرأ

عبارة فريدرنج سيبورج: "باريس ليست عاصمة فرنسا فحسب، ولكنها مركز الإنسانية". لكن اللئيم أجاب بسؤال أكثر شراسة، إذ سألني، وهو يغرس عينيه في وجهي الذي تفعم ملامحه المرآة المعلّقة أمامه، إن كنتُ أنا، من جهتي، قد قرأت عبارة دستوفيسكي: "ماذا يبقى لفرنسا، إذا أُخذت منها باريس". صدق هذا اللعين الذي يتربص بي! باريس راحلة، وباريس توشك أن تؤخذ، سيستدرجها العنف، سيحتويها الغضب، وستطوي أوراق الحب التي قرأتها أو كتبتها، وستغلق على نفسها باب غرفتها، ولن تغادر مرآتها الملطخة بالدموع والغبار والأتربة، وبقايا رماد صورة الجنرال. كنت أشعر أنا أن باريس تتنصل من واجباتها الإنسانية، وأنها تهمل تقاليدها التاريخية، ولقد كان يحس - هو - أن ما يجري الآن نوع من الغزو المدمِّر، الذي يسلب المدينة أبهج ما فيها: الحرية والحب.

سائقو التاكسي دائماً القابضون على أسرار المدن، وهم الراصدون لبوح الواجهات، وهمس

الأشجار، وأغنيات الأرصفة. سائقو التاكسي مصرح لهم بأن يكونوا الأكثر حميمية مع المدن، فهم يعرفون عوالمها العلوية، وهم أكثر الناس اكتشافاً لعوالمها السفلية. إنهم الوحيدون الذين تصل إلى آذانهم، من المقاعد الخلفية لمركباتهم، مواعيد الغرام، ولعنات الخصام، ونذر الفراق، وهم الذين يلتقطون من المقاعد الخلفية نفسها، بوح الناس بأحزانهم، وآلامهم، وأوجاعهم، ومغامراتهم، كل ذلك يحدث دون أن يقولوا، هم أنفسهم كلمة واحدة، فسائقو التاكسي في باريس لا يتكلمون .. لكنهم يستمعون .. إنهم لايحسنون الكلام؛ لكنهم يجيدون التلصص والتصنت .. قلوبهم عامرة بأوجاع المدن، فلهم وحدهم تنثر أسرارها، وخباياها وخطاياها. لعل صاحبي .. صاحب التاكسي، يلاحظ أن باريس صارت تضيق بالحرية، ولم تعد قادرة على الحب، وماذا تساوي باريس بدون حب أو"فن العشق"، كما يسميه عمنا الطهطاوي، الذي كان يرى أن فنَّ العشق يستولي على قلوب "غالبية الناس" هنا. ما باريس من دون أشيائها الجميلة؟ ومع

أنني "مطرود"، وأن كل شيء حولي كان يبدو قبيحاً وشرساً، إلا أنني أخذت أشعر بما يشبه التعاطف مع "ملاحظة" السائق، ولقد أذهبُ إلى أبعد مما ذهب إليه هذا الشوفيني، ذو الجمجمة المستديرة: فماذا سيبقى للعالم كله، وليس لفرنسا وحدها بعد باريس؟ هل يدرك حرافيش العرب، أو غير العرب (لا أدري!) أبعاد هذا العبث؟

- سيدي سائق التاكسي (صحت في قفاه! ولا إراديّاً، وضع قدمه بقوة على "قيد" العجلات، حتى كاد التاكسي أن يقف، وهو حتماً سيقف! فلقد وصلنا المطار).

- خُذ بالك من باريس (أضفتها وأنا أدير عكرة الباب، وأضع القدم الأولى على زِفْت المطار).

كان وقت العصر كئيباً!.. وكان خطاب عامل التذاكر كالحاً!.. وكنت أريد الخروج!

****

المطار "نصف" المسافة بين الرحيل والرحيل، هو البوابة الأولى باتجاه "الخارج"، وهو مفتاح القلب

نحو "الداخل". وأنا مأخوذ بين حلم الدخول وحلم الخروج، ولكل حلم وجدانه، وألوانه، وأصواته.

باريس تقبع فيما وراء الباب الزجاجي الضخم، والقاعدة أنك ستخطو نحوها في شوق وتدفق، ثم ستعلّق حول نحرها وردتين، وهي ستلقي فوق خدك قبلتين، وحين تهمُّ بالرحيل، ستأخذ رأسها إلى صدرك، وستشعر بحرارة الماء يسيل على مقدمة بطنك، فها هي تسكب لفراقك دمعتين! أما الشاذ والنادر واللاقاعدة، أنك ستمضي نحوها في حذر وارتباك، ثم ستصوّب نحوها نظرتين، فتعيدهما لك صفعتين، وحين تريد الخروج أو المغادرة، ستقذف في أثرك (في صدرك أو على قفاك) حجراً أو حجرين. إنَّ خلف ذلك الباب الزجاجي الضخم، مدينة متوترة وشرسة، وأمامها كومة كبيرة من الغضب والألم، ومن الحجارة الجائعة للّحم، أما داخل الباب الزجاجي الضخم، فهناك أعداد ليست هينة من الراحلين والمطرودين، وهذه آثار الحجارة تبدو على صفحة الوجه، وعلى جدار القلب، وفوق أستار العين.

تنتثر عند أرجلهم (على بلاط المطار) أشياؤهم الصغيرة: أشرطة الكاسيت، الصور العائلية، طاولات لألعاب الزهر، وبعض الأغطية القديمة. وهناك، على بُعد أمتار، أطفال "شرق أوسطيون!" يلهون، ويتقافزون حول الكراسي البلاستيكية المثبتة في الأرض! وهناك من الجهة الأخرى، على بعد أمتار أيضاً، كومة من النساء الأفريقيات، اللاتي تُفَرْقعُ الكلمات بين أسنانهن كإيقاع الـ"تام تام".. يتكلمن بأيديهن، وبأكتافهن، وبصدورهن البارزة جداً.. الضخمة جداً.. في الدور الأرضي من مطار شارل ديجول هذه صالة السفر المستديرة تبدو مكتظة، ولكن الزحام هنا زحام العرب والأفارقة، وزحام الجنود الفرنسيين الذين جاؤوا لتوديعهم! أجل، الجنود في زيهم العسكري ومسدساتهم السوداء، التي يتشح بها الجسد المغرور ويزهو، وهذه هي بنادقهم المشرعة تتدلى على جنوبهم. هناك جنود آخرون منافقون، غامضون، حربائيون، متنكرون في أثواب المدينة، بعيونهم الفضولية، وأنوفهم الطويلة التي لا تُقاوَمْ. في

المطـــار كـــذلك قليـــل مـــن الهنـــود.. وقليـــل مـــن الأجناس"الثالثية!" الأخرى المتواضعة، التي كانت قد جـاءت إلـى هنـا لتعفـي الإنسـان الأبـيض مـن كـنس شوارعه، وحمل بقاياه ومخلفاته، ولتجعل حياته أكثر رفاهاً وأكثر زهواً. كل شيء في المطار يعطي الانطباع أن هذه حملة كبيرة لـ"تنظيف" المدينة من الحرافيش التي تؤذي العين! وتخدش البصر! ربما شعر الإنسان المتفوق أن "الهجمة" على مستقبله أضحت واسعة وكبيرة، وأن عليه أن يحمي حضارته ومدنيَّته (أشياءه الكبيرة) من عبث الإنسان "المتخلف".. فهؤلاء، حتى في الغرب، يأكلون على الأرض، وينامون على الأرض، ويمارسون الحب على الأرض، وينجبون أطفالهم على الأرض، فهم دائماً الأقرب إلى الأرض.. الأقرب إلى الـ"تحت"، فليس لهم من مكان غير أن يكونوا "تحت"، ها هم يرتدون أزياءهم التقليدية المثيرة للاشمئزاز في الشوارع! ويرقصون رقصاتهم الشعبية السخيفة المضحكة في الشوارع، وها هم يذبحون قرابينهم في الشوارع، يا لمنظر الدماء! وها هم

يحتفلون بختان أولادهم كذلك في الشوارع، يا لمهرجان الدماء!. إنهم يشوهون لغة البلاد باستعمالاتهم الشاذة، ويحرِّفون أغاني البلاد بأذواقهم الرديئة، وأصواتهم القبيحة، وألسنتهم العوجاء الثقيلة، ولا يحبون الأكل في المطعم، أو الجلوس في المقهى، ولا يعرفون استعمال الأوتوبيس، أو استخدام الميترو، وهم يخيفون الأطفال في الحدائق العامة، أو على أبواب المدارس، ويتحرّشون بالنساء، ويقومون بمضايقة "المواطنين" في الأماكن العامة، وصالات السينما، والأسواق، ومحلات العطور، ثم إنهم لايغسلون أسنانهم قبل النوم، ولا يحلقون ذقونهم سوى مرة واحدة كل ثلاثة أيام، ولأجسادهم رائحة منتنة في الزحام، وفي ديسكوهات الرقص. يلبسون في الشتاء لباس الصيف، ويلبسون في الصيف لباس الشتاء. وهم، فوق ذلك كله، لا يتذوقون القواقع المثلجة، ولا يحبون السوفليه بالشوكالاتة البيضاء، ولا يستطعمون "المارون غلاسيه"، ولا شوربة البصل، أو سيقان الضفادع. أما حسب معلومات

البوليس، وتقارير الصحف، ونشرات التليفزيون، فهم الذين يسرقون الأطفال، ويسطون على البنوك، ومخازن المجوهرات، ويغتصبون النساء، ويقتلون العواجيز والمتقاعدين، ويختطفون الطائرات، ويطلقون الرصاص على المسافرين، ويفجّرون المكاتب السياحية، والمقاهي والفنادق ومراكز الشرط!.

كنت أقتعد همّي وحقيبتي الوحيدة في وسط الصالة المستديرة في مطار شارل ديجول. كانت تدهشني تلك المواجهة الحذرة بين الاحتقار والاحتجاج، بين الإدانة والدفاع، بين الحكم والاستئناف، بين الجبروت والرأفة، بين الغطرسة والتوق إلى التواضع، بين البطش والامتعاض، بين الظلم والقهر، بين القوة والضعف، بين الأبيض والأسود... الأسود؟! هل قلت الأسود؟! لقد كان بالفعل أسود هذا الذي انتصب إلى جانبي كشجرة الطلح، كان شاهقاً وشائكاً، وتكسو جمجمته وذراعيه وصدره المفتوح شعرات كثيفة بيضاء! إنه - هكذا - يبدو بالفعل شديد الشبه بشجرة الطلح!.

هو في حوالي الخمسين من عمره، ويقرأ على الشاشة التي أمامنا مواعيد الرحلات المغادرة. يا إلهي! كأنني أعرفه منذ سنين، مع أنني لم أقابله قط، ربما أنني أحس بمثل هذا الإحساس لشدة شبهه بشجرة الطلح!.لقد وجدتني أنقاد، دون مبرر، إلى سؤاله:

- إلى أين؟
- إلى مالي في إفريقيا.
- لماذا؟
- مطرود!
- كيف؟
- اتهموني بالتشرد! وبإزعاج الجيران بعد الحادية عشرة ليلاً، وباستعمال المصعد في عمارتنا القديمة!!
- ثم سأل:
- وأنت؟.. من أين أنت؟
- عربي!
- فعاد ينظر إلى الشاشة من جديد ويتمتم:

- واتهموك بالتجول في شوارع "باربيس" أو "بلفيل"* بعد منتصف الليل، وأدانوك بتعاطي "الكسكسي" سبع مرات في الأسبوع، وحكموا عليك لإنجابك أكثر من عشرة أطفال في عشر سنوات!! وهذه - يا حبيبي- كلها مفاسد إرهابية.. شرق أوسطية!.. يحظرها العرف، ويحرمها القانون، ويعاقب عليها القضاء!

- أنتم السود تزعجون الجيران! ..عندما تبكون! أو تصلّون! أو ترقصون! أو تنامون!.

- وأنتم العرب تمارسون الإرهاب حتى عندما تضحكون، أو تُقبّلون زوجاتكم! لقد قرأت أمس في إحدى الصحف أن تاريخكم مطبوع بالعنف! وأن طباعكم مجبولة على القسوة. هل صحيح أن بعض حروبكم القبلية، في القديم، استمرت لا أكثر من أربعين سنة، والقضية ضرع ناقة أو ساق شاة أو ذنب عنز!! إن الغرب الآن بكل مؤسساته "مدفوع" لقراءة تراثكم من جديد!

* حيّان في المدينة أغلب سكانهما من المهاجرين العرب.

ثم أضاف يسأل:

- إلى أين؟

- إلى السعودية..

- أنت من هناك؟!

- نعم!

الأفريقي/ الطلحة جلس إلى جواري مقتعداً حقيبته، وكبرياءه، وحزنه المديد:

- يا أخي، جورج إبراهيم عبدالله منكم!.. وربما كنتَ أنت "منهم!، ولكن ما ذنبنا نحن السود؟

- أنتم لكم ذنوب أشنع وأفظع، وأهمها ذنب عظيم واحد هو تلك الرائحة "الكريهة" التي تفوح من أجسادكم حين ترقصون، أو تحبون، أو تغضبون! ألا تستطيع أن تقدِّر حجم هذه "المفسدة" الحضارية! أيها الرجل/ الطلحة؟!

- يلعنك الله!(قالها ضاحكاً وقد استدار حول نفسه مرتين).

- هذا هو باب الإرهاب الفسيح يا حبيبي.. إنه يتسع ويتسع، حتى يصبح حجم فوهته حجماً

مهولاً.. يبتلع كل شيء! بما في ذلك روائح أجساد الأفارقة.

عاد ينظر إلى شاشة المواعيد.

عدتُ أنظر إلى الباب الزجاجي الضخم.. خلفه تقبع باريس!.. مازالت ترقبني في فضول قاتل! ومازالت تُصوّب وجهها نحوي في تجهُّم مميت! هل جرَّبت أن تغادر امرأة وهي غاضبة وحاقدة "ومستذْيبة"! جرّب مرة واحدة، وسترى أن الوضع مربكٌ لدرجة الحمق. حاول تكرار التجربة مرة أو مرات، وستجد، مثلما وجدت أنا، أن الشمس تسطع بـ"نصف" عين، وأن القمر يطل بـ"نصف" وجه، وأنك أنت بـ"نصف" قلب، ونصف عقل، ونصف حلم، ونصف تساؤل، ونصف نصف! هل مازلت تتذكَّر نصف النصف الذي يتسيد على كل شيء؟! إن صديقي الأفريقي/ الطلحة يلاحظني الآن بنصف حب، فهو يعرف أن حملة "التنظيف" هذه تشمل كل من في هذه الصالة المستديرة لسبب واحد مشترك، وهو الصدام بين الإنسان المتفوق و"الآخر"، والمسوغات

الآنية ليست مهمة، لكنه يدرك أن لي سبباً واحداً خاصاً أتميَّز به، وهو "الإرهاب"! .. وتقديم الحرب على الحب، وهكذا فإنني أظهر أمامه وحروبي التاريخية. أظهر مرة في صورة قرصان، ومرة في صورة وغد، ومرة في صورة عابث..

- آخ!.. هل تحب التليفزيون؟ (سألته!).
- أحب الأرملة"فرانس غال" عندما تغني!
- وشيء آخر؟!
- "جين بيركن" عندما تعطي ظهرها للمشاهدين!
- وغير ذلك؟!
- "إيزابل إدجياني" وهي تقدم دعاية لجوارب الصيف.

كم يبدو مرهقاً و"غليظاً" هذا الأفريقي/ الطلحة! لا أدري لماذا اجتاحتني رغبة مجنونة في أن أصفعه!

قبل أن أغادر، جعلت أنظر إلى الباب الزجاجي الضخم.. ها هي باريس تتمدد خلفه!"أظن" أنها مازالت ترقب رحيلي في فضول قاتل! أظن فقط! فأنا

لا أرى الآن سوى شبحها البعيد.. يغيب أو يتغايب .. يتململ، أو يتزلزل ، أو يتضعضع في تثاقل! .. سقطت الشمس.. فتضاءل الضوء.. والمغربُ بدا ناقماً.. ينذر بعتمة حالكة جداً! وأنا مبتعد.. مبتعد على كل حال!

****

الطابور مكتظ ومديد، وموظف الجوازات، الباهت المكتسي كسلاً وحزناً، بدا وكأنه يريد أن يسرق بقايا الهدوء المختفي في عروق هؤلاء المسافرين، إنه ينهمك، بنهم لا مثيل له، في قراءة كل حرف ضئيل في أوراقهم، لعله يريد ألاّ ينساه قط أحدٌ من الواقفين هنا!

كان أسود هو الآخر، فربما كان من "المارتينيك"، أو من إحدى المستعمرات القديمة في أفريقيا! كان غليظاً أيضاً، فربما أطربه أن يكون هذا "الختم" السحري بين يديه هو، وليس بين يدي أحد غيره، والقاعدة هي أن يلقيه على أوراق جميع الواقفين دون تريُّث، ولكن لعل بُطأه الشديد

كان ينذر بأنه يبحث عن شيء ما، عن إشارة ما، عن أحدٍ ما.

ضجّ الطابور أكثر من مرَّة! أما النسوة فقد جلسن على الأرض مباشرة. الأفريقيات منهن، في مؤخراتهن العريضة، ما تزال الكلمات تُفرقع بين أسنانهن، كإيقاع دربوكة ملتهبة بالضرب والرغبة!، ما تزال صدورهن الضخمة البارزة جداً تهتز مع كل صرخة، أو همزة، أو لمزة، ثم.. ثم صاح أحد الواقفين، من بعيد:

- ستفوتنا الطائرة.. يا سيد!

رد الكائن الأسود الذي بيده "الختم" وتصريف الأمور:

- لا تحزن ياصديقي! فلن تقلع الطائرة من دونك!

كانت خيوط السخرية تتضح تماماً في نسيج الجملة التي أطلقها في هدوء، أطلقها دون أن يرفع رأسه عن الأوراق التي بين يديه. لقد سرت إشاعة هنا بأن جميع الطائرات ستتأخر عن موعد إقلاعها، والسبب لا يعلمه - كما يبدو - غير من بيده الختم وتصريف الأمور، أي مثل هذا الأفريقي القديم،

الساهم كالشمس!شمس الصيف عندما تحرن في السماء!

أخذت تزحف نحوه أسرة عربية صغيرة: زوجان وثلاثة أطفال، أكبرهم سنّاً يبدو في الثانية عشرة. لقد طال وقوف العائلة أمام الكُوّة الزجاجية الصغيرة، التي كان يزداد صوت الموظف - خلالها - وضوحاً، ولقد بدا الأب الخمسيني منهكاً وكئيباً، كانت قامته القصيرة تضع وجهه النحاسي الجائع أمام فوهة الكُوّة بالتمام، وكان قميصه الأحمر موثقاً حول صدره وعنقه النحيلة بإحكام شديد.. شديد.. كأنه يخفي تحت هذا القميص عيوب الأرض والسماء! أما الأم التي يصعب تحديد سنها - كأي امرأة عربية!- فقد كانت فارعة الطول مقارنة بالزوج، وتنوء بطفل رضيع على الجنب، وبشحوم كثيرة في جميع نواحي الجسد، ولاسيما من جهة العجز و"ما تحته". طلب الكائن الأسود، إضافة إلى جواز السفر، أوراق الإقامة، وتصريح العمل، والصحيح أنه بدا للواقفين أنه قرأ تلك الأوراق مليون مرة! فأخذ الزوج يتمتم من تحت صدر الزوجة التي

تطلُّ من فوق (الفارق واضح في الطول). هناك شعور بأن الجنود السود هنا أكثر العسكر صلفاً، ولا سيما حيال الجنسيات "المتواضعة"، كالعرب، والبرتغاليين، والهنود! لقد "أَسَرَّ" لي أحد الواقفين على مقربة من الصندوق الزجاجي، الذي يأوي الإمبراطور الأسود، بأنه ليس لهذه التصرفات الصادرة من السود المتفرنسين سوى تفسير واحد، وهو أنهم يحاولون أن يقولوا لنا ما لا يستطيعون قوله لـ"الفرنسيس"، ثم عاد هذا الذي "أَسَرَّ" لي يدعو الجمع الواقف - علناً - إلى التحلي بالصبر، والتجمُّل بالأناة، والحلم، وطول البال، وبرود الذهن والدم والقلب! فدوَّى الطابور بالتصفيق الحاد الذي أخرج الجميع من حالة الخمول والملل والضيق، إلى حالة من التمدد التلقائي إلى الأمام وإلى الخلف، فأخذوا يضحكون، ويلقون النكات حول "الوضع" القائم في الصندوق الزجاجيٍ المقابل.

وتراءى لي لأول وهلة أن للناس قدرة هائلة، إنْ هم أرادوا، على تفجير الكآبة عُرْساً للضحك، وذلك ما كان حقّاً يبعث حمماً من الضجر المتدفق في عينيّ صاحب "الختم"، ومن بيده تصريف الأمور!

- أنت!

صاح موظف الجوازات في الوجه الذي كان يتخاذل أمام الكُوّة الزجاجية، فارتعد! ثم اختفى تحت صدر الزوجة الفارعة الضخمة، التي انهالت نحو الفضاء العلوي للصندوق تسأل - في لغة فرنسية ركيكة - ما الخبر؟ لم يجبها من بيده الختم، وأمر الحل والعقد! بل جعل يفرز الجوازات الخمسة، إذْ ناول أربعة منها الزوجة آذناً لها ولأطفالها - فقط! - بالعبور.

- وزوجي؟ (سألته المرأة التي لم ترتبك بعد).

لا جواب! بل إن الضجر يأخذ في التدفق على الوجه المكتسي كسلاً وحزناً، كلما اهتز الطابور الضخم المديد بنكتة مُرّة، أو بتعليق لئيم! وكان نصيب الزوج (المختنق بقميصه المُحكم) جوازه، وجملة واحدة قيلت في حدّة، هي: "انتظر هناك!"، وكأي مواطن عربي صالح، تربى على الامتثال لأوامر العسكر، والمدرسين، ومأموري التفتيش، وموزعي الصدقات، انتحى الرجل جانباً، ثم أسند ظهره إلى

الجدار، ينتظر المصير الذي بدا في منتهى الغموض. كان الطابور قد تقدم واحداً أو اثنين، فعادت الزوجة تنثال من فوق القفص الزجاجي:

- أريد البقاء معه!.. مع زوجي!

لا جواب أيضاً، فلقد انتقل "الكائن" الأسود لفحص جواز آخر، وأوراق ثبوتية أخرى، فلم يكن يعنيه ما تقوله هذه المرأة المدلهمّة كالليل، أو كالهّم العظيم. تدخّل الطفل ذو الثانية عشرة يُعيد تأكيد ما قالته الأم:

- نريد البقاء معه!

كان الطفل طليقاً، وكانت لغته مشبعةً بلكنة باريسية مثيرة، تدفع إلى اليقين بأن هذه الأسرة قد قضت سنوات طويلة في الغربة. كان على صدر الطفل "تي شيرت" وعليه رسم لملامح المغني الجزائري/ الفرنسي"أنريكو ماسياس"، كانت الملامح باهتة، لكن الواضح أن هذا الفتى الغض كان من الجزائر؛ لأن الجزائريين يعتدون بـ"أنريكو"، دون التدقيق طويلاً في أصله اليهودي فهو، على كل الأحوال، من هناك من

"قسطنطين"، وهو يغني كثيراً لشمس الجزائر، ولنسائها الجميلات.

- ماذا فعل زوجي؟!

هكذا عادت المرأة التي تنوء بالطفل الرضيع، تنقض على العسكري الأسود من الفضاء العلوي لـ"الكابينة" الزجاجية.

- سأنتظره هنا!

أكملت، ثم ألقت على الأرض الطفل الجالس فوق أعلى وركها الأيمن. الطفلان الآخران ظلاّ يعالجان باب الكابينة، يحاولان الدخول، وهذا المارد العجيب لا يرفع منخاره الواسع عن الأوراق التي بين يديه، وقد كانت هذه المرة أوراقي. رأيت جنديين فرنسيين، أبيضين أشقرين، يقبلان نحو الزوج الضئيل، الذي كانت ترقبه زوجته دون أي ارتباك حقيقي بعد!!

- أليس هناك إلاّ هذا؟ (سأل أحدهما موظف الجوازات).

- بل هناك غيره! خذوا هذا أيضاً (لقد كان يشير إليَّ -أنا شخصياً- هذا القبيح!).

ارتبكت! وتلعثمت! ثم سألت! بل لقد تمالكت ورفعت صوتي كأعلى ما يكون! ودفعت الجزء الزجاجي العلوي من الكابينة بكلتا يدي! ولكني وعيت بعد قليل وظهري مسندٌ إلى الجدار البعيد عن الكابينة، هناك! إلى جانب الرجل الضئيل، ثم لحق بنا فيما بعد واحدٌ، واثنان، وثلاثة. كان الطابور ما يزال ضخماً ومديداً، وغير منتهٍ. أجل! ذهب موعد إقلاع طائرتي، ولكن الإشاعة ما زالت تسري هنا، أن العديد من الرحلات قد تأخر موعد إقلاعها! الوقت كان يركض كحصان مجنون! وعدد المسندين إلى الجدار مثلي تعدى العشرة، والطابور ما يزال مديداً وغير منتهٍ! ها قد أقبل الجنديان الفرنسيان إلينا من جديد.. كانا حثيثين! ومختالين! وتافهين! وقبل أن نُسحب إلى حيث لا أدري، رأيت الرجل الضئيل يقول لزوجته: غادروا هذا المكان، وسألحق بكم في طائرة الغد.. أو ربما بعد غد. كان الجنديان يتجهان بنا نحو الخارج، بل لقد أخذانا بالفعل إلى الخارج.. ثم إلى الداخل.. أقصد داخل سيارة سوداء "مني باص"، وانطلقت بنا

كـالريح أو كالمنيّـة، كـل الموجـودين هنـا "شـرق أوسطيون" بوجوه مستطيلة، وجباه ضيقة، وشوارب نحيلة تثير السخرية!.. الوقت الآن بعد منتصف الليل، والهواء الذي يتسلل عبر النافذة الـ"نصف" مفتوحة بارد وجاف، وله رائحة تلطم الأنف والصدر. كل شيء مقتول هنا بالصمت وبالحذر، عدا هدير الأتوبيس الصغير الذي ينقلنا، وعدا بعض السيارات التي تتجاوزه، أو تعاكس سيره. لم يجرؤ أحدٌ أن يُكلِّم أحداً، كأن القبض علينا قد تمَّ في مشاجرة محتدمة، اشترك فيها كل مَنْ هنا، مع أننا، في واقع الأمر، لم نر بعضنا بعضاً إلا في هذه العربة الحقيرة، أو ربما قبل قليل - لَمْحاً - ونحن في الطابور الطويل.. المديد كنهرٍ متدفق من القهر.

لم نستنكر أي شيء على يقظة باريس! فهي دائماً هكذا لا تهدأ بالنهار، ولا تنام بالليل! إنما الذي لاحظناه، هو الحذاء الغليظ الذي كان يغطي قدميها! والبزّة الترابية الطينية التي كانت تدسُّ فيها جسدها الراسخ في الغيّ وفي الفتون! ثم ذلك الخط

الأحمر من الدم الذي مازال يقسم صفحة الخدّ إلى نصفين!

كأنها آثار شيخوخة مفاجئة، تلك الخيوط الرمادية التي اعتلت الكفين، والذراعين، ثم تمددت في فوضى مرعبة إلى أعلى الرقبة، وإلى ما تحت العينين، كان لحن "المرسيلية" ما زال يصكُّ الآذان! أما لوحة الجنرال الكبير (البورترية)، فليس هناك سوى نُتَف ضئيلة جداً من رمادها.. ليس هناك سوى أثر النار على الأرض.. كان الأثر في حجم اللوحة نفسها..

الناس ما فتئوا حثيثين في كل مكان.. الشوارع ما برحت مرتبكة.. متعثرة.. اللافتات ما زالت باهتة مترقبة.. واجهات المقاهي ظلت كالحة وراكدة.. راكدة.. لعلها تشبه النُّصب التذكارية القديمة التي أكلتها الشمس والريح.. كأنني لم أغادر باريس هذا الصباح فقط! بل كأن عشرات السنين من الفراق قد تصرّمت بيننا. لكن مالي ولها الآن، فالحافلة الصغيرة تتوقف أمام مبنى قديم.. كان على بابه الكبير عدد من الجنود في بزاتهم الزرقاء الداكنة! أدخلونا، ثم جعلونا

ننتظر على مقاعد خشبية في صالة مستطيلة شاحبة.. مغلقة.. نصف مضيئة.. وليس بها أي نافذة للهواء أو للشمس.. أو للهرب! والشيء الوحيد الذي يمنع الاختناق، بعد أن تصاعد دخان السجائر، هو السقف المرتفع.. المرتفع جداً. وبعد مرور ساعة واحدة، لاحظت أن عددنا قد أخذ يتناقص.. فقد شرعوا يقتادون "المعتقلين" هنا الواحد بعد الآخر.. والذي يخرج لا يعود! حتى جاءني الدور، فأخذوني في الوقت الذي لم يبق في هذه الصالة سوى الرجل الضئيل!

- هل اسمك عبدالله إبراهيم.

سألني الضابط الذي كان خلف مكتب صغير في الغرفة المجاورة، كانت مساحتها لا تتجاوز الاثني عشر متراً فقط.

- نعم! (أجبته).

- ثم أضفت: واسم العائلة "أبو وادي"، كما تلاحظ في الجواز.

- عبدالله إبراهيم.. إبراهيم عبدالله..

رددها أكثر من مرة، وهو يتفحَّص أوراقي بعناية مزعجة، ثم عاد يقول:

- هل أنت من أصل سعودي؟!

ولأول مرة أتلعثم في الإجابة عن هذا السؤال تحديداً.. لكنني ما لبثت أن قلت:

- .. من أصل فلسطيني!

رفع رأسه نحوي في اهتمام قاتل، وهو يشدّد قبضته على الجواز:

- أبو وادي.. مثل أبو نضال.. أبو موسى.. أبو العباس.. أليس كذلك؟!

لم أجبه.. فعاد يسأل:

- ماذا تفعل هنا؟

أجبته:

- لقد زرت بعض المكتبات، لأنني أجري بعض الأبحاث في مجال تخصصي!

نهض الضابط! ثم غادر الغرفة لحظة واحدة.. عاد بعدها ومعه جندي من هؤلاء الجنود المحشوين بالغرور والتفاهة، لقد تكفَّل هذا الجندي باقتيادي إلى

الخارج، وفي الدهليز المديد، التقيت الرجل الضئيل، الذي أخبرني بأنهم مرّروه على عدد من العسكر في صالات أخرى، لاشتباه أوصافه بأوصاف الرجل "الشرق أوسطي" الذي نشرت الصحف، قبل أيام، أنه اغتال السيدة المسنّة "أوديت" في جنوب فرنسا. ثم قال لي: إنه يغادر الآن إلى المطار - مرة أخرى - للحاق بأسرته، فالأوصاف لم تكن مطابقة تماماً.

ستار:

عبدالله إبراهيم أبو وادي، مكث قيد التحقيق أكثر من خمسة عشر يوماً.. فاسمه عبدالله، واسم أبيه إبراهيم (عبدالله إبراهيم، إبراهيم عبدالله)، وفوق ذلك، فإن اسم العائلة يبدأ بـ"أبو".. كان الاسم مربكاً حقّاً! يستحث العديد من المقارنات. وقد صدر الحكم عليه أخيراً بالطرد! مع الاعتذار الشديد بعدم السماح له مستقبلاً بالدخول إلى البلاد.

علي.. والكلب

مد يداً كالحة، ذات عروق نابية، وشعرات مثلّمة، وأظافر غير منتظمة، تسكوها بقع ونُقاط ودوائر عشوائية بيضاء، هي بقايا نزق فرشاة الدهان العريضة التي يقضي جُلّ وقته في اليوم يطارد حركتها، صعوداً وهبوطاً، فوق الجدران الداخلية الكابية لأحد المنازل المقابلة للمقهى، الذي يلجأ إليه للأكل أو شراء الدخان..

كان يحمل في يده ورقة نقدية ضامرة من فئة العشرة يورو:

- أريد سجائر لو سمحت! (موجهاً كلامه لبائع السجائر (صاحب المقهى) في أحد أطراف المقهى).

علي بوزغده (جزائري) عندما يُدخّن السيجارة يأتي عليها، في نهم شديد، إلى أن يصل آخرها!.. يأتي عليها حتى يحسّ لذعة جمرتها بين أصابعه.. أو حتى تتصاعد إلى أنفه رائحة الطلاء المحترق الذي يتناثر فوق كفّه البائسة وأصابعه القصيرة الذاوية!..

علي بوزغده "دهّان"، والفرنسيون يستخدمون للدهانين الكلمة نفسها التي يستخدمونها للرسامين Pintre،.. يفعلون ذلك ربما من أجل خاطر الألوان، وربما من أجل خاطر الفرشاة!.. وربما من أجل خاطر علي بوزغده وأشباهه من العمال، تعزية لهم عن الروائح الكيميائية المزعجة المستقرة في أنوفهم!

علي بوزغده عندما يُدخّن، يختزن الدخان في صدره مدة طويلة وكافية لكي يتلاشى أو يتبدد داخل الرئتين، ثم يتحوّل الفائض الخارج منه إلى خيوط سوداء خفيفة، تنبعث من منخاريه الواسعين المكتظين بالشعرات السميكة البيضاء والسوداء!..

سيجارة واحدة بالدنيا، ولاسيما بعد أن يلتهم الـ"ستيك" النحيل جداً، مصحوباً بكومة كبيرة من

طبـــق الفرنسيين الشـهير Pommes Frites بطاطـس مقليـة، ومسـنوداً بـالخبز الفرنسـي الشـهير "باغيـت" الذي يمتـد إلى خـارج حـدود الطاولة التي يلجأ إليها علـي بوزغـدة فـي إحـدى زوايـا المقهـى. هـذا الـ "باغيث" خبز ساحر يقنع الجائعين دائماً بأنه لايحتاج إلى مقبّلات، إنه بسكويت الفقراء والمستعجلين، يمكن أن تأكلـه واقفـاً أو قاعـداً، ماشـياً أو راكبـاً، راضـياً أو غاضـباً، جالسـاً إلـى طاولتـك فـي المطعـم أو معلنـاً هروبـك إلى جحـرك اليـومي الـذي تفشـي إليـه أسـرارك ومشكلاتك، كان هو الشعار الذي رفعه سلفادور دالي وهو يترجل الطائرة التي أقلته إلى نيويورك في أمريكا البعيدة اللعينة!

علـي بوزغـده قليـل الكـلام علـى أي حـال، وهـذا يســاعده علــى تجــاوز جفــاء الفرنســيين، أو عــدم اهتمامهم بحديثه ما قد يصل أحياناً إلى درجة الضيق الشديد الذي يحتشد به صدره وفؤاده.

علي بوزغده ينتصب واقفاً طوال النهار.. ويتأرق متقلباً متململاً طوال الليل!.. فهو في النهار في سباق

مع الفرشاة والهموم والأحزان والجدران الشاهقة، وهو في الليل في مقاومة النستالجيا وصيد الأحلام العصية، ومرة واحدة في الشهر يسهر علي، ويتسامر مع الرفاق والأصحاب من العمال الجزائريين حتى الفجر!

يسهر مع "أفراد" من العمال المهاجرين في منزل أحدهم، وهذا المنزل غالباً ما يكون غرفة واحدة فوق سطح إحدى البنايات الباريسية التقليدية، وفوق السطح عند الفرنسيين تشبه فوق السطح عند المصريين، يتم الصعود إليها مع درج الخدامين (هكذا تشاء البرجوازية الفرنسية منذ القديم) ستة أو سبعة أدوار، هي غاية ما تنتهي إليه مباني باريس التقليدية الجميلة.

علي بوزغدة قد يبيح لنفسه أن يذهب إلى كباريه (حمادي) في الحي العشرين.. وهناك يزفر مع الزافرين.. ويبكي مع الباكين.. ويتذكر الزوجة (فتيحة)، والأولاد، والوطن!

هذه الموسيقى الشرقية، وجسد الراقصة (ثريا) المتهدل، المكتظ باللحم وبالعرق، وبأربعين سنة من

(الهزّ) والغنج، يجعل روح علي ترفرف بهلع.. فليس بعد الفرحة إلا تحدي المشكلات.. وما أكثر مشكلات علي.. الوحدة.. والتعب.. ونزق الفرنسيين.. والقلق على مصير (فتيحة) وأولادها الأربعة!.

ثريا الراقصة تذكره بذكوريته، وتعيد إليه الثقة في رجولته، أما فتيحة فهي العائلة، والبيت، والسلالة، والحنين المتوقد. اشتهاها مرة أو مرتين أو ربما.. دائماً وذلك بغرض إطفاء الحرائق التي تضطرم في داخله، ولكن ثريا لم تكن تأبه له، فهي لا تعجبها يداها المعروقتان اللتان ما يفتأ يرفعهما لتحيتها وهي تصدح بأفخاذها المتجعدة المتغضّنة فوق المسرح، إنه يشتهي أن يتذكر فحولته فيوسعها حباً وغصباً وبؤساً.

- أريد سجائر لو سمحت!

رددها علي بوزغده مرة أخرى باتجاه "جاك"، الرجل البدين، ذي الأنف الأحمر، والعينين البارزتين، وها هو يقف خلف كاونتر "مكتب التبغ" في المقهى نفسه، ومكتب التبغ هو الاسم الذي يطلقه الفرنسيون على مكان بيع السجائر.

كان علي يحاول باستماتة طرد رائحة الـ "هوت دوق" التي تخترق بلعومه.. وهي ما تفتأ تشعل أغطيته الأنفية.. قليلاً ما يتورط علي في مثل هذه الأكلات الغريبة!.. ثم أنه لم يكن يعرف أنها تُصنع من لحم الخنزير، والمسلمون من الشمال الأفريقي يفعلون كل شيء في قائمة المحرمات إلاّ "الحلوف" أي الخنزير، وعندما عرض عليه النادل في المقهى المنيو، قال له: إنها "طبق اليوم"، فأراد علي أن يغيّر مزاجه في الأكل هذا اليوم! كان طعم الأكل غريباً عندما تذوقه، ولكنه لشدة جوعه انتهى سريعاً دون أن يجري تحرياته اللازمة، ربما ساوره بعض الشك، ولكن "ولا تسألوا عن أشياء..." والوقت ليس وقت الأسئلة، فالرجل البدين، ذو الأنف الأحمر، لا يحتمل الكلام أو الأسئلة، ولاسيما عندما يكون فيها ما يستفز الفروقات أو التناقضات الثقافية!

الساعة الآن التاسعة مساءً..وهذا هو الوقت المحدد للإيواء إلى "الجحر" العزيز في الدور السابع من عمارة باريسية قديمة، تطرح بين يدي علي صباح

مساء ألعن ألوان تاريخ البورجوازية العفنة، "والسنوبيزم" القذر، اللذين سمع عنهما في بعض لقاءات التنظيمات العمالية..

علي بوزغدة لا يقرأ ولا يكتب.. ولكنه "يسمع"!.. وهو لا يدري إن كان يحسن الاستماع، أم أنه على غير ذلك.

هذه البناية التي يسكنها علي بوزغده فيها بوابة كبيرة لـ "السادة".. وفيها مصعد كهربائي للسادة أيضاً!.. وهذا المصعد يمسح وينظف صباح كل يوم.. وحارس العمارة موجود دائماً في الدور الأرضي بالقرب من المدخل، خلف الستار الرقيق الأبيض، يرصد حركات الصاعدين والنازلين، ويكون عمره ما يقارب عمر العمارة ذاتها! (ألف سنة!! أمزح طبعاً)، ويكون مع الحارس العتيد دائماً زوجة عجوز بدينة وقصيرة ومقرفة، تسمع صوتها وصراخها من نهاية المطبخ الصغير في سكنها، وهي تؤكد على الصاعدين والنازلين ضرورة مسح أحذيتهم على المدخل، والحفاظ على نظافة الدرج،

مع أن الدرج لا يستعمله أحد، الكل يصعدون بـ"الأسانسير"..

إذا كان الصاعد أو النازل في البناية "سيداً"، يفتح البواب أو الحارس الباب الزجاجي المغطى بالقماش الأبيض الشفاف، ويدعو لهذا السيد بيوم سعيد.. أما إن كان الصاعد أو النازل "خادماً" أو شبه خادم، فهو يثني نظره إلى كومة الرسائل الموجودة على طاولته، والتي سيتولى توزيعها على صناديق البريد المثبتة في مدخل العمارة بعد قليل!.. إنه يشتغل بأي شيء إلا تحية الخادم أو شبيه الخادم، على الرغم من أنه في واقع الأمر زميله وشريكه في الهموم والأوجاع، وخدمة البرجوازية الباريسية التي لاترحم. وقد يكون هذا البواب فرنسيّاً من الريف، وقد يكون له أبناء أو بنات نجحوا في حياتهم، قد يكون فيهم المهندس، أو الطبيب، أو غير ذلك ولكنه وفيٌّ لمذلّته فلا يغادرها أو يبارحها فهي جزء من تكوينه، وقد يكون البواب غير فرنسي، وهو في الغالب من أسبانيا أو البرتغال، وهؤلاء يعملون جهدهم على

أن يكون لهم أي صلة تربطهم بمزاج أهل البلاد النزق، ولهذا فهم يبالغون أحياناً في تشبثهم بذلك المزاج، فيكونون أكثر شراسة، وأكثر رعونة في التعامل مع الآخرين.

هذه البناية فيها طبعاً – وهذا هو المهم – بوابة صغيرة متوارية في آخر الممر تؤدي إلى سلم متعرجة ضيقة طويلة شاهقة، لا تتوقف أو تنتهي إلا في الدور السابع، أي الدور الأخير، على السطح، حيث تنتشر غرف صغيرة كزنزانات السجن، أو كغرف أحد مستشفيات العزل الأفريقية في وطن (بوكاسا)، الإمبراطور الآفل ونظرائه الأفارقة!.. هذه البوابة.. وهذه السلم.. يدعونها هنا بكل خيلاء (مدخل الخدمة).. فالخدم، ولاسيما في عنفوان البورجوازية الباريسية، لا يحقُّ لهم الدخول من البوابة الكبيرة!.. ومحظور عليهم استعمال المصعد!.. وكبيرة من الكبائر أن يطؤوا بأقدامهم الرمادية المعروقة العارية سجاد تلك الممرات الارستقراطية الفسيحة! ثم إن الخدم لابد أن نذكرهم دائماً بأنهم (خدم!). والخدم

من واجبهم أن يغبطوا (السيد) على نعمته! .. وأن يدعو له بطول العمر!.. وبمزيد من الفرح والشباب والوسامة .. والتفاهة!

السيد هنا لا يخاطبه الخدم أو أشباه الخدم بضمير المخاطب في اللغة الفرنسية ذاتها، إنما يخاطبه بلغة الغائب إعزازاً وإجلالاً، ولو فعل غير ذلك، فهو خادم "قليل الأدب"، وينبغي إعادة تأهيله، والذي اخترع اللغة الفرنسية، يُحرّم استخدام ضمير المخاطب (tu أي أنت) للسيد، ويقصرها فقط على الخدم، وفي الغالب ينبغي أن يستخدم ضمير المخاط (vous أي أنتم).

علي بوزغده يدفع إيجار هذه الغرفة الحقيرة 500 يورو شهريّاً، وعلي عامل.. وليس خادماً.. لكنه يدخل من مدخل الخدم.. وينام بجوار الخدم.. ويقف معهم في الصباح وفي المساء، بانتظار دوره البطيء أمام دورة المياة الوحيدة، التي يشترك في استعمالها معه أكثر من ثمانية بؤساء مثله!.. هذا الحمام لا ينظفه أحد.. بل بالعكس يشترك في توسيخه كل هؤلاء الخدم وأشباه الخدم!.

مرة أو مرتان في الشهر يذهب علي بوزغدة إلى الحمام التركي (يسمونه هنا المغربي) ولاسيما عندما ينوي أن يشنف مسمعيه في كباريه حمادي، ليحظى في نهاية المغامرة بلمسة أو همسة من ثريا الراقصة المرعبة التي يشتهيها وهي أبداً لا تشتهيه.. وهذا يهم ولا يهم.. فهو يعزي النفس بأن ثريا تحشد في ذاكرته خيالات تساعده على تبديد عزلته وكآباته في كل الأحوال.

كلما همَّ أحد أصدقاء علي بوزغده بزيارته في غرفته الشاهقة!.. فوق السطح، صعب عليه أن يقول له: لكي تصلني يجب عليك أن تأخذ باب الخدم.. وأن تصعد سلم الخدم، وأن تتصور نفسك أحد الخدم، وهو لا يجد اسماً بديلاً لهذا المصطلح الكريه!

علي.. من قبيلة جزائرية موقرة، وعمه شيخ القبيلة، وجده كان له عبيد وخدم، لكن العبيد والخدم لم تجعل لهم الارستقراطية الشرقية أبواباً غير أبواب السادة، ولم تجعل لهم سلالم غير سلالم أولياء النعمة.. يبدو أن الارستقراطية الشرقية كانت أقل

عفونة! كما يتمتم علي وهو يبحث عن سجائره، يريد أن يشعل السيجارة الأخيرة قبل مغادرة المقهى اللعين!

علي لا يأوي إلى فراشه ليلاً قبل أن يفني ثلاث أو أربع علب من السجائر في اليوم الواحد.. ويرشف سيجارته إلى أن تحتشد رئته بالدخان، وإلى أن تصعد إلى أعماق أنفه، في كل مرة، رائحة الدهان المحترق فوق أصابعه المثلَّمة وكفّه التي تشبه مخلب ذئب.

- أريد سجائر لو سمحت.

يبدو أن الرجل البدين، ذا الأنف الأحمر الغليظ، بائع السجائر في هذا المقهى وهو أيضاً صاحبه، لايريد أن يدخل إلى صندوقه ورقة العشرة يورو الضامرة التي كان يدفعها علي نحوه!

يخلو المقهى من زبائنه الآن

الحي العشرون في باريس اليوم هو حي عمالي بائس، ينام سكانه في وقت مبكر .. أقصد معظم سكانه.. أما "السادة" الذين يريدون قضاء الليل مع الساهرين، فيغادرونه إلى مونمارتر، أو السان جرمان

دي بريـــه، أو شـــاتليه، أو الشـــانزليزيه، أو الحـــي اللاتيني.. إنهم لا يطيقون حتى المرور العابر على مقاهيه .. فقد أصبحت مليئة بالخدم، والعمال، والقمل، والبراغيث، والسل! وهذه الأوبئة كلها قادمة من البرتغال، وأفريقيا السوداء، ودول المغرب العربي.. الجزائر بالذات الموبأة الأولى (!!) أكثر من مليون جزائري يسكبون عرقهم وأمراضهم وشرورهم على هذا الشعب الفرنسي النظيف ! الطاهر! المتحضر! أكثر من مليون جزائري جاؤوا يأكلون خبز الفرنسيين.. وهذا الغزو الجزائري أحد عوامل تصعيد نسبة البطالة بين الشباب الفرنسي، الذي لا يجد عملاً! والأزمة الاقتصادية التي تتعرّض لها أوروبا، ليست السبب الوحيد في (جوع) مئات الآلاف من العاطلين الفرنسيين.. بل هناك أيضاً هذا الاجتياح الجزائري لمناطق العمل! ثم إن هؤلاء الجزائريين هم الذين قتلوا الفرنسيين أيام الحرب.. وهم الذين يرتكبون الجرائم الأخلاقية وغير الأخلاقية داخل فرنسا بعد الاستقلال (!!) هم الذين يضربون

الناس في عربات الميترو.. ويقتلونهم في الشوارع الخلفية المظلمة.. ويسرقون جيوبهم ومنازلهم .. ويغتصبون نساءهم .. ويختطفون أطفالهم .. إنهم هم الذين ينشرون الرعب في أرجاء المدينة!. وهم الذين شوهوا الثقافة الفرنسية، وخرجوا عليها بـ"الحجاب" في المدارس، وبالمتطوعين إلى أفغانستان والعراق،وبالمتطرفين في المساجد، الذين يدعون إلى القتل وجهاد الكفار!.. وهم الذين يثيرون الفتن والقلاقل في الضواحي، وهم الذين يفتحون جبهات القتال في مرسيليا. وهم الذين يجعلون من مساء السبت في باريس مساءً يحتشد بالحذر والترقب وانتظار الأبشع والأخطر! فينخرطون في شوارع المدينة الأنيقة من أحيائها الفقيرة، أو من الضواحي المحيطة المنتشرة على أطراف باريس، يقتحمون المقاهي والحانات الضيقة وبعض علب الليل، أقول "بعض" علب الليل والفرنسيون لايسمحون لهم بدخول النوادي الليلية "المرموقة"، فالحراس الغليظون على أبواب هذه النوادي يمنعونهم

من الدخول، وقد يستثنون من ذلك بعض الجميلات من بنات العرب، وقد تجد أحياناً بعض السود، أو حتى بعض العرب من الشبان المتشبهين بالفرنسيين ولكنهم هنا، حتى هم، لمجرد (الديكور)، أو لمجرد "تطعيم" منظر الأجساد البيضاء المحتشدة في المكان، لعلها فكرة التنويع الخفيف، لمزيد من الحيوية.. وبمناسبة فكرة التطعيم والتنويع، فقد سُمح لبعض العرب من شمال أفريقيا بدخول عالم "الشو بيزنس" الموسيقى والسينما خصوصاً، وكان ذلك لمجرد "النكهة"، وأصبحت هناك أسماء عربية معروفة ومشهورة في هذا المجال، ولابد أن بعض الجميلات الفرنسيات يخترن من شباب العرب أحياناً "أصدقاء"، استجابة للحلم السينمائي ولـ"الاستايل" الجديد في "الشوبيزنس".. أما الحقيقة التي يدركها علي، والذي لا يستطيع أحد إخفاءها، فهي أن "الشوفينية" الفرنسية التي ترى في العرب والأفارقة أنهم يسيئون إلى التمدن الغربي بأكمله"!!".. وهم لايقرؤون .. ولا يكتبون.. ولا يعقلون.. ولا يفهمون!

إنهم يبعثون دائماً على الغثيان(!!) في اجتماعاتهم الاحتفالية، وعندما تنطلق موسيقاهم من شقوق النوافذ، يستنجد الفرنسيون بالبوليس .. وأحياناً يستخدمون الحجارة، والطوب، والزجاجات الفارغة !.. فالفرنسي عندما تصكّ أذنيه الموسيقى العربية يُصاب بالصداع .. والفرنسي عندما يسمع اللغة العربية، ترتفع معدته إلى حنجرته، وتمتلئ أوردته بالدم والغيظ.. ويتمنى لو اخترع المختصون في شؤون إبادة الذباب مادة مبيدة أخرى، يمكنها أن تقضي تماماً على هذا النوع (النشاز!) من البشر!

علي بوزغدة يعي تماماً هذا التقويم الفرنسي لوجوده، وكينونته، وأصله، وعرقه، وثقافته.. وإذا كان زملاؤه العمال الفرنسيون يخفون أجزاء كثيرة من هذه الحقيقة، فإن الشارع الفرنسي في عمومه لا يخفيها .. بل إنه لا يجد أي حرج في التعبير عنها قولاً وفعلاً فوق رؤوس الأشهاد، وبوسائل متعددة ومتنوعة، في السينما ذاتها، وفي الأعمال التليفزيونية، وحتى في تصريحات بعض السياسيين والمثقفين العنصريين.

إنهم ينهرون علي دائماً، وهو في طريقه إلى عمله، أو إلى منزله:

- اذهب أيها العربي القذر!

وأحياناً يتعرَّض بعض أصدقاء علي للضرب والتنكيل! بل إن بعض ملاهي الليل ترفض استقبالهم، وتمنع دخولهم إليها .. وصديقه (المهدي بوضياف) طالب في الجامعة يدرس الأنفورماتيك في باريس، الذي يلتقيه في بعض الإجازات الأسبوعية، يقرأ عليه أحايين كثيرة من أنباء الصحف عن تنكيل الفرنسيين بالجزائريين، بل وبالعرب جميعاً، والأفارقة كلهم.

عندما يصفون علي بالعربي القذر، يتظاهر هو بأنه لم يسمع! وعندما يترددون أو يتغاضون أو ينصرفون عن خدمته في مقهى أو مطعم، ينسحب دون شجار. وعندما يمنعون دخوله إلى ملهى ليلي أو مرقص، يقفل راجعاً إلى منزله دون شغب!

فتيحة وأولادها الأربعة يريدون أن يأكلوا، وأن يتعلموا، وأن يتفادوا الطريق الشرسة القاسية التي عبرها والدهم!

- أريد سجائر لو سمحت!

لكن بائع السجائر البدين، ذا الأنف الأحمر الغليظ، يلتفت عنه ويشيح بوجهه نحو صديقيه اللذين دلفا إلى المقهى في الحال!

.. ويستمر علي في تكراره الطلب:

- أريد سجائر لو سمحت!

يعود إليه البائع هذه المرة في نظرة لئيمة، محدقاً في وجهه وعينيه، ويقول:

- لماذا يا صديقي؟ ألم يبق لديك سجائر؟!

- أجاب علي بعفوية:

- بلى، تبقّى عندي سيجارتان، ولكن هذا لايكفيني!

- حسناً .. قدّم هاتين السيجارتين لهذين الصديقين!

ودون أن يتردد .. تقدّم علي نحو "الصديقين" وأعطاهما ما تبقّى في علبة سجائره! ثم عاد إلى البائع ينتظر العلبة الجديدة!

- الآن عليك أن تغادر هذا المقهى .. وألا تعود إليه بعد اليوم!

قالها البائع، وهو يرفع يده مشيراً إلى باب الخروج! .. ثم أردف صاعقاً في وجه علي:

- اخرج أيها القذر !

ضحك الصديقان بصوت مرتفع .. ثم وخز أحدهما علياً في أعلى كتفه باصبعه بعد أن اقترب منه يقف في محاذاته، وهو يقول:

- أخرج فوراً .. وإلا أخرجناك !

أدرك علي بوزغده، أنه قد حان الآن وقت تسديد فاتورة طويلة من الحقد، إن لم يخرج حالاً.. فهذا هو شعره المجعد الذي لا يحبه الفرنسيون، وهذه هي سحنته السمراء التي لا يطيقونها، وهذه هي موسيقاه التي تجلب لهم الصداع، وهذا هو خبزهم المقدس الذي يدخل إلى بطنه النجسة. كما أن اسم (علي) في حد ذاته مشكلة!.. وكان قد اقترح عليه زملاؤه من العمال الفرنسيين في يوم ما أن يُسمِّي نفسه (ألان)، بدلاً من علي.. وبعض المهاجرين يفعلون ذلك، ليس

تشبثاً بالثقافة الطارئة، ولا إعلاناً للقطيعة مع الثقافة الأصلية، ولكن من باب "سدّ الذرائع"، وربما بسبب بعض الحرص على عدم تنغيص عيشة الفرنسيين، أو إيذاء ذوقهم العام!..

نعم، هناك مهاجرون آخرون يفعلون ذلك عن قصد، ومع سبق الإصرار والترصد، فهم يخلعون جلودهم ويلقونها على عتبات الملهى الليلي الأول، الذي أُتيح لهم أن يرتادوه، أو فوق جسد أول حسناء فرنسية تصادفهم، وتمنحهم بعض عطفها، وبعض لذتها!

علي بوزغدة لم يقبل أن يُبدّل اسمه.. إنه لم يفعل.. وهو لا يدري لماذا لم يفعل !.. ربما لأنه يفكر كثيراً في الأولاد، وفي فتيحة أم الأولاد. آخ!.. كيف ستستقبله فتيحة بعد حين، وقد أصبح اسمه (ألان)؟ لقد تعودت أن تأخذه إلى حضنها، وهي تهمس في أذنه "علي" أما "ألان" الجديد، فهو الغريب الذي لن يقترب منها، والذي تنكره ولا تريد أن تعرفه!.. ثم إن عليّاً لا يبحث عن طريق للاندماج

فـي الفضـاء الاجتماعـي والثقـافي الفرنسـي فـي سلبياتـه وإيجابياتـه، وهـو غيـر قـادر علـى ذلـك الإندماج في الأصـل. إنه هنا للبحث عن لقمة العيش في سلام، كلما أمكن ذلك.

الجزائريون والجزائريات، هم من جهتهم، لديهم حساسياتهم تجاه الفرنسيين بشكل عام، ترسبات تاريخية طويلة، وتناقضات ثقافية تبدو عسيرة ومستعصية على الحل.

عند الفرنسيين كل الرجال العرب هم "علي" أو "محمد".. وكل النساء العربيات، هنّ "فاطمة" أو "خديجة"!

صديقه (بوضياف)، لا يوجع اسمه الآذان الفرنسية.. صحيح أنه اسم غريب ومعقد إلى حدّ ما بالنسبة إليهم، ولكنه أقل صدماً وقرعاً من علي أو محمد!

بوضياف يُذكِّر عليّاً دائماً بأن الحكومة الفرنسية عموماً منصفة سياسيّاً مع قضايا العرب، منذ مؤسس الجمهورية الخامسة، شارل ديغول، حتى لو جاء ذلك

من باب "العناد" الفرنسي للأمريكان، وحتى لو جاء لمداراة الأوجاع التي خلّفها الفرنسيون في بعض بلدان العرب، خصوصاً في الجزائر. والفرنسيون ليسوا دائماً على دين "ملوكهم"، وهم لا يريدون لأحد أن يغيِّر ثقافتهم! ولكن هذه الرغبة تصطدم بما تقوم به بعض الجاليات من مقاومة الاندماج في الثقافة الفرنسية، أو احترامها على الأقل، وعدم إشهار التحديات في وجهها. والعلمانية لا تعطي الحق للثقافات الأخرى بالاجتياحات التي تداهم المزاج العام وتصدمه.. أو تفقده توازنه.

أظهر علي لصديقه بو ضياف، أنه فهم تحليله للعلاقة الملتبسة بين العرب وفرنسا، ولكن هذا الكلام الكبير لا يعنيه كثيراً، إنما الذي يعنيه بالدرجة الأولى، هو ما يقابله كل يوم في الشارع، وفي الحديقة العامة، وفي المقهى، ولدى بائع السجائر البدين، ذي الأنف الأحمر القذر!

يعجبه توازن بوضياف، وتعجبه مثابرته، ويرى فيه مثالاً طيباً للمهاجر الذي يعرف موقعه من نفسه، ومن

الذين جاء إلى بلادهم لغايات موضوعية يريد تحقيقها بلا تعسف، أو شطط ، أو تجاوز.

علي لا يرتاح أبداً لصديقه "رشيد"، الجزائري الآخر (تجاوز الثلاثين من عمره)، الذي قدم إلى فرنسا قبل عشر سنوات، وما لبث أن أصبح اسمه "ريشار" أي "ريتشارد" باللغة الإنجليزية، وقد انخرط في الملاهي الليلية، مكوناً "عصابة" صغيرة لاصطياد العرب الميسورين الوافدين إلى باريس، خصوصاً الخليجيين، يُرتّب لهم "الحجوزات" في المطاعم الشهيرة، وفي أفخم المراقص والنوادي الليلية، ويغدق عليهم من ظرفه، ومن القائمة الطويلة التي بحوزته من بنات الليل وبائعات الهوى، وهنّ في الغالب بنات عرب، أو من دول شرق أوروبا، ويقبض مكافأته من الملهى بحسب حجم "الاستهلاك"، من أطايب النبيذ والشامبانيا الفرنسية الشهيرة.. والعرب الوافدون لا يحبون بالضرورة الشمبانيا، فهم يفضلون أنواعاً أخرى من الحكوليات ولكنهم يشربونها لمجرد أنها شهيرة، ولمجرد أنها شرط من شروط الاحتفالية،

ولفت الانتباه، ولوي الأعناق.. أعناق حسناوات الليل بطبيعة الحال.. وربما للفت انتباه غير حسناوات الليل من مقدمي الخدمات المشبوهة.. ولا سيما إذا كانت الشمبانيا من النوع الفاخر جداً ومن حجم "الماغانو" فهناك دائماً ذباب يتهافت على المائدة الحافلة.. ومرة تصيب.. ومرة تخيب!

ريشار أو رشيد يقبض أيضاً من الزبون الخليجي بحسب نقاء المزاج، وبحسب مستوى رضاه عن الخدمة، ورشيد يقبض كذلك من الكواعب الحسناوات فهو بالنسبة إليهنّ كلب الصعيد الذي لايخيب والذي يشم رائحة الفريسة عن بُعد.. ربما وهي ما زالت تحلّق في السماء ولم تطأ أقدامها بعد أرض المطار.

رشيد أو ريشار لا يعرف نهارات باريس، لكنه يعرف لياليها، والفرنسيون الذين يتعامل معهم لا يعرفون "رشيد"، وإنما يعرفون "ريشار"، الذي يغدق عليهم من خزائن العرب الميسورين والخليجيين، وقد اكتشف نقطة الضعف الذي يعرفها الجميع عن

أهل باريس: حب المال إلى درجة المذلة، فكل عنفوان البارسيين وغطرستهم تتهاوى أمام وقع اليورو!

ريشار يتكلَّم الفرنسية بطلاقة، ولكنها لغة الليل، والسلالم المعتمة، والأزقة الخلفية، ويظهر دائماً أن باريس أرضه النهائية، وعلي بوزغدة ليس فقط لا يفهم لغة ريشار لابتذالها، بل إنه لا يجيد الفرنسية من الأساس، إنه يتكلَّم لغة العمال (الخليط بين الجزائرية والفرنسية)، وهو يتكلمها في لهجة جبلية أفريقية لها دوي يفقد الفرنسية نغمها الداخلي والخارجي؛ مما يزيد في حنق الفرنسيين واشمزازهم.

أعاد علي بوزغدة الورقة النقدية الضامرة إلى جيبه، ثم خرج إلى الشارع بلا سجائر! وبلا ملامح! وبلا وجه!

كان الشارع خالياً .. وممعنا في الهدوء .. وكان وقع خطوات علي، في حذائه الغليظة على الرصيف، هو الشيء الوحيد الذي ينذر بأن هذا الإنسان الغريب، البعيد عن فتيحة والأولاد، لم يحجب عنه بعد حق المشي أو الحركة فوق هذه الأرصفة العتيقة.. لن

يستطيع علي أن يكون بوضياف، فهو غير متعلم، وهو لا يجيد غير دهان الجدران العارية، وليس بمقدوره أن يكون "ريشار"؛ لأنه اختار النهار على الليل؛ ولأنه اختار عرق الفرشاة على عرق زجاجات الويسكي؛ ولأنه فضَّل زمالة الكادحين بشرف على زمالة صياديّ اللحظات الضائعة لدى طالبي المتعة ومستعبديها. مشكلات بوضياف أقل من مشكلات علي، وأقل منهما بكثير، وكثير جداً، مشكلات ريشار، فهو الوحيد بينهم الذي يُسهم في تنشيط الدورة الاقتصادية والسياحية في البلاد! وهو لم يعاند في التشبث باسمه القديم، أو بقيمه القديمة، وهو لا يعنيه في قليل أو كثير ما يجري في أفغانستان، أو العراق، أو فلسطين، ولايهمه إن كان البوليس الفرنسي يطارد المحجبات أو يحاصر المهاجرين، أو يهدد بطردهم إلى خارج البلاد. ولم تشغله سياسات ديغول، أو بومبيدو، أو ساركوزي، وإنما الذي يعنيه سياسات "جون لوك"، أحد متعهدي الحفلات في باريس وشاطئ سان تروبيه في جنوب فرنسا، وصاحب أجمل وأفخم المراقص في فرنسا كلها.

أخذ يمشي علي بوزغده، فلا شيء، ولله الحمد والمنة، يعترضه في طريقه، أو يمنعه من المواصلة، وماذا يريد أكثر من ذلك الآن؟!

وفي هذه الساعة من الليل، يخرج الناس عادة لتمشية كلابهم الجميلة للترويح عنها، ولكي تقضي حاجتها.. مرّ بجانب علي أكثر من كلب حتى الآن!

الكلب.. يُدلله الناس في الشوارع والأماكن العامة! يحملنه الجميلات على جنوبهن، ويهدهدنه في أحضانهن وفوق أفخاذهن. وأقصر الطرائق إلى مغازلة الفرنسية الجميلة، أن تمتدح كلبها، وتمسح على رأسه، وتربَّت على مؤخرته.

والكلب.. يحافظون عليه من البرد، ويأخذونه إلى الطبيب عندما يمرض !.. ويبكون ويتبادلون التعازي عندما يموت! والكلب يحتفظون بصوره ضمن (البوم) صور العائلة.. وهو زينة صالوناتهم.. ويأكل على موائدهم .. ينام على سررهم .. يغفو في أحضانهم.. ويلعق رقابهم وآذانهم وخدودهم.

..الكلب يقبلونه.. ويعانقونه .. ويسهرون معه إلى طلوع الفجر!

يا لحظ الكلاب! فهي لهذا الحد تحظى بحب أهلها وأصحابها، ولهذا الحد تنال عطفهم وحنانهم!.. أحياناً في مثل هذه المدينة الفاجرة، يتمنَّى "الشخص" لو كان كلباً!..

إحدى (سيدات) البناية التي يسكنها علي تقف كل يوم دقائق طويلة مع كلب حارس البناية .. تمسح عليه بيديها.. وتأخذه إلى صدرها.. وتدعوه دائماً: حبيبي نيكاس.. (ونيكاس اسم الكلب).. أما عندما تقابل علي بوزغده في الدهليز، فتدير وجهها نحو الجدار، تبتلع لسانها، وتتلعثم خطاها، وتثب بعجلة نحو المصعد.. وهي عندما تصادف علي في الشارع، تدخل عينها ويديها في حقيبتها تبحث عن اللاشيء حتى يتجاوزها، ويغيب في همومه.

المرأة التي، في فرنسا، لا قريب لها ولا رفيق، تصادق كلباً .. ولا تصادق عليّاً!

الأسرة الفرنسية تنصح أولادها بحب الكلاب ..

ففي هذا ترطيب لعواطفهم ومشاعرهم، لكنها تأمرهم دائماً بالابتعاد عن العرب والجزائريين!.. وكذلك السود.. وسابقاً اليهود!

دقائق قليلة انقضت على خروج علي من مقهى السجائر .. لم يكن مشي علي حثيثاً.. كان يجرّ خطاه في تثاقل شديد، وكان يقف أمام بعض الفترينات المقفلة يُحدّق في اللاشيء، وهو حتى الآن لم يبتعد مسافة طويلة عن المقهى.. وهذا كلب ضخم ينطلق في أثره من المقهى ذاته! هو كلب بائع السجائر المسعور، كان قبل قليل مشدوداً إلى وثاقه في طرف المقهى، فأطلقه البدين ذو الأنف الغليظ الأحمر! انطلق الكلب في أثر علي، كأنه يمتثل لأمر عاجل وملح! الكلاب التي في الوثاق وفيَّة لأصحابها، وهي شديدة الضراوة على خصومهم. لحق الكلب المسعور بعلي، وفي أنيابه غيظ يفوق الغيظ الذي يغمر صدر صاحبه! ثم جعل (ينهش) جلد علي.. عضه في ساقه.. وثب ينهشه في صدره.. يخربشه بمخالبه في وجهه.. سالت دماء علي.. صفَّق الثلاثة الواقفون على

بـاب المقهـى.. ومضـوا متجهـين نحـو علـي .. دور ((إيـدلو))، وهـذا هـو اسـم الكلـب .. قـد انتهى.. أمـا دورهم هم، فيجب أن يبدأ حالاً!!

لمـوا عليّـاً مـن الشـارع .. ثـم أخـذوه إلـى مطـبخ المقهـى.. أطفـأوا الأنـوار الخارجيـة ! فـأدرك علـي أن صـديقه بوضـياف، ربمـا سـيقرأ غـداً فـي الجريـدة لامحالـة: "أن عليّـاً وهـو أحـد الرعايـا الجزائـريين المقيمـين فـي فرنسـا، قـد داهـم مقهـى الـديبار (اسـم المقهـى) فـي الحـي العشـرين، فـي حالـة سـكر شـديدة، وهدّد صاحب المقهى بالقتل، إذا لم يتخلّ له عن كل ما في صندوقه من نقود، إذا لم يتخل هو وصديقاه عن كل ما في أيديهم من ساعات، وعن كل ما على ظهورهم من ملابس... إلخ .. ولكن هذا البدين ذا الأنف الأحمر الغليظ، بحق شرعية الدفاع عن النفس، ضربه!!" وقـد اشـترك الكلـب (إيـدلو) المسـعور فـي المعركة وفاءً لسيده.

.. لقـد ضـربوا عليّـاً .. مسـتنجدين بكـل مـا فـي المطـبخ مـن قـدور .. ومكـانس .. وأوانـي زبالـة!..

جردوه من ملابسه .. ثم غمسوا أصابعهم في دمه، وأخذوا يكتبون بهذا الدم على بطنه، وصدره، وظهره عبارة واحدة، طالما سمعها علي في كل مكان هنا، وهي: (أيها العربي القذر!).

فرشوا المقعد الخلفي في سيارة أحدهم بكمية مناسبة من الصحف القديمة .. مددوا عليّاً عليها .. ثم أخذوه إلى زقاق خلفي في ضاحية باريسية اسمها "غارشي" ليموت هناك بأناة !

وجد علي نفسه في اليوم التالي في أحد مستشفيات ضاحية غارشي .. لم يمت بعد.. استعصى علي بوزغده على الموت، وعلى أنياب الكلب، ومخالب الأصدقاء الثلاثة، وكان صديقه (بوضياف) يتحدَّث إلى مجموعة من العمال الجزائريين الذين جاؤوا للزيارة قائلاً:

- لقد كُسر فك علي .. إضافة إلى طعنة في رقبته من الجهة اليمنى بامتداد خمسة عشر سنتيمتراً .. وطعنة أخرى في بطنه بامتداد عشرين سنتيمتراً .. وهناك جروح أخرى متنوعة الطول، والعرض، والعمق تنتشر في أنحاء جسده!

أمـا فـي إدارة البـوليس، فقـد سـألوا المـواطنين الفرنسيين الثلاثة:

- لمـاذا فعلتم هـذه الأفعـال فـي جسـد علـي أيهـا المواطنون! فأجابوا بفم واحد:

- لقد داهمنا علي وهو في حالة سكر شـديدة .. صفع صـديقي هـذا .. ولكـم ذاك .. ثـم هـددنا جميعـاً بالقتل!

السكين..

أنا جزائري.. اسم المنصف بن عبدالحي، عمري خمسة وعشرون عاماً.. أسكن الحي الخامس عشر بباريس أعزب.. وقلبي يختلف إليه عدد لا بأس به من النساء! وهؤلاء النسوة لسن أكثر من مجرد أحلام! أو تهيؤات، أتمدد على سريري، ثم استدعي إحداهن، وأرخي جفوني مستسلماً للخيال.. والعطر.. والدفء!.. هذا الدفء الذي يُجلّل كل أرجائي!.. ثم أنام!.. أغطّ في نوم عميق كقاع بئر.

إنني أستعرض النساء اللاتي شاهدت في يومي.. أستعرضهن كلهن .. ثم أختار!.. أختار أحلاهن طبعاً وأكثرهن رقة، وأريدها أن تكون متوسطة الطول، فأنا

لا أحب التي تظهر أكثر طولاً مني، فأنا أحب الهيمنة. بيضاء، شقراء، فالألوان الأخرى ليس لها من ذكرى عندي. خصرها ضيق، وردفاها ممتلئان برويّة، وهكذا تكون قد استجابت لكل حاجتي!.. وليكن مسرح الحادثة مقهى.. أو مطعماً.. أو نادياً ليليّاً.. أنظر إليها بطرف عيني.. فأراها تلتفت بكامل هيكلها نحوي.. أشعل سيجارتي الأولى.. ثم أنفث أول (جرعة) من هذه السيجارة اللعينة نحوها.. مصحوبة بنصف ابتسامة مبهمة مترددة، ضائعة بين الشوق والتعجب والسؤال! أهملها بعد ذلك لأشتغل بالنظر إلى غيرها.. أو باللعب بمفاتيح غرفتي الصغيرة أو علبة سجائري.. أو أقوم بـ (الخربشة) على الغطاء الأبيض الذي يفترش الطاولة الموجودة أمامي .. أكتب أي شيء .. كلمات لا يربطها أي رابط .. وهي ليس لها بالضرورة أي معنى .. على الرغم مما يقوله المشتغلون بعلم النفس، من أن كل ما نكتبه له معنى.. وله دلالة .. أنا شخصيّاً لا أفهم ماذا تعني هذه الحروف التي أبعثرها بلا نظام فوق الغطاء الأبيض!

أحياناً لا أكتب .. بل أرسم: طيوراً .. سيوفاً .. ورداً .. أواني .. زخارف لا أول لها ولا آخر.. وهذه أيضاً أفعلها لا شعورياً.. خرابيط انهمك فيها لألتقط بعض الإحساس بأنني من الممكن أن أكون فناناً.. ولم لا فمعظم الفنانين اكتشفوا أنفسهم بالصدفة!

المرأة التي أهملتها قبل قليل، لا تجيل النظر عني.. يخالجني شعور غريب بأنني (همفري بوغارت).. أو .. (مارشيللو ماسترويواني) .. إنني أحسها تئن .. وتتأوه .. كأنها تتوسل إليَّ أن أحدثها!.. أن أفتح لها باب الكلام!.. أدخلها إلى عالمي المبهج الغريب!.. ولكني، على عكس ما تتوقع، لا أفعل، بل أبعث نحوها (الجرعة) الأخيرة من سيجارتي، التي أشرع في سحق رأسها المشتعل بطرف حذائي.. لعلي أتخذ هذه الحركة مبرراً لإهمال (السيدة) من جديد..

أطلب من الجرسون شراباً جديداً وأنا أسند ظهري إلى المقعد.. ثم أشعل سيجارتي الثانية..

أجل فأنا أدخن كثيراً.

.. أبتسم في الهواء هذه المرة! في اللاتجاه .. ثم أدع جسدي ينزلق قليلاً عن المقعد، وألقي برأسي إلى الخلف. أنظر إلى سقف المكان.. وكأنني أبحث عن أحد مفقوداتي الثمينة.

أنا في الواقع لا أنظر إلى شيء محدد .. إنني أنظر إلى اللاشيء!.. فكل حواسي مأخوذة في هذه التصورات الغريبة، التي أجد فيها من وقت لآخر ما يبعث في داخلي القناعة بأنني أستطيع أن أكون (مثيراً).

يجيء الجرسون ومعه الطلب الثاني، فأناوله ورقة من فئة الخمسين يورو، وأنا أؤكّد له بصوت مرتفع ضرورة أن يحتفظ بما يتبقى (بقشيش)، بعد أخذ ما يتوجّب علي من الحساب.. والبقشيش هو بالتأكيد ضعف ما استهلكت من الطلبين.. يذهب الجرسون مسروراً؛ لأنه ظفر بما لم يكن ينتظر مني .. أما هذه المسكينة، التي أخذت تلقي برأسها بين يديها المبسوطتين على الطاولة، فمازالت تنتظر.. أو هكذا أتصور على أي حال!

أشرب الطلب الثاني في جرعتين، أو ثلاث، ثم أنهض .. وعندها أتصور قلب هذه المرأة يخفق أكثر مما كان قبل قليل.. أمرُّ بجانبها، متجهاً نحو باب الخروج، فتدرك طرف (الجاكيت) وتستوقفني:

- نعم! (أسألها).

- أشعل سيجارتي لو سمحت! (تقول لي).

فأشعل لها السيجارة، ثم أخطو نحو الباب خطوة واحدة .. خطوتين .. ثلاث .. حتى أدلف إلى الشارع.. ولكن قبل أن تبتلعني الزحمة، أحس يداً صغيرة تضغط على كتفي برفق فائق دون أن ألتفت ..

- خذني معك! (صوتها الفائق الرائق).

ودون أن أتكلم أضع يدي على كتفها، ثم أسير وهي تسير بجانبي!. كل ما أطلبه من هذه الأنثى تُنفّذه دون تردد..

هذا المشهد لهمفري بوغارت الجديد، يمرُّ في لحظات داخل مخيلتي الصغيرة .. وأنا على سريري الصغير لم أغادره، وحيداً في غرفتي الضيقة جدّاً، التي لا تحتلُّ أكثر من تسعة أمتار مربعة في الدور

السابع (بدون مصعد)، في إحدى عمارات الحي الخامس عشر الضخمة بباريس.

مجموعات من النساء يدخلن هكذا قلبي كل يوم ألف مرة ومرة، إنهن يدخلن غرفتي أيضاً، ولكن على النحو الذي ذكرت لكم قبل قليل!!

كل هذا يحدث، مع أنه لا يوجد لدي وقت كافٍ للتفكير في النساء.. فأنا أعمل في المساء حارساً في أحد الفنادق الصغيرة في الحي اللاتيني، وفي النهار أشتغل على رسالة الدكتوراه، التي أعدها في جامعة باريس (هندسة الطرق).. إن كل ما أغنمه من عملي يسد بالكاد إيجار غرفتي، ومأكلي، ومشربي، ومصاريف الدراسة.. ومن الصعب أن أبيح لنفسي الاختلاف إلى دور السينما، أو المسارح، أو النوادي الليلية.. إنني أعجز عن نفقاتها.. ولكني أجد في هذا العوز المادي حلاً مجدياً لمشكلتي الجسدية، وهي التعب .. وقلة النوم!

إنني أنام .. وأنام .. وأنام .. طوال عطلة الأسبوع.. فحارس ليلي في فندق في الحي اللاتيني

بالذات يقتله السهر.. في كل نصف ساعة، يوقظك أحد الزبائن لتفتح له الباب، وهو عائد من سهرته (المظفرة)، ورأسه محشوة بألف شيطان!.. وما تكاد تبدأ في استرجاع نعاسك، حتى يأتي آخر، وهكذا حتى الصباح.. وليت هؤلاء يدركون أنهم يُسبّبون لك كل هذا الانزعاج، فيضع كل واحد منهم في يدك باقي مصروفات السهرة .. إنهم لا يفعلون ذلك أبداً، فمرتادو الحي اللاتيني وسكانه ليسوا من الميسورين، الذين تعودوا على تقديم "البقشيش".. وأنا شخصياً لا أفكّر في أمر كهذا؛ لأنني لا أستطيع أن أنسى أنني أعمل في فندق صغير ومتواضع .. متواضع فعلاً .. وزبائنه كما وصفت لكم. بل أنهم من أتعس رواد هذه المدينة.

لو كنت حارساً في فندق كبير في الحي الثامن، مثل فندق (فورسيزن/ جورج سانك).. أو .. (فندق بلازا اتينيه)، لاختلف الأمر.. لأن رواد مثل هذه النوعية من الفنادق، ينثرون النقود على العاملين فيها بدون حساب.. وعامل صغير فيها أغنى من

البروفيسور المشرف على رسالتي، للدكتوراه، وهو الذي يربض خلفه ثلاثون عاماً على الأقل من الخدمة الجامعية .. وله من الاعتبار الأكاديمي ما تنوء بحمله الجبال!

لا تسألوني لماذا قعد بي طموحي عن بلوغ مثل هذه الفنادق .. فالقضية ببساطة متناهية، هي أنني (جزائري).. والجزائري هنا يخافه الناس .. لأن أي جريمة لا يعرف صاحبها في هذا البلد تُنسب إلى الجزائريين.

الفنادق التي تريد المحافظة على سمعتها الحسنة، لا تقبل جزائريّاً في جهازها الإداري، أو الذي يواجه الجمهور..

وكل ما بقي لنا ولسود أفريقيا، هي الفنادق الصغيرة .. فنحن وهؤلاء الأقل أجراً بين أصناف العمال في فرنسا .. كما أنه بإمكاننا أن نُقدّم تنازلات كثيرة لنعيش .. أو لنستعين على تتمة مدة إقامتنا في العاصمة الأكثر قسوة في وجوه أمثالنا.

هذه العاصمة تكون فيها أحياء بحالها تختص

باحتضان بني قومي .. لعلها تشبه أحياء (الغيتو)، التي كان يُحاصر فيها اليهود في العواصم الأوروبية المختلفة.

إن الجزائري الذي (يسمح) له بالسكن في بعض الأحياء الارستقراطية الباريسية يعدُّ محظوظاً .. إنه يسكن في الأغلب على الأسطحة .. أو في الأدوار العليا في غرف الخدم.

لو رأيتم الشروط التي أملتها علي العجوز التي أسكن غرفتها؟! أهمها: أن لها الحق في (طردي) متى شاءت! .. وأن ليس لي الحق في استقبال أي زائر بعد العاشرة مساء .. وأن إحداث أي ضوضاء أو مشاكسة في البناية، يجب أن أعدّه سبباً تلقائيّاً للرحيل!.. مع أن سكان العمارة أنفسهم يستبيحون أن يعبثوا في هدوئي، عندما أعود إلى غرفتي لأنام بعض ساعات النهار .. ليس بإمكاني أن أطلب إليهم، حتى بأدب، أن يخفضوا صوت الراديو .. أو التليفزيون .. فهم سيعدون ذلك تعدياً على (حقوقهم) الشخصية.

مرة كان أطفال الشقة التي تأتي تحت غرفتي بالتمام يلعبون في سلم العمارة .. لم أتمكّن من

النوم.. فخرجت إليهم وملء يدي مجموعة من أنواع الحلوى الجزائرية .. أريد أن أقنعهم بالتخفيض من الضجيج .. هل تعلمون ماذا حدث؟! .. لقد أخذ هؤلاء الصغار ينظرون إلي بعيون تنفرج بشدة عن خوف كاسر.. ربما كانوا يتصورون أنني أخرج عليهم من أحد الأحراش الأفريقية، وأن هذه الأشياء التي في يدي، هي مجموعة من الثعابين والحيات والعقارب!.

فروا إلى داخل الشقة!

فضحكت في داخلي بحزن شديد .. ثم عدت إلى غرفتي أغسل يدي من آثار الحلوى، وأستأنف محاولتي النوم.

هؤلاء الصغار يكبرون وفي قلوبهم الخوف من الذئب الجزائري المرعب!! ومن السود!

كنت أفهمهم عندما هربوا مني!..

الكبار ليسوا بأقل ضيق في التصور من الصغار.. أذكر أنه توجَّب على العجوز التي استأجر غرفتها، أن تقوم بتقديم شهادة حسن سيرة وسلوك عني لكل سكان البناية، لتهدئ من روعهم، عندما علموا أن معهم في البناية (حنش).. أو جزائري إن شئتم !

قصة هؤلاء الأطفال لم تنته بعد!

ما كاد النوم يخالج جفوني حتى سمعت طرقاً عنيفاً على باب الغرفة:

- بوليس!

لم يكن لدي اقتناع كاف بأن خلف الباب ـ فعلاً ـ أحد من البوليس!

فتحت الباب، فكان يقف أمامي بالفعل رجلان .. دفعني أحدهم إلى الداخل، ثم أوصد الباب بعد أن لحق به رفيقه:

- أين المخدرات؟!

سألني .. وأنا مازلت أمعن النظر في زيهما العسكري، إنني لا أذكر أنني أرتكبت خطأ يدعو هذين أو غيرهما لمداهمة منزلي بهذه الصورة.

- قلت لك: أين المخدرات؟! (نهرني مرة أخرى).

ثم مد يده إلى حلقي يشد بيده الغليظة على بيجامتي .. كانت عيناي حمراوين من السهر ..

- أي مخدرات يا رجل .. إنني لا أفهم شيئاً مما تقول؟! (أجبته).

أزاح يده عني، ثم تركني واقفاً في مكاني، ليتقدّم

نحو صاحبه الذي كان قد أخذ منذ لحظة يعبث بكل أشيائي .. إنه (يفتش) عن المخدرات.

- هل وجدت شيئاً؟! (سأله).

- لا شيء حتى الآن! (أجاب الآخر)

التفت إليّ قائلاً، وهو يشير بأصبعه كأنه يتوعّد:

- أعطنا المخدرات .. لن ينفعك في شيء أن تكلفنا عناء البحث عنها.

قبل أن أبدي له من جديد عدم فهمي لكل فصول المسرحية التي تدور أمامي، دخلت امرأة في حوالي الأربعين من عمرها، وهي تمسك في يدها اليمنى أو اليسرى، لم أعد أتذكر، أكبر الأطفال الذين كانوا يلعبون في السلم قبل لحظات .. عمره لا يزيد عن العاشرة.. قالت تخاطبني:

- يا قذر!.. ماذا كنت تريد أن تفعل بأطفالي؟! كنت تريد أن تخدرهم؟!

هنا فهمت كل شيء!.. فاستدرت نحو الطبق الذي كنت أضع فيه الحلوى الجزائرية .. أخذته، ثم قدّمته لرجال البوليس:

- هذه هي المخدرات التي قدمتها لأطفال السيدة،

كان لابد أن تشرحا لي الموضوع منذ البداية، لأكفيكما عناء البحث.

ضحكت يومها حتى البكاء .. ثم أعطيت وعداً للسيدة ولرجال البوليس بعدم التعرض للأطفال؛ كيلا أتسبّب في أن أُحدث لهم أحلاماً مزعجة.

أحياناً كان يتملّكني شعور غريب بأننا، فعلاً، مذنبون.. لأنه يكفي أن يكون الإنسان ذا شعر أجعد، لتوصد كل الأبواب في وجهه.

يوم أن قدمتني (جانين) إلى أبويها؛ تمهيداً لطلب يدها منهما، ومن ثم إعلان خطوبتنا (كنت سأتزوج فرنسية)، علم الله أن أمها العجوز قد أمضت وقتها كله في النظر إلى شعري الأجعد! فكيف سيكون لها حفيد كهذا الرجل الشجرة؟!..

(جانين).. كانت المرأة الوحيدة التي سعيت وراءها فعلاً، فدخلت قلبها، ودخلت هي قلبي .. كانت سكرتيرة في أحد فروع مؤسسة أبيها الضخمة لبيع الأدوات الطبية .. وكانت ذكية وجميلة.

أهلها لم يرفضوا فقط خطوبتنا، ولكنهم ظلوا

يطاردوننا، ويتوعدوننا، ويهددوننا حتى هجرتُ جانين، وكسرتُ حبها في صدري.. لم تصدقني عندما قلت لها: إنني لم أعد أحبها!. لقد أدركتُ أنني أجاهد حبّاً مستحيلاً!

لم يكن بيدي أن أنتظر فتاة أخرى تحلُّ في قلبي محل جانين .. لقد بقي اختلاف النساء إلى قلبي مجرد أخيلة وأحلام محضة، تولدها حاجتنا الغريزية للنساء!

إنني، كما حدثتكم سابقاً، أخطب كل يوم عشرين امرأة.. وأتزوج كل يوم عشرين.. وأستقبل كل يوم في ذلك المكان الرطب الضيق مائة وعشرين.

أما إن كنتم تودون أن تعرفوا سبب وجودي في السجن الآن، فهو أنني "قتلت" جانين!

(هم) يقولون: إنني قتلتها!

لقد وجدوها "قتيلة" في سيارتها أمام منزل أهلها!.

طعنة عميقة في القلب بسكين سويسرية (فيكتورينوكس).

عندما سألني المحقق عن أداة الجريمة، وهو يضعها أمامي على مكتبه .. قلت وكلي دهشة وذهول:

- إنها سكيني!

مجنون!

(1)

كان سارتر يقف في غرفته في شارع "باك" فيرى "أيف". وزوجة بيير المجنون ترفع ستار النافذة الأبيض في بيت زوجها، الذي طلبوا منها أن تتركه، وتبحث عن رجل آخر "عاقل".. الشارع يكاد أن يكون خالياً.. عجوز تعبره في خطى بطيئة، وثلاث بنات يزرعن الرصيف قهقهات عالية.. رجال أشداء ومهمون يحملون في أيديهم حقائب أعمالهم الصغيرة، ويتكلمون فيما بينهم، وأحياناً يرقصون ويقرعون بأيديهم على حقائبهم..

- الناس العقلاء؟!!

قالتها "أيف" مدهوشة؛ لأنها تجد في نفسها كل هذه المقدرة على الحقد!!

امرأة جملية وبدينة!. تسعى في الشارع نفسه.. "أيف" بعد أن اهتز زجاج النافذة من ضحكتها العالية الصلبة، تركت ستار النافذة يسقط ليحجبها عن "الناس العقلاء"! ويبقيها إلى جانب مجنونها!

أما سارتر، فعلى التو ولج أحد مقاهي الحي وهو يضحك أيضاً.. ليقرأ أخباره في الجريدة، وليقرأ أخبار الناس في وجوههم..

عند خروجه من المقهى، رأي "بول ألبير" يحمل مسدسه في عرض الشارع يريد أن يطلقه على كل هؤلاء الناس "العقلاء والمجانين".. ولكن سارتر سمعه يقول أخيراً: "لماذا يتحتم عليَّ قتل هؤلاء الناس، وهم في ذاتهم وحقيقتهم ميتون؟!".. كانت عنده الرغبة في الضحك ولكن كلب أحد المارة أقبل يشم رجله فسكت.. ثم عاد إلى غرفته لينام!!

(2)

.. وصل للتو من أفريقيا.. فاحم.. وحرارته لم يصبها الوهن.. وعلى كتفه الأيسر رماح أفريقية، وقوس عطشان للنضال.. وفي حلقه قلادة طويلة تزدان بألوان الخرز والمشكلات!!.. وعلى صدره قميص مزخرف بأسلاك الحرير الأزرق والذهب والفضة، والمشكلات أيضاً! فعند أقدام "إيفل" وجد نفسه رواية مقروءة، ولكن الناس لا يحبون إعادة قراءتها، مع أنهم يرونها مشوقة وفيها مذاق.. فذهب إلى "سان ميشيل"، فالتهب الشارع بحرارة الحياة والأقدام.. فرقص هو رقصة أفريقية، طرب لها الناس، ثم دار رأسه، فوجد أنه في حاجة إلى النوم، فنام..

وفي الغد، ذهب إلى "السين" ليغسل فيه عرقه وأقدامه.. وليعود إلى أفريقيا من جديد!!

(3)

- هذه الجماجم المستديرة الحارة.. ما بالها تتراقص بلا انقطاع..

ثم أحسست أنني مدهوس تحت وزن ثقيل.. كان فمي مفتوحاً على "الشدقين".. وفتحات مناخري ترتجف.. وضع يده على كتفي، ولكن عيني ما تزالان باردتين.. كان يتكلم في نوع من الشرود.. يجمع كلماته من كل حظيرة.. يتكلّم ليحجب عن نفسه اللحظة الملحة بالتفكير.. أنه يشم روائح "البول" ملء أنفه.. ليس طبيعيّاً أن نموت - في رأيه - ولكنه طبيعي فقط أن نحيا.

- اسمع ..!. عندما يتقرب مني الأجل، فكل الأشياء لن تبدو في نظري طبيعية حتى هذه المقاعد الخشبية.. وحتى هذه الأفواه القذرة التي تمر بأزمة حادة في إنسانيتها.. وبمحنة قوية في عواطفها.. وحتى هذه الأكتاف الزرقاء التي يحملون عليها موتها.. أنني مجروح في كبريائي.. ليس بيني وبينهم أي شيء مشترك، سوى هذا الشيء غير الطبيعي: "الموت"!.. هنا ولدت ألف مرة ومرة، فلا أريد أن أموت كالحيوان! أريد أن أفهم لماذا يكرهني هؤلاء؟! ولماذا يحتقرني هؤلاء؟!.. ألأنني فقط عربي؟!!

(4)

أدار مؤشـــر الراديـــو، فصـــاح فيـــه المـــذياع.. بانتصـــارات ســـلام تحقّـــق فـــي مـــؤتمرات!.. ومواقـــع دموية تخاض على جماجم في ميدان المعركة.. نابالم فـي أحشـاء دمـى بشـرية.. وقنابـل تفجـر فـي عيـون الليل، لئلا يأنس الليل بسكونه.. فحوّل موجة الراديو يبحث عن أغنية، فكانت أغنية صاخبة هستيرية لهذا الزنجي الأمريكي جيمس براون.. ولج "زعيق" الآلات النحاسية إلى مداخل رأسه.. فأراد أن ينام.. فنام.. وعند الصباح، وجد الطبيب يكتب له هذا التشخيص "مغص شديد في المخ من الأخبار والموسيقى!!"

عوض الخمشة

العالم ببصلة.. والدنيا حر!

توطـد القهـر فـي الصـدور المعرضـة للغبـار.. والإهمال!

خذوا أمتعتكم، وارحلوا إلى الشيطان..

الدنيا حر!

الناس لا يبتغون مرضاته..!

لـو كـانوا يريـدون ذلـك لهجـروا المدينـة كلهـا.. يتركونها له وحده و"لها"..!

- يـا صـالح! (ينـادي بـأعلى صـوته مـن الرصـيف المقابل)

ويطل صالح من نافذة بيت الطين في أحد أطراف حي الشهداء بالطائف:

- العلوم يا أبو خضراء؟!

- قيمة الكوت (الجاكيت)..

ثم يضيف:

- لم تسددها الله يرضى عليك.. من الربيع إلى اليوم (الصيف)

- فنجان قهوة!

- أقول لك قيمة الكوت يا صالح!.. اتركنا من القهوة!

يأخذ صالح يده المغطاة بطبقة سميكة من الشعر الأسود الفاحم.. يمررها على لحيته الرمادية.. ثم يعيد رأسه إلى الداخل..

يطول انتظار "أبو خضراء" أو عوض الخمشة (وهذا اسمه) على الرصيف المقابل تحت الشمس.. والدنيا حر!.. العالم ببصلة! فيصيح بأعلى صوته مرة أخرى:

- يا صالح!

ومن النافذة الضيقة، تخرج يد صالح قبل رأسه.. كان فيها "خلق" أسود.. أو ربما رمادي غامق لوح به صالح، وهو يقول:

- اصبر إلى ما بعد رمضان.. وإلاّ خُذْ كوتك!

- آخذ الكوت؟!!.. الكوت تعطيه أنت الأمير ابن معمر بكره..

عوض الخمشة سيرفع دعوى على صالح.. أنه يضيق بهذه المماطلة!.. والأمير يعرفه جيداً، ففي أدراج سكرتاريته أكثر من دعوى على أكثر من شخص، وكلها ذات علاقة بالأكوات!

أدار ظهره.. ومشى.. نحو "حراج الشروق" في الطائف، وهي السوق الشعبية التي تباع فيه الخردوات، والسجاد (الزلّ) والحنابل والبشوت، وأكثر أصحاب المحلات في هذه السوق هم من أهل نجد، وبالذات أهل القصيم، وأهل نجد كانوا يسمون في الحجاز قديماً بـ"الشروق"، وقد نسبت هذه السوق إليهم، وعلى هامشها كانت تقام بعض المزادات (ولاسيما بعد صلاة العصر) لمجموعات كبيرة من الملابس،

والمعاطف، والبالطوهات التي يشتريها "المتسببون" أمثال عوض الخمشة (تاجر الجملة!) والواقع أن اسم المتسببين يطلق على الأشخاص شبه العاطلين، فهم ليسوا موظفين وأعمال محددة لهم.

يشتري عوض الأكوات ليتولى بيعها فيما بعد على أهل قريته، عندما يزورهم في القرية من وقت لآخر، فهم يتهافتون إليه يسألونه عن الجديد! ويشترون ما لديه.. أو بعض ما لديه، وتبلغ تكلفة الكوت عليه خمسة ريالات، فيبيعه عليهم بعشرة، أي 100% مكسب، خير وبركة، وقد يبيع الأكوات على "أهل الخضرة"، أولئك الذين ينامون في الحلقة القديمة في باب الريع بالطائف ترهق جنوبهم وظهورهم صناديق الفاكهة القادمة من القرى المجاورة إلى الطائف..

أحياناً يبيع عوض هذه الأكوات على "تعساء" الحارة وبؤسائها.. وهؤلاء يرتدون الأكوات، مثله حتى في الصيف.. والدنيا حر!.. إنها "مشالحهم"، بعد أن عزَّت عليهم المشالح!!.. يرتدونها في صلاة الجمعة،

والأعياد، والأعراس، ومناسبات الختان، وعند الاحتفاء بالضيوف "المهمين".

العالم ببصلة!.. والدنيا حرّ!

عوض الخمشة رجل في الخمسين من عمره، قصير القامة، نحيل، له شارب، وله سكسوكة نصف بيضاء، وعوض داكن البشرة من لفح الشمس، أو لفح السنين المرّة، وله هندام رثّ في الغالب، ولا يعتمر قط الغتر البيضاء، (يلبس شماغاً أحمر)، ولا يضع في جيبه قلماً؛ لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، لديه غرام خاص بالأكوات (الجاكيتات)، فهو لا يبيعها ويشتريها فقط ، ولكن فوق ذلك، فإن معطفه لا يغادر أكتافه لا في الشتاء، ولا في الصيف!

.. وقت عمل عوض الخمشة يبدأ دائماً عندما ينتهي وقت عمل الآخرين، من الموظفين والمدرسين وسواهم.. فعصر كل يوم يذهب إلى حراج الشروق يشتري أكواتاً: أربعة.. خمسة.. عشرة.. عشرين..

العالم ببصلة!.. والدنيا حر!. والناس يقتلهم البطر!

وهـؤلاء الـذين "ينـافخون" بسـياراتهم الطويلـة "يدكون" فؤاد عوض الخمشة.. يـذبحون فيـه التطلع، لـو كـان لـه تطلـع: غتـر بيضـاء.. وأقـلام مرصـوفة فـي الجيـوب العلويـة.. وسـاعات اليـد "أبـو صـليب".. وأحذيـة مـن النعـال الشـرقية المنقوشـة.. والشـمس لاتشرق على هذه الدنيا إلا من بطون راحاتهم!!

إنهم يعتقدون أحياناً أنهم يستطيعون شراء عـوض الخمشة نفسه!

عوض يعرف أن هناك أحياناً من يضع هـذه الأقلام في جيبه العلوي، وهو لا يقرأ ولا يكتب، يتمنظر على الآخـرين مـن أمثـال أبـي خضـراء، أو عـوض الخمشـة الذي ظلَّ لا يرى في أهل الأقلام إلا أنصاف رجال!.. فالرجـال هـم أهـل الجنـابي (الخنـاجر) والبنـادق أم خمس، وأم "أحدعش"

أخوه "عطية" مثلهم.. يراه عوض نصف رجل!.. وعنـده غترة بيضاء واحـدة، وقلـم واحـد (باركر21)! ولكنـه لا ينـافخ إلا فـي بيـتهم؛ لأن راتبـه الشـهري كمدرس في مدرسة ابتدائية، لا يسمح له حتى بشراء

دراجة هوائية!. وعطية تراوده أحاسيس غير سوية أحياناً، فقد ينتابه الظن غير السليم بأنه الوصي على عوض، مع أنه يصغره سنّاً!.. وهو يقع ضحية لمثل هذه الأحساسيس الغريبة فقط ، لمجرد أنه يعتمر غترة بيضاء وقلماً!.. أي "متعلِّم".. فلا يقدم ولا يؤخر في البيت إلا هو.. أو هكذا يتوهّم.

ليلة الجمعة من كل أسبوع، كان بيتهم يغصُّ بالبشكة من أصدقاء عطية: بلوت والشاهي.. وضحكات عالية.. وكلام لا ينتهي حتى الصباح.. أما بعد أن تزوج عوض الخمشة (تزوّج للمرة الثانية متأخراً.. متأخراً جدّاً، وكان ومازال يضمُّه مع أخيه عطية سكن واحد) فها هو يقفل هذا المهرجان الليلي الذي كان يقيمه عطية مساء كل يوم جمعه في المنزل.. انتهى زمان الورعنة!.. فاطمة (زوجة) يجب أن يدور حولها رجل مثل عوض الخمشة!!.. ليحميها.. يحميها من الأشقياء والأشرار! والباب المفتوح للخروج والدخول، يجب أن يُغلق.. وقد أُغلق.

هـذه "البنيَّـة" الحلـوة.. الغـرة.. فاطمـة لـو رأت، ليلـة كـل جمعـة، أهـل الغتـر البيضـاء والأقـلام مـن أصدقاء عطية، من هو الذي يستطيع أن يضمن عقلها الصغير من "الإنفلات"؟! عوض الخمشة يكبرها بأكثر من خمسة وعشرين سنة.. إنها مازالت "جاهلة!"..

عطية (في الثلاثين من عمره)، وكان متزوجاً قبل عـوض.. أي منـذ خمـس سـنوات، وعائشـة زوجتـه مـن بنات العمومة، غير متعلمة هي الأخرى، وليس فيها ما يلفت من جمال أو ذكاء، لكنها هادئة، مطيعة، وتقوم بواجباتها المنزلية، كما هو مطلوب: تكنس، وتطبخ، وتغسـل ملابـس عطيـة وأخيـه عـوض (قبـل أن يتـزوج للمرة الثانية) وتكويها بانتظام.

عائشة بدأت تمتثل لكل ما يُطبّق في شأن فاطمة، وإلا فعلى زوجها أن يبحث عن سكن آخر، ويترك هذا البيت لعوض وفاطمة، التي لم تدخل بيته، حتى نبت الحنظـل فـي عينيـه! لقـد قضـى مـا يقـرب مـن عشـرين عاماً وحيداً.. بلا امرأة.. بعد أن ماتت زوجته الأولى "زهرة" في حادث حريق.. (تمّ في ظروف غامضة!)

لقد أكلتها النار.. التهمتها في بيت القرية، قبل أن يعرف عوض زمن المدينة، والأكوات، وحراج الشروق. زهرة هي الأخرى كان يحوم حولها رجل ليحميها، فمن ذا الذي كان يستطيع أن يعبر من تحت نافذة بيت عوض الخمشة من شباب القرية في ساعة متأخرة من الليل؟!.. ومن الذي كان يستطيع أن يستوقف زهرة، وهي تعود إلى بيتها عند الغروب، بعد أن أدَّت أعمالها في المزرعة.. تلك المزرعة الكئيبة التي تأخذ حيّزاً صغيراً في أحد أطراف الوادي الممتد كسلّة سيف، من كان يستطيع أن يعترض طريق زهرة، وهي ترجع ناكصة من البئر، تجلب الماء، يسألها عن الأحوال، والأمور، والمشكلات؟! لا أحد طبعاً كان يجرؤ على شيء من هذا، لأن عوض الخمشة لا تغادر عيناه زهرة، وهو المتحفز على سطح المنزل، إلى أن تلج الباب في أمان واطمئنان.

لما كانت تذهب زهرة إلى "الجبل" تحتطب، لم تكن تذهب مع أي من نساء القرية اللاتي كن يذهبن فرادى أو جماعات لهذا الغرض.. كان عوض نفسه

يرافقها إلى هناك.. فهذا "الجبل" مصيبة!.. غامض.. يشبه في غموضه، القدر الذي لا يريد أن يأتي في أغلب الأحيان كما نحب! أحراشه مليئة بشباب القرية والقرى المجاورة.. يصدحون فيه بكل أناشيد الهوى والحب، أشعاراً تذيب الحجر! حتى أن للغناء في الجبل لحناً "طرقاً" خاصاً به في مناطق الحجاز، يشبه إلى حدٍّ ما الموال.. ولصدى الموال في الجبل رونقه.. وله سحره الخاص!.. "الجبل" خطر كبير على الصبيات اللاتي لا يحوم حولهن رجال!..

فاطمة اليوم تتمنَّى أن يرخي لها عوض العنان.. تذهب عند جيرانهم.. (عيال الغامدي).. ولكن ابن الغامدي، هو الآخر من أهل الغتر البيضاء وقلم الباراكر21.. وإذا مشى كأنه يمشي على بيض يخشى تفقيسه!.. لن يكون لفاطمة رجعة إلى عوض إن رأته!!..

تقول لعوض:

- سأذهب مع عائشة عند عيال المالكي.

يُجيب وهو يُوصد باب الشارع خلفه:

- "مالكي ما نعرف مالكي!".. بيت المرة أستر لها!

أجل! هذه رغبة مرفوضة أيضاً!.. فالمالكي يهرس كبد عوض الخمشة كل صباح، وهو على "الدباب" كأنه على فرس سلطان بن بجاد.. يذهب إلى مركز الشرطة مقرَّ عمله.. "عريف" يحسب نفسه جنرالاً، وهو من شدة الصلف لا يشم رائحة الموت!

فاطمة ليس من حقها أن تُشارك في اختيار ألبستها وأدوات زينتها؛ لأنه لن يتم لها ذلك إلاّ بالذهاب إلى السوق.. وهذه السوق تختنق بجيل الشعور الطويلة.. والعقال المنكوس.. والسبحة الذهب!! تقليد الذهب والغتر البيضاء، وأقلام الباركر21!؟

فاطمة ليس من حقها أن تشاهد التليفزيون.. لأن كل الذين يتيسَّر لهم الظهور في هذه الآلة المدمّرة، هم من أهل الغتر البيضاء والأقلام!

فاطمة ليس من حقها أن تستمع إلى الراديو، فهي لا تفهم شيئاً في "الأخبار".. وأغاني "الخيطي

بيطي"، قد تدفعها إلى "التفكير!".. التفكير في أهل الأقلام الباركر21 والغتر البيضاء!.. فاطمة يجب أن يحوم حولها دائماً رجل!.. ليحميها.

العالم ببصلة.. والدنيا حرّ!.. والذي لا يحصل اليوم يحصل غداً!

وقولوا لهؤلاء الذكور "المؤنثين": إنه يسكن هذه الأرض بشر غيرهم!.. قولوا لهم: إن الذكور "المذكرين" وحدهم الذين يعودون دائماً من قاع المحيط بعلامة!.. عجيب لهذا "الخلق" الذي يمضغ اللبان، حتى وهو يطلب رحمة السيَّاف!.. ويُسرّح شعره بأناة تثير الضجر، حتى وهو في طريقه إلى المقصلة.. لا بد أن يبدو وسيماً أنيقاً، حتى في مماته، أو هو في طريقه إلى مثواه الأخير..

عوض الخمشة مازال يذكر أمنية أحد أبناء عمومته.. ابن عم من بعيد!.. واسمه محسن الغمرة، ويعدّ أحد فرسان الوادي الممتد، كجسد ثعبان هارب.. محسن، كان يذبح عوضاً ألف مرة، كلما عبر تحت نافذتهم، وزهرة زوجته ما تزال صبية كغصن

الريحان، ولم تأكلها النار بعد.. إنه مازال يذكر أن محسن الغمرة كان يتمنَّى لنفسه أن يُقتل يوماً ما!.. نعم يقتل!.. ولغاية واحدة فقط يريدها هذا الأخرق، وهي أن يمرَّ به قومه من بين منازل القرية محمولاً على جمل شاهق وجدائله تتدلى على جنب الجمل (كان له جدائل)، فتراه نساء القرية، فيبكين عليه كثيراً.. ثم يكتفين بترديد هذا القول: "يا ويلاه! هذا محسن قتيل!.. وهذه جدائله الطويلة يهبّ بها الريح!"

أمثال محسن يومها، كانوا يسدون كل سبل الرحمة لهم في قلب عوض.. فلا شغل لهؤلاء إلا العبث بقلوب النساء! وكذلك "العقلاء". أو الرجال الذين يحومون حول نسائهم!.. أمثال محسن يعدون أعمالهم فروسية ونجابة، فيضرب بهم الزهو في متون الطيش، حتى لا يبقى على هذه الأرض غيرهم!!

وأمثال محسن يتكاثرون الآن أيضاً مع الاختلاف! وفاطمة ما تفتأ تُدلّل لعوض ولهم، على أنها وردة متمردة جموحة!.. ولكن على هؤلاء الأخيرين، من

أهل الغتر البيضاء وقلم الباركر21، أن يعترفوا بأنهم أكثر ليونة من جيل محسن.. أجل!.. فجيل محسن كان يقتحم الخطر وروحه ملقاة فوق كفّه، وداخل رأسه أسراب من سباع لا تهاب الموت.. أما هؤلاء فجيل "الخيبة".. جيل يزجُّ بنفسه في الخطر، وفي يده قلم، وعلى رأسه غترة بيضاء، يحرص دائماً على ألا تتغضن!.. أو يلحق بها الغبار!

فاطمة ما زالت غضة!.. وربما أنها تقدَم جيلها على كل الأجيال!!.. ربما أنها أيضاً – وهذا عار العار – تتمنَّى لو أن عوض الخمشة يضع في جيبه قلم باركر21، وعلى رأسه غترة بيضاء!.. ربما أنها كذلك تتمادى، وتتمنَّى أن يُنكس عوض العقال!.. ويضع تحته الطاقية الزري.. ويطيل شعره إلى أن يغطي نصف جبهته وكل أذنيه!

لهذا، وتحسباً لمثل هذه الأفكار والهواجس السوداء، عوض سيظل يحوم دائماً حول هذه الصغيرة.. فعقلها ما يزال في كف شيطان!

إذا حضر أحد زملاء عطية يسأل عنه، وكان غير

موجود، فيجب ألا تجيب فاطمة.. لأن لها صوتاً شاباً يهز، كما يظن عوض، الضلوع.. وهذا الخبيث سيعجبه الصوت.. وسيتبع سؤاله الأول بثانٍ، وثالثٍ، وهكذا.. ومن يدري فربما امتد الحوار إلى أشياء ليس لها أي صلة بالسؤال عن عطية!!

"لعب؟ ما فيه لعباً" عوض الخمشة لن تنطلي عليه مثل هذه الأمور!.. في مثل هذه الحالة -أي عندما يسأل أحد عن عطية- هل يتعين على فاطمة أن تُصفِّق؟!.. طبعاً لا.. لأن هذا اللعين الذي خلف الباب سيعرف أن من يصفق بين هذه الجدران امرأة.. وهذا دافع يكفي لتكرار الزيارة لعطية في ساعات غيابه.. هو يسأل، وهي تُصفِّق.. هو يسأل، وهي تُصفِّق.. فلا يدعها حتى تتكلم يوماً ما.. والنتيجة لا يقوى على تصورها عوض الخمشة!

البيت، في جدرانه العالية الصلبة، يجب أن يظل دائماً صامتاً!

آخ!.. الدنيا حر! والعالم ببصلة!

عوض يعرف أنه ليس هناك أي سبب يدفع فاطمة

للوقوف على الباب، أو يضطرها للنظر من النافذة، ولكن مجرد رؤيته لبشكة من شباب القلم وأصحاب الغتر البيضاء على الرصيف المقابل، يقتلون ليالي رمضان التي هلَّت بالبلوت، والشاهي، والضحكات العالية. و"النقنقة" لا تخلق فيه أي رغبة في البقاء ساعات طويلة في "حراج الشروق" يتصيَّد الأكوات القديمة.. ويعود أحياناً إلى المنزل من نصف الطريق.. يتعلَّل بأي عذر عندما تواجهه فاطمة أو عائشة زوجة أخيه عطية بسؤال استغرابي عن سبب عودته المفاجئة أو المبكرة!

عطية يكون غالباً مع أصحابه!.. ولكن حتى ولو كان هنا، في البيت، فإن له صدراً واسعاً.. أي أنه ليس رجلاً "دندوناً.. يشورب النمر".. إذ لا يهمه أبداً ما يمكن أن يدور في رأس عائشة زوجته، وشباب العقال المنكَّس يحومون حول البيت وأمامه.. عوض الخمشة لا يمكن أن يسند إليه مهمة "حراسة" فاطمة!!

العالم ببصلة! والذي لا يُقهر اختياراً يُقهر عنوة!

والناس سيشربون ماء عينيك إن لم تسارع إلى

حثو التراب في وجوههم.. والناس سيمتصون نخاعك إن لم تبادر إلى ردم الحجارة في نحورهم.. التسامح كلمة طيبة لا يعرفها إلاّ العاجزون.. والتساهل مضغة خبيثة لا يتعامل بها إلا الغافلون.. أجل!.. الغافلون عن خطر الإنسان على الإنسان.. والغافلون عن شراهة ابن آدم!.. وعوض الخمشة وفاطمة موضوع التطلعات الشرهة لكل الناس الذين يعيشون حولهما!.. حتى "الزملاء!" في حراج الشروق، كلهم يسألونه دائماً:

- كيف حال "العيال" يا عوض؟

والعيال يعني فاطمة.. وهؤلاء ما الذي يعنيهم من أمور فاطمة، حتى يسألون عنها وعن حالها؟! ليذهبوا جميعاً إلى الشيطان.. ومعهم الأكوات.. وزمان الأكوات.. عوض سيبقى في منزله!.. ولن يغادره أبداً.. سيبقى بالقرب من فاطمة.. يحميها من الناس!.. من الريح.. من الضوء.. وحتى من عطية أخيه! أجل، عطية، بشحمه ولحمه.. لقد فات عوض أن يُعير أخيه "المصخ!" الاهتمام اللازم منذ البداية..

كان يغفل عن حديثه الذي يطول لعائشة زوجته ولفاطمة.. والرجل، الذي "يسولف" مع الحريم فارغ قلب وعقل.. ثم إن عوضاً يعرف أن الرجال يكرهون إطالة الحديث إلى زوجاتهم، أو أنهم لا يجدون موضوعاً للحديث إليهن.. وعطية بالتأكيد لم يكن ليهذي بهذه الصورة "المزعجة"، إلا من أجل أن "يطرح رأس فاطمة".. وفاطمة كانت تصغي له دائماً باهتمام!!

عوض لم يحاول يوماً أن يستقصي مرامي عطية من القسمة "المنصفة" في هداياه بين زوجته وفاطمة: فكلما ابتاع لعائشة فستاناً، أخذ مثله لفاطمة.. وكلما انتقى حلية لعائشة، تعيَّن عليه أن يحضر مثلها لفاطمة!

عوض كان طوال السنوات الماضية، مطمئناً تماماً للاحتياطات "الأمنية" المتخذة في منزله ضد الخارج، لم يكن يعلم أن الخطر قد يأتي مفاجئاً من الداخل. كان يتولَّى المهمات الأمنية في الصباحات، عندما يكون عطية في عمله، أما بعد صلاة العصر، فيكون عطية

قد استقر في المنزل ليتولى المناوبة!.. كانت هذه الترتيبات الأمنية المشددة المحبوكة، هي التي تناسب عوض الخمشة.. وهو - بحمد الله- دائماً على أن الظروف تخدم هكذا نواياه.. فهو هنا في الصباح، وأخوه في باقي ساعات النهار!..

عطية يتحكَّم الآن في كل بواعث الشباب في المنزل!.. ولكن عليه ألا ينسى أن عوضاً مازال موجوداً.. وأن فاطمة يجب أن تظلَّ له وحده.. أنه لايقبل فيها بشريك، ولو على مستوى مجاملات الحمو "المزعومة"!.. يجب أن تقتصر فرحتها على ما يقدمه لها زوجها.. ويجب أن تقصر شكرها وامتنانها عليه هو وحده.. فهي له!.. كلها له: عواطفها.. وأحاسيسها.. ومجاملاتها أيضاً!

الدنيا حر!.. والعالم ببصلة!.. والأرض تضيق على الخائفين من المباغتة!

والذئب بالتأكيد سيفترس كل الذين سيعطونه مهلة للتفكير والاستعداد.. الذئب الآن هو عطية!!

فاطمة هي التي تهرع دائماً إلى الباب الخارجي،

عندما يقرعه عطية.. تفتح له الباب، تضحك له كثيراً.. وتمازحه كثيراً.. عوض لم يعد يشكو حصار الناس في الخارج فقط.. ولكنه يشكو الآن حصار عطية في الداخل! إنه يدرك أنه أخوه.. وأن عارهما واحد.. وأن بيتهما واحد.. ولكن فاطمة نفسها، تجد أن لديها أشياء كثيرة يجب أن تُقال عندما توجه حديثها إلى عطية..وفاطمة تعمد إلى تحري مزاج عطية في الأكل والشراب، وفي طريقة تنظيم المنزل، إعداد القهوة والشاي للضيوف.. عندما يكون هناك ضيوف!!.. أقصد لو كان هناك ضيوف!

والذي يزيد في ضجر عوض الخمشة، أن عائشة امرأة "ميتة" هادئة.. مسالمة.. لا تتحرّك، ولا تثور في وجه عطية زوجها، وهي تلاحظ عن قرب هذه "الملاينة" بينه وبين فاطمة.. الأدهى من ذلك أن عائشة تحب فاطمة، وتقدمها على نفسها.. إنها تدرك هي الأخرى أن عطية أخو عوض.. ولكن هذه الغبية تنسى أن هذه "المجغنة" قد تؤدي إلى كارثة!

هؤلاء الناس لا بد أن يسحقوا جميعاً!.. جلودهم

ميتة.. وقلوبهم ميتة أيضاً.. يجب أن يرفضهم عوض الخمشة، ويجب أن يُذكّرهم بأنه مازال حيّاً.. وأن فاطمة له وحده!!..

سيكسر كل أواني المنزل.. سيشعل الحريق في كل أثاث البيت؛ كي تلتفت إليه هذه الكائنات المريضة، فتجدد علمها بأنه مازال يمشي على الأرض!

كل الناس يحاصرون عوض الخمشة، وكل الأشياء تحاصره أيضاً.. وفاطمة ستطير!.. ستأخذها الريح!.. سيبتلعها المدى.. وستلتهمها حيتان البحر!.. ولكن هاها.. هيت لكم! فعوض سيقص جناحيها.. وسيذبح الريح.. وسيطعن المدى.. وسيخنق البحر!

الناس حقارة!.. وعطية لعنة!.. وفاطمة لم تعد أكثر من تحدٍّ معلق، لوجود عوض وكيانه.. إنه يحاربها الآن، كما يحارب كل الأشياء الأخرى؛ من أجل أن يظلَّ "رجلاً"!

العالم ببصلة! وكل الأشياء يجب أن تتوقف عن الحركة!

عـوض يقـف علـى البـاب الخـارجي، الـذي يفـتح مباشرة على صالة المنزل الصغيرة.. وما كان يخشاه وقع!!

أخوه كان يهرب أمامه بقلب فاطمة!

في وسط الصالة، كان عطية يحتضنها.. يضمها إلى صدره.. ثم يقبلها!.. قبلة واحدة طويلة.. لم يترك له عوض فرصة اتمامها، إذ هوى على رأسه بثلاث ضربات شديدة متتالية من عمود خشبي غليظ ، لم يكن بعيداً عنه!

مات عطية في الحال!.. والمرأة التي كانت بين يديه يضمها أخذت تنوح وتمزق الفستان الجديد الذي اشتراه عوض قبل ليال؛ استعداداً للعيد!.. تعلّقت في عنق القاتل تخنقه، وهي تقترب من وجهه تصيح:

لماذا قتلت زوجي، يا عار الأزواج!

عائشة هي المرأة التي كان يقبلها عطية.. إنه زوجها!.. لقد كانت تعجبه في لباس فاطمة الجديد.. لباس العيد!.. كانت تستعيره منها، كما تفعل النساء أحياناً!

الجنـــازة

يموت أبوكِ!

وهـذا شـبح المـوت، مـازال يُخـيّم فـي كـل أركـان المنـزل.. يتجـوّل فـي كـل شـوارع المدينـة وأزقتهـا الضيقة..

الليل ترينه جنازة!

النهار ترينه جنازة!

ونظرات الناس من حولك جنازة!

أنتِ "أهش" من أن تتحملي هذه الواقعة.. ليس لأنك تحزنين.. وليس لأن "الميت" هو أبوكِ.. ولكن لأنك "تكرهين" أن يموت إنسان.

تكرهين أن يموت إنسان، فهذا "يخيفك".. يبعث الرعب في كل خلايا جسدك الغض!

أعرف أنك لست "حزينة".. أنت بالأحرى تخافين الموت.. وتخافين الخوف نفسه!

عندما يقولون: "عظَّم الله أجرك!".. يحيون في ذاكرتك موت أبيك، وأنت في حاجة إلى نسيانه، ليتبدّد خوفك!

كلما قالوا: "أحسن الله عزاك!" تشكَّل أمامك شبح الموت.. وملائكة الموت.. وهيكل الجنازة.. وعدت تخافين أكثر!

أنت تعلمين أن كل الناس يموتون.. وأنك أنت ستموتين.. ولكن موت الناس يخيفك.. أما موتك أنتِ، فلا تخافينه!

موت الناس فيه بداية الخوف والأرق.. أما موتك أنت، ففيه نهاية الخوف.. بل نهاية كل شيء!!

أنت قادرة على تحمّل "النهاية".. نهايتك! ولكنك تعجزين عن تحمّل البداية.. بداية الخوف!

موت أبيك لا يعني غموض المصير بالنسبة لك.. بمقدار ما يعني أن الكارثة حلَّت بالقرب منك.. في أحد أطراف المنزل.. ولهذا كانت رائحة سريرك

موتاً.. ورائحة مناشفك موتاً.. والهواء الذي ينبعث من نوافذ غرفتك الصغيرة موتاً!

يموت أبوكِ!

وأنت لا تريدين من الناس المواساة والعزاء؛ لأنك لست حزينة.. إنك تريدين، بالأحرى، الأنس، حتى لاتشعرين بأنك وحيدة..

لو كنت أعرفهم كلهم، لطلبت إليهم أن يخرجوا من غرفتك، إن كانوا لا يجيدون شيئاً آخر غير البكاء..ّ! والحديث عن الموت!

أنت في حاجة لأن يحدثوك عن "الحياة"، بدل أن يمزقوا ثيابهم، ويلطموا خدودهم.. مشاركة ساذجة وغبية في "المأتم".. مأتم أبيكِ! أنت لا تستطيعين استيعاب اللحظة القاتلة، التي تريد أن تشبع نهم "الفناء" من زاد الفناء..

أخاف عليك من خوفكِ!

لن أخاف على أمك التي أصبحت أرملة، ولا على إخوتك الذين أصبحوا يتامى.. سأخاف عليك أنت؛ لأنك صرت قادرة على أن تلطمي مصيرك بين عينيه..

فالمصير بالنسبة إليك لم يكن لعبة صغيرة يشتريها لك أبوك من دكان الحارة. المصير بالنسبة لك حصان أشقر أو أصفر تروضينه كيفما شئت.. وحيثما شئت.. ومتى شئت!

المصير بالنسبة إليك كلب مسعور، يثيرك عندما يحتد.. ويدفعك إلى التفكير عندما يخور ويهدأ..!

المصير بالنسبة إليك طفل شرير، تقدمين له الحلوى، عندما يُطوّق عنقك بذراعيه الصغيرتين، وتضربينه على أصابعه، عندما يشرع في تكسير أواني المنزل، أو عندما يعمد إلى إيذاء "أولاد الجيران"!

وهذا كله لا يعني وضوح الرؤية فيك.. كما لا يعني اشتداد عود الإرادة في ذاتك.. إنه يعني أنك تخافين كثيراً..! والذين يخافون، هم الذين يحاولون أن يحسبوا حسابهم في كل شيء! والذين يخافون أيضاً هم الذين يخشون "العواقب!". والذين يخشون العواقب دائماً.. هم الضعفاء، وهؤلاء يختلفون عن الجبناء! فالجبن يا عزيزتي، ضعف وقح متبرج!.. أما الضعف فجبن خجول يقبله الناس؛ لأنه "عطية من

الله" أو لأنه استعداد.. ولهذا كان "الجبن" شتيمة.. أما الضعف، فصفة لا تقتضي أكثر من استدرار العطف والرحمة.. وهي ليست دائماً صفة حميدة، فهي ترفضها كبرياء الواثقين.. وأنت لست واثقة؛ لأنك دائماً خائفة!.

أنت تقتاتين من اللحظة زاد دهر كامل، كأنك تخشين أن تقفل الملائكة أبواب السماء في وجهك!

زمانك يحكمه، ويكيفه، ويطوعه شعورك.. أيّاً كانت نوعية هذا الشعور..

زمانك ينعدم فيه دورك كإنسانة مختارة!

زمانك تتحطَّم في داخله مقوماتك كفتاة تحب بخوف!..وتتكلَّم بخوف!.. وتلبس فساتينها بخوف!.. وتثور بخوف!.. وتنفض عنها أشياء الدهر بخوف!

قولي لكل الناس بأنك إنسانة تضيع في نظرات "الريبة".. لأن الريبة هلاك الذين يجدون في عضلاتهم مغمزاً!.. وفي احتمالهم مغمزاً أيضاً.. واحتمالك أنت يهون أمام وعود أيامك الحبلى بكل شيء..

الذي تبغينه ولا تبغينه، لا يكون على هوى توقعك في أكثر الأحيان!

يموت أبوكِ!

وعندما تعرق مشاعرك، فهذا إرهاص جيد بأن في إهابك "حية!".. أي أنك أصبحت امرأة لا تخاف!.. ولكن إن أردتِ الحقَّ، فأنا أخاف عليك أن تخافي أكثر!

لهذا، فإن الصواب معك فيما قد تفعلين!

فلتهدأ روحك الآن!.. بعد أن تيبست بقع الدم فوق صدرك وثيابك!.

مطـــر

هذا العام كانت السماء شحيحة!.. لقد برئت كل الشقوق الصغيرة في أقدام صبايا "الوادي"، والرجال هناك عادوا يطيلون ليالي السمر!.. يطول سمر الليالي، عندما لا يكون في الحقول لا زرع ولا شجر! يُبدّد الفلاحون الليل بتذاكر القصص والمغامرات، وبالاستماع إلى أخبار "لندن"، وبرنامج "البادية"، وأغاني سميرة توفيق.. ثم لا يستيقظون مبكرين في الصباح! فلا شيء يمكن عمله غير الانتظار.. انتظار المطر!

السماء كانت شحيحة هذا العام.. وعرائس التين والرمان لم تغتسل منذ سنة!.. وتراب الوادي الداكن انثالت عليه الشمس وحرائق الجفاف، كالوعد المشؤوم!

أشجار الخوخ والعنب أخذ يظهر عليها "الترهل" على غرة!.. فهي تندب الشباب والصبايا والمطر!

هذا الوادي لا بد أن "يسكره" الماء، إذا أردتم أن يظل كالبهجة.. أو كغناء طفل!.. لا بد أن يكون دائماً ثملاً بزخات المطر، إن كنتم تُصرّون على أن محمد شاعر!

كان "أبو مطر" سفر بن صاهود، شيخ الوادي يغصُّ بهذه الحروف في أحد مجالس الشبان، الذين جاؤوا من بعيد يسألونه أخبار "الجماعة" والزرع!.. جاؤوا من كل مكان ليدسوا أصابعهم في الماء.. وفي طين الوادي.. ينقعون أجسادهم فيه، ليجددوا فيها احتفالات الشقوق الصغيرة في أقدامهم وحواف أكفهم! تلك الأكفّ التي عبث بها رفاه المدن ورخاوتها.

في صيف كل عام، لا بد أن يعودوا إلى أرضهم البكر.. يتطهرون من روائح عرق الناس في الأسواق الضيقة المحتشدة، ويخلعون عن أجسادهم بقايا أنفاس الليل المزكوم بالرعب.. والفجيعة.. والكرب!.. ولكنهم هذا العام وجدوا أن الأرض مطعونة.. مثخنة..

تلهث من العطش، وتكتسي عيناها بغلالة رمادية بائسة.. أما أبو مطر، فيعصف به الخوف!

إنه يخاف عناد المطر!.. ويخاف خوف "الجماعة".. خوفهم من أن تتحوَّل أيديهم الخشنة إلى أيد ملساء!.. تغادرها الشقوق الصغيرة، عنوان الماء والطين، وخيرات أمهم الأرض.

يخاف أبو مطر أن يصبح "الوادي" بلا ريش!.. وأن تكسر صباياه الجرار، ومعها قوارير العطر.. والمرايا.. وأواني الكحل!

إنه يخاف أن يذبل زهر الورد.. وأن تضمر أوراق الريحان، وأعواد النعناع!.. ويخاف أن تهاجر طيور الوادي.. فيبقى بلا طيور!..

كان الشبان الذين يحيطون بأبي مطر، ليسألوه أخبار "الجماعة" والزرع، يقرؤون في عينيه ملحمة طويلة حافلة بالصراع، وبأنباء السنين التي ولّت، وولَّى معها أكثر من تحدٍّ كان يستهدف مصير الإنسان.. ومصير الطبيعة في آن واحد!

الفلاحون ترتسم دائماً على وجوههم أحزان

الأرض!.. وظنون التراب.. وهواجس الطين!.. وأبو مطر كان ينبعث من نظراته ألف ظن وظن!.. وألف هاجس وهاجس.

قال له الشبان: سنذهب إلى هناك!.. إلى الوادي.. ليس من اليسير علينا أن يبكي الوادي وحده!

رد ولهجته تحتج: الوادي لا يبكي!.. إن كبرياءه لم تنخذل قط!.. ولكنه يحاول أن يجابه عناد المطر!

ثم صمت قليلاً ليستأنف:

- اذهبوا إليه.. فهو لن يخذلكم!.. ستجدونه يزغرد، برغم ظنونه الموجعة.. وسترون أنه يغني، برغم هواجسه السوداء!

هؤلاء الشبان جرحوا الشيخ أبا مطر في غروره!..

وغروره هو واديه! وهو كان يغفر لهم ذلك؛ لأنهم مهما ابتعدوا ظلوا قريبين من تراب الوادي وطينه ومشكلاته!

"الزرع والجماعة"، على الرغم من عناد المطر،

لا بـد أن يظلـوا موضـوع هـذا الصـيف أيضـاً!.. وهؤلاء الشبان ليس لهم خلاص من حب الوادي، حتى لو أصبح بلا طيور!

أبـو مطـر ظـلّ يـرى دائمـاً أن لا حـلّ لهـذه الآبـار الجائعـة سـوى المطـر.. ولا حـلّ لهـذا الغبـار الكثيـف المنبعث من الركبـان والمـزارع سـوى المطـر.. ولا حـلّ لهـذا الصـمت الـذي يطبـق علـى أفـواه الجماعـة إلاّ المطـر.. فـالمطر صـديق النـاس والطيـور والأشـجار، وبدونـه يجـوع النـاس ويبكـون، وبدونـه تهـاجر الطيـور، وتغيـب عـن السـماء والأغصـان، وبدونـه تتهـاوى الأشجار وتنكّس رؤوسها، فتبدو كئيبة، مصفّرة بـالتراب الرقيق والغبـار. وإذا حـدث كـل ذلـك تتفـاقم همـوم أبـي مطـر، بـل يحـس أحيانـاً وكأنـه المسـؤول عمـا يحـدث، فلابـد أن يتصـرَّف، ألـيس هـو شـيخ القبيلـة؟ لابـد أن يتصرَّف! كان قد أنجب أبو مطر عشرة أولاد، وثلاث بنـات، وكـان الأكبـر ولـداً، فسـماه "مطـراً"، وكانـت الصـغرى بنتـاً، فسـماها "مطـرة"، ليس عنـده أعـز مـن المطر! وليس في قلبه أغلى من الوادي والجماعة!

في أحد الأيام، عندما جاء مطر ليوقظ أباه لصلاة الفجر، وجده قد فارق الحياة.. تُوفي أبو مطر.. ولم يأت المطر.. لم يأت بعد!

نشعله بالغي!

عجيبةُ كوبنهاغن!

امرأة بضّة، فارهة، متدفقة!

أنثى كالإلبيسة..!

ضغطت يده بشدة، إذ كانت تلوي وجهها نحو مصدر الصوت: دوري! (وهذا كان اسمها).

- أنت هائلة جداً.. تماماً كشلالات هذه الشمس، التي لا تظهر هنا إلاّ في القليل.. القليل!.

هذه هي دوري! في عينيها الخضراوين، وشعرها الأشقر المسترسل بلا حدود!.. مسترسل حتى لعله يشبه قصيدة فذّة، قرر شاعرها الملهم ألا يكتب لها نهايةً أبداً!

وهذه هي كوبنهاغن!.. هنا.. صوب العين..

ها هي بكل ما تخضل به من فتن ومباهج!

ضغط، هو بدوره، على يدها لكن برفق، ثم أدار لها ذلك السؤال الفج: "كم بلغت من العمر يا دوري؟!" لقد نسي أن مثل هذا السؤال، آخر ما يمكن أن تواجه به امرأة بهذا الحجم من الجمال، وبهذه العيون الغزيرة حدّ الإغراق! وبهذا الشعر الأشقر الذي يمتد على طول البصر!.. بل أبعد من البصر! وأبعد من القصيدة والشاعر!

لم ترتبك دوري! ولم تأبه لفجاجة السؤال.. وقالت: "عمري هو هذا الاستفزاز الذي يلعب بشراسة داخل عينيك يالعين!.. عمري هو هذا الدفء المريب.. المريب جداً.. الذي يتدفَّق، دون أن تدري، من رؤوس أصابعك! فهو يلسعني من فوق الجلد ومن تحته!".. وأضافت شيئاً لم يفهمه: "أيها النصل الحادّ!" ثم دفعته أمامها.. تقول خلفه: "المعادلة هنا سهلة، وتتلَّخص –يا عزيزي!- في كلمة شيطانية

واحدة، مقتطعة من الجحيم، هي الرغبة!" ثم حاذته الملعونة، وهي تسحب يدها على كتفه: "تعال.. اقترب قليلاً.. أقبل عليَّ جميعك! لك أن تنهمر هنا بكل ما فيك!" ثم استطردت تُردّد كلاماً طويلاً حول الشمس.. الأشجار.. الرمال السحيقة.. ورحلة ذلك الدنماركي الذي وصل إلى "اليمن"، وقد كتب لأهل "الشمال" أشياء لا تُحصى عن عجائب الجزيرة العربية، وعن أسرار الرمل الشاسع الذي يتغنَّى به كل شعراء العالم، ممن ليسوا بالضرورة شعراء!

دوري الآن في كامل صحوها.. وهي ما زالت تهمل أحد كفيها فوق كتفه، ولا تأبه أبداً. كانت لاتلقي بالاً لنظراته الفجة! التي وصفتها له بأنها "حادة!" ومفترسة..

عجيبة دوري.. تبدو ذئبة واثقة!

عجيبة كوبنهاغن.. كم هي مهيبة وراسخة!

لم يكن هناك بدٌّ من ضمها إلى القلب.. ضمّاً تفصَّدت له كل عروق الجسد! نحن لا نخاف شيئاً،

خوفنا من أن تنفجر هذه العروق.. فتنهمر النار، أو ينثال الحب.. أو يهطل الدم..

قال لكوبنهاغن: "أدخلي أيتها المليحة تحت معطفي، فهذا الليل ليلٌ قرٌ.. والريح كما تبدو –ورب الكعبة- ريح صرٌ، وأنا مقيم هنا حتى لا يبزغ فجرٌ أبداً!".

في "تيفولي" حيث يعبث الصغار، وإذْ "يتعاشق" الكبار، وعندما يختلط صوت الموسيقى المرتفع جداً بضحكات دوري الصاخبة جداً، رأى كوبنهاغن في كامل فتنتها.. الطاولات الصغيرة في تلك المطاعم الفسيحة، كان يبزغ الجميلون فيها كما تبزغ النجوم في ليل نقي! أهم ما في هذه العاصمة الدنماركية، كما يلوح له في يومه الأول، هو هذا التدفق المذهل في نسبة جمال الناس.. أجل! كلهم هنا جميلون! ساطعون كقطع الذهب المصقول.. و"تيفولي" هذه، إن كنت لا تدري، هي حشد هائل لسكان العاصمة.. يجتمعون هنا لينبثُّوا حول النوافير، والبحيرات

الصغيرة، والمطاعم، والمقاهي المتعددة.. حتى الآن لم يرَ في الدنيا شبيهاً لهذه المدينة داخل المدينة!.. وأنت لا تحظى بمجرد الدخول إليها، إلاّ بعد أن تدفع قيمة التذكرة، حتى ولو لم تأكل أو تشتري.. أو تغني.. أو تحب! أحسب أن مجرد "الفرجة" على هذا الحشد من الفتنة، كان في حاجة إلى ضريبته من المال!

دوري كانت تعبث بسترة "المتردوتيل"، أو النادل الذي أخذ يسجل، في ثبات، طلبات زبائنه في مطعم "بالكوني"، أضخم مطاعم "تيفولي" كما يشاع هنا! هذه الإبليسة لا أراها تعبأ بأحد، وذنب هذا المسكين الذي أباح لها هذه الجرأة، هو أنه كان معتدّاً بنفسه أكثر مما ينبغي، ودوري العجيبة امرأة لا تريد أن يتطاول على كبريائها أحد، كائناً من كان.. إن هذا الذي يسقط أمامنا ضحية لعبث دوري الإبليسة، يبدو وكأنه عسكري برتبة "فريق".. فريق في حرس الملكة "مارجريتا الثانية"، أو هكذا يبدو!.. والذي يتيح لي

التلفظ باسم الملكة في هذا الموضع أمران، أولهما: أن هذا لن يزعج الدنماركيين، فهم أكثر تواضعاً من الإنجليز، فيما يتعلَّق بفخفخة العرش والملكة نفسها، أما ثانيهما: فإن الملكة مارجريتا الثانية نفسها أديبة وفنانة، والبشر من هذا الصنف أكثر تقبلاً للدعابة التي يفرضها "لؤم" الموقف الذي نحن فيه: دوري والنادل وأنا.

دوري تتحدَّث الآن عن الملكة، وكأنها زميلتها في المدرسة، أو جارتها في الحي، وربما لهذا السبب يؤكِّد الدنماركيون أنه فيما لو أصبحت هذه المملكة القديمة، بين ليلة وضحاها، جمهورية فإن الشخص الوحيد الذي سيحقق انتصاراً ساحقاً في انتخابات الرئاسة، هي نفسها الملكة مارجريتا الثانية، فالدعم لسياستها من مختلف فئات الشعب، وهذا أمر يمكن أن تؤكده أيضاً مؤسسات استطلاع الرأي والباحثون الاجتماعيون. فمارجريتا كما يراها شعبها امرأة ذات شخصية جذابة محببة، وذات طبيعة دافئة، وهي على

مواهب فنية راقية، ويقولون: إنه "كان بإمكانها أن تصبح فنانة محترفة ناجحة، لو لم يوافق الناخبون الدنماركيون بأغلبية ساحقة في استفتاء عام 1953م على إعادة حق اعتلاء العرش للإناث". وبالمناسبة، فالملكة مارجريتا الثانية، التي تعتلي عرش البلاد، هي أول امرأة ملكة منذ عهد مارجريتا الأولى (1353م – 1412م)، التي حكمت الدانمارك والنرويج والسويد.. والدانمارك (بالمناسبة أيضاً)، أقدم مملكة في العالم كله!

أطلقت دوري سراح النادل أو "المتردوتيل" الآن، فالحديث عن مارجريتا الثانية ما زال يشوقها.. دوري تبدو مولعة تماماً بالحديث عن "العاهلة" وهي، ككل النساء الأنيقات، لا تتكلّم وفمها الصغير مملوء بالطعام.. أجل! دوري لم تعد تأبه بتلك الأطباق الشهية التي ما يفتأ المتردوتيل أو النادل يدفعها نحوها، مرَّرت المنديل الورقي الناعم حول شفتيها الغليظتين بفنّ، ثم استغرقت في الحديث عن الملكة،

قالت: "لقد ورثت مارجريتا النزعة الفنية عن أسلافها، عائلة برنادوت، إلاّ أنها ترتفع كرسامة فوق مستوى الهواة والموهوبين، ومن بين أحد أعمالها الفنية التي أحرزت استحساناً دولياً، اللوحات التي رسمتها لتزيين أحد الكتب التراثية، وهو كتاب "أمير الخواتم"، للمؤلف الشهير تولكين. وكانت تستعمل اسماً مستعاراً، هو "انجاهيلد جراثمر"، ثم تستطرد دوري: "قامت الملكة كفنانة بتطريز أردية الكهنة الفاخرة، ولقد اعتبرت هداياها إلى جمعية الحرف اليدوية والفنون الدنماركية بمثابة عامل فعال في إعادة أحياء الطاقات الكامنة في هذا الفن، وكانت الهدية عبارة عن 12 لوحة مطرزة تُمثِّل الطقس الدنماركي لتزيين التقويم السنوي الذي تصدره الجمعية".. ثم تقول دوري: "والملكة ليست رسامة فقط، ولكنها أيضاً مهتمة بالأدب، فلقد ترجمت بالتعاون مع زوجها (وهو فرنسي بالمناسبة) رواية "كل الناس فنانون"، ترجمتها من اللغة الفرنسية إلى

الدنماركية، وهي رواية فلسفية من أشهر روايات الكاتبة الشهيرة سيمون دي بوفوار. وصدرت الترجمة باسم مستعار، هو (هـ.م. فيربيرج)، ولم يكتشف اسمها المترجمون إلاّ بعد أسابيع من خروج الرواية إلى الأسواق.. وقد أجمع النقاد على أن فريق الترجمة الملكي (الدنماركي – الفرنسي)، كان بمستوى بوفوار الفكري، وحقّقت الرواية أبرز النجاحات، وأعيد طبعها ثلاث مرات... ثم تواصل دوري بلا ملل: "أظهرت صاحبة الجلالة منذ حداثة عمرها وحتى الآن اهتماماً كبيراً بعلم التنقيب عن الآثار، ولقد دفعها هذا إلى السفر إلى مدينة روما؛ للتنقيب عن الآثار هناك، بمراقبة عمها ملك السويد الراحل، كما ساهمت في رحلة بعثة التنقيب الإسكندنافية للبحث عن الآثار في منطقة النوبة في مصر. ولها اهتمام كبير بعلم اللاهوت، وهي تنشد صقل معرفتها في هذا المجال خلال مناظرات فكرية مع مجموعة من علماء اللاهوت الرائدين في الدانمارك. وصاحبة الجلالة تضم حلقة

أصدقائها المقربين منها، ومن الأمير هنريك (الزوج) أدباء وكتاباً دنماركيين بارزين، وتقوم جلالتها بمراسلة عدد من أشهر المؤلفين الدنماركيين، وكثيراً ما تتناول وجبات الغذاء غير الرسمية مع شخصيات ثقافية مرموقة، حيث يدور بطبيعة الحال نقاش صريح حول القضايا الأدبية والاجتماعية والمسائل الساخنة". وصحيح أن الملكة هنا لا تحكم.. ولكن مارجريتا الثانية على صلة قوية برؤساء الحكومات في بلدها، وتبادلهم الرأي والمشورة بصفة دائمة مستمرة.

شموخ الملكة شيء باهر جدّاً، يلوح في عيني دوري الجميلتين.

دوري لا تريد أن تتوقَّف عن الكلام، مع أن زبائن المطعم قد غادروه منذ لحظات!

الناس هنا يغادرون أماكنهم بهدوء وأناقة، و"تيفولي" جميعها بدأت استرخاءها اليومي المعتاد، فالساعة تحوم حول الثانية عشرة ليلاً!

الليل في كوبنهاغن مشوار طويل (من الضوء إلى الضوء)، ومسكون بكل أصناف الإغراء والدهشة والجنون!

دوري لا تريد أن تنام!.. ولا تريد أن تدع أحداً ينام! ولا تحسبنّها تمشي على أرض، بل إنها تدور في رأسك، تحوم داخل صدرك.. بين الضلع والضلع.. لقد أكلت الآن نصف شفتها السفلي.. وابتلت عيناها بالبريق.. فادفعها عنك قليلاً.. قليلاً فقط.. وإلاّ فإنها ستأتي عليك.. ستلتهمك دفعة واحدة.. وحينئذ ستطعنك الدهشة طعنة جديدة، في حين أنه لم يعد في قلبك الصغير المثخن موقع واحد لطعنة!..

دوري قررت أن تستبيح هذا الليل.. أن تهتكه في جبينه وخاصرته.. قرَّرت أن تقرضه عقدة عقدة.. مفصلاً مفصلاً!

وأنت.. لكي تقتحم ليل كوبنهاغن.. لا تحتاج إلاّ إلى قدر بسيط من الشجاعة، ومثل ذلك من الصبر!

دوري.. هل تراها الآن؟!

إنها تغسل جسدها الفاره في ضوء عينيك.. وفي شلال صوتك الأجش..

لقد قُلتُها لك:

دوري لن تدع لأحد سبيلاً!!

****

دوري نشطةُ هذا الصباح!...

أقبلت كالموج!

كان خدُّها شفقاً يتورَّد.. وكانت عيناها كلمات بكراً.. أو هما صوت طفل للتو يلثغ بالحروف!

.. لما دَنَتْ واقتربت.. شرعت تنتقل خطوتها في تثاقل لا يبقي على شيء.. فتلعثمنا.. ثم زاد وهجاً!

تثنَّت الآن على كرسيِّها الجلدي في بهو الفندق.. تحاذره أن يخدشها بجرأته.. ويحاذرها هو أن تشعله بالغيِّ!.

ممنوع أن تتغنج دوري أمام جمع كبير من الرجال!.. لكنها بهيئتها المتدفقة تدعهم يستلهمونها، كما يحلو لهم الاستلهام.

والأمر المتفق عليه، هو أنه لا أحد يستطيع أن يتجاوزها، دون أن يتردد في مشيته أمامها خطوة أو خطوتين.. دهراً أو دهرين!

المرأة من صنفها تربك الرجال وتقسرهم على التلعثم أو الصمت!

أجل!.. كوبنهاغن منشرحةٌ هذا الصباح.

وهي لا تستيقظ إلا بعد التاسعة.. ونحن الآن بالفعل بعد التاسعة!.. وهذه الأقدام، الناحلة المخروطة ذات الأصابع الطويلة المتناسقة، ما تزال ملفوفة بعيون الشرهين، ها هي تعبر أمامنا على الرصيف، خلف هذا الحاجز الزجاجي للبهو..

اتخذ لك مكاناً هنا، لتقرأ في هدوء وسكينة معزوفة تلك الأقدام التي نكاد نجزم أنها لا تلمس الأرض، فهي الأخرى تحاذرها أن تشتعل، أو تدبّ فيها كهرباء الحب وماء "الغندرة!".

دوري تقول: "إن مما تزهو به الدانمارك فتنة نسائها اللاتي يختصرن كل نساء الأرض"، وهي لاتحتاج إلى وقت طويل لإقناعك بهذا الزعم الجميل،

دعها فقط تُمرِّر أصابعها في خصلات شعرها المنهمر كالشمس.. تدفعه إلى الخلف مرة واحدة أو مرتين.. وعندها سيقتحمك، رغم أنفك، جنون عظيم، بأن لانساء في الكون إلا نساء الدانمارك، وأن لا امرأة في الدنيا سوى دوري!

اقرأ مرة أخرى قصيدة الرصيف المحاذي للبهو، والذي يفصلك عنه هذا الحاجز الزجاجي، وألف عام من الدهشة، وعندها سترى أنك، أنت نفسك، قد تحوّلت إلى نهر ضخم من الشرود والحب والذهول!

أما حين يجدّ الجد، وتستنكف دوري قليلاً عن استباحة صدرك ووجهك وخيالك، فستعلم أن الدانمارك تزهو بأمور أخرى غير الجمال، وما يلحق به من فتن ومشكلات وكوارث، فعدا الملكة الذكية الموهوبة ماجريتا الثانية، وعدا فرو "المينك"، وقصر "فريدريكبورج"، ستجد أن الدانمارك تتباهي بأن خمسة عشر مليوناً من الأوروبيين يأكلون من خيراتها الزراعية، هذا عدا الخمسة ملايين دنماركي من سكان البلاد.

وما نشتمُّه هنا، الآن، من بوادره موجةٍ عنصرية ضد الأجانب، يرجعه بعض الدنماركيين إلى أوضاعهم الاقتصادية العامة والفردية. فهم يرون أن أبواب البلاد أصبحت مفتوحة لـ"اللاجئين"، لا سيما من دول الشرق الأوسط ، التي تعيش بعض الحروب المستمرة، وهؤلاء (معظمهم عاطلون)، إضافة إلى أنهم يُشكّلون عبئاً على إيقاع الحياة اليومية للمواطن الدانماركي، فهم أيضاً يفيدون من نظام الضمان الاجتماعي الفريد، الذي يكفل الحد الأدنى من العيش الكريم لكل من يلقي عصاه على أرض الدانمارك، وهذا الضمان إنما يقوم بالدرجة الأولى على الضرائب التي تجتبى من الدانماركيين، الذين يقولون بوضوح: "لماذا نكدح نحن، ليعيش على حسابنا وحساب عرقنا تنابلة العالم الثالث وشذّاذه".

وهؤلاء يتحدثون الآن بقرف شديد عن أكثر من "غيتو"، بدأ يتكوَّن في عاصمتهم الجميلة، ويتحدثون أيضاً، بخوف وهلع، عن بعض الممارسات التي يقترفها هؤلاء الأجانب كالسرقة، أو الاعتداء على النساء!

كأنهم بدؤوا يرون هذه المدينة، التي لم تعرف العنف، أو بعض ممارسات الكبت النفسي، مقبلةً على نُذُر مقلقة جداً من الخلل الاجتماعي والأمني البغيض.

والحق أن كوبنهاغن تشبه، بالتمام، امرأة بالغة الفتنة والترف، لكنها مصونة من أية علاقة مشبوهة بنمط "الكابوني"، أو مافيا "نابلي" أو "كورسيكا"، أو أسياد ما بعد منتصف الليل في "شيكاغو"، أو "مونت كارلو"، أو "كان" الفرنسية.

أتصور هذه العاصمة الشمالية بريئة من تناقضات لندن، أو بجاحات باريس، أو مفاجآت نيويورك، أو طفيليات مدريد وروما. فالناس هنا يتبعون إيقاعاً مستقراً منتظماً للعيش، بعيداً، غالباً، عن أي اضطراب أو استفزازات أو شكوك، ولهذا فهم يتحدثون إليك بسهولة، ويلقون جميع أوراقهم على الطاولة باطمئنان. ولا تعجب أبداً لو حاولت حسناء أن تهتك جدار صمتك بسؤال عن أحب أنواع الموسيقى إليك، أو عن مدى قرابتك من عمر الشريف، أو عن دعوتك إلى

قليل من الرقص. وقد تقذفك بـ"رمش"، يهزّك من الجبهة، حتى جذرك في القدم!..

وهذه دوري كانت قد بدأت حديثها إليه بسؤاله عن عدد زوجاته في خدره الحصين في الصحراء، ثم انتقلت إلى الصحراء نفسها والشمس، ولم تلبث، بعد دقيقة واحدة، أن أهملته!..

.. أهملته حتى انثنى وذبل!..

فهو يمسك بخيط هنا، وهو يفلت خيطاً هناك.. إلى أن استدار الكلام وتناهي واكتمل، فأصبح هو الذي يتلعثم بالسؤال، وأضحت هي التي تمنن عليه بالسماع وبعض الجواب!

دوري تهجر الآن كرسيها الجلدي في البهو..

واقفةً كشلال الضوء.. نشطةً كالموج..

"يتشقَّق!" خدُّها كالورد..

والكلمات طفل..

والصوت يلثغ بالصوت!

تتكسر أمامه وهي تدلف إلى الخارج..

تعبر إلى الرصيف..
محفوفة بعيون كل الشرهين..
"هما" الآن خارج الحاجز الزجاجي..
خارج الوقت!..
خارج النظر!
لقد دخل إلى عالمها.. ثم قرر ألا يخرج أبداً.

موسيقى

غزير شعر اللحية، وليس لشعر رأسه كثافة، تجعله منسجماً مع ذلك التدفق المجنون في شعر لحيته..

قصير القامة، ممتلئ باتزان، في وجهه استدارة تفضح بشدة ضيق فتحات عينيه.. على خده الأيمن شامة كالقرش.. لونها بنيٌّ.. وهو شديد الفخر بها؛ لأن صديقته الغابرة كانت تقول: إنها جميلة في وجهه..

على كتفه الأيسر يعلق حقيبته، متوسطة الحجم، من الكتان، لونها كاكي متهالك من القدم، وهي أيضاً وبالتأكيد كانت تعجب صديقته المزعومة، مادام أن تلك الشامة البنيّة التي تفترش من وجهه مساحة بحجم القرش، كانت تعجبها كذلك..

يضع في الحقيبة سجائره وأشياءه الآخرى، مثل حافظة نقوده الخاوية، عدا من بعض بطاقات الميترو، وصور شخصية قديمة، وعناوين لا يجمعها جامع، وملاحظات لا يفهمها سواه!

وقف على مدخل المقهى، بعد أن أوصده خلفه، فالوقت شتاء بارد، وجميع الزبائن يكون في الداخل، فلا أحد على رصيف المقهى، كما يحدث في الربيع أو الصيف.. يجيل عينيه في الجهات الأربع، فكأنني أحسست بأنه على موعد يبحث فيه عن أحد وهو قد تأخر كثيراً عن الموعد الذي ضربه معه.. متلهِّف.. متوثب.. ولو وجد من يبحث عنه، فهو حتماً سينقضُّ عليه كما ينقض الذئب على الفريسة، وسيوسعه ضمّاً وتقبيلاً واعتذاراً!..

تركته مصلوباً على الباب، لأواصل قراءتي في جريدة "فرانس – سوار"المسائية الفرنسية.. وهذه ليست المرة الأولى التي أراه فيها.. فقد سبق أن رأيته غير مرة في المقهى ذاته، باللحية الكثيفة ذاتها، والحقيبة الكاكي ذاتها.. أما المقهى فقريب جداً من

مدرسة "اليانس فرانسيز"، التي أتعلّم فيها اللغة الفرنسية، وهو ربما يسكن أحد الشوارع الخلفية في هذا الحي الباريسي العريق (مونربرناس) أو لعله يأتي إلى مقاهي هذا الحي؛ لأنه يضع نفسه في عداد الفنانين والمثقفين الذين يأتون إلى هنا؛ بحثاً عن بقايا لوي أراغون، وأندريه برتون، والآخرين من شلة السورياليين الذين كانوا يقضون أوقاتهم في مقهى "الكوبول" أو مقهى "دوم"، وهما بالمناسبة يقابلان المقهى الذي نحن فيه، مقهى "لوسيليكت" الأقل شهرة من تلك المقاهي التاريخية.. طبعاً نحن في أحدى جهات الشارع الذي يحمل اسم الحي نفسه، وهذا الحي لا أهمية له غير أهمية "الكوبول"، و"الدوم"، ومطعم "الكلوزري دو ليلا"، وهذا الأخير ارتاده إرنست همنجواي، الروائي الأمريكي، يبحث عن أقرانه من الروائيين والأدباء الفرنسيين.. لم يعرف المطعم بهذا فقط، بل عرف بالجميلات من باريس عندما كانت نهاية المدينة، تقف عند أقدام هذا المطعم!

نظر إلى جريدة فرانس - سوار، التي ألقيتها على الطاولة لأبدي احتفائي به، فقال لي، دون مقدمات، بأنه لا يحب قراءتها.. لأنه يوماً ما قرأ فيها نعي لأحد الفنانين الكبار الذين يحبهم، ويحب فنهم، ثم ظهر فيما بعد أن هذه الجريدة أرادت لذلك الفنان الوفاة، ولم يحن أجله بعد!.. إنه يفضّل جريدة "لوموند"، ذات الميول اليساريةن التي كانت ومازالت تعدّ غذاء المثقفين، أو الذين يريدون أن يظهروا أنفسهم للناس على أنهم كذلك.

إنه يقترب مني في بطء وترقُّب.. يتجه نحو طاولتي.. يقصدها.. ولكنه يواصل التفاتاته إلى كل جهات المقهى الأربع.. كأنه يترك لرجليه حرية الحركة، دون أن يكون له هو أي تدخُّل في الاتجاه المختار!!

سلخ حقيبته الكاكي الهالكة عن كتفه بأناة شديدة، وبدا لي فجأة أن هذا الرجل بلا رأس، على الرغم من لحيته الكثيفة، وشعر رأسه المتناثر النافر في كل اتجاه.. قذف الحقيبة إلى كرسي طاولتي.. الكرسي الثاني الفارغ طبعاً.. ثم غاب.. غاب للحظات ثم ظهر

مـن جديـد.. لعلـه ذهـب لقضـاء الحاجـة، أو لشـراء سـجائر، ثـم جلـس.. فأعطـاني وجهـه. وبابتسـامة شحيحة، كشف عن مقدمة لأسنان صفراء كابية عاث فيها دخان سجائر الـ"جيتان"، الملفوفة في ورق الذرة المعـالج، والجيتـان هـم غجـر أوربـا، ولا أدري لمـاذا سُميّت هذه السجائر باسمهم، ربما لحدة مذاقها، فهي تأتي ساخنة، مفعمة بالنيكوتين، كما لا يحدث في أي سجائر أخرى.. هكذا يتهيؤ لي.. أنا شخصياً أدخن سجائر أمريكية.. أو أن أصلها أمريكي، بينما تصنع في أماكن أخرى.. نحن في بلادنا مفتونون بكل ما هو أمريكي، بما في ذلك أدوات الموت.. يُقال فيما يُقال: إن الجيتـان هـم أصـل الفرنسـيين.. قبائـل غجريـة قديمة!.. في طباعهم وملامحهم بعض الحدّة.. هم يشبهون هذه السجائر!

- ألم تر صديقي الذي كنت معه هنا يوم أمس؟ (سألني).

- لا.. لـم أره، لعلـي كنـت مشـغولاً عـن رؤيتـه بالقراءة..

ثم أضفت: هل تريد أن تشرب شيئاً؟!

الواقع أنني لم أرَ صديقة فعلاً لأنني أشتغل عن الناس بالقراءة؛ فلا يغريني الاختلاط بأحد، وإلاَّ في واقع الأمر، فأنا لا أفهم كل ما أقرأ في هذه الصحيفة التي ألقيتها جانباً الآن احتفاء بضيفي! لعل الرجل الذي يجلس أمامي، كان يظنني اخترت جريدة فرانس-سوار لأسباب فكرية مثلاً، وهو لا يعلم أنني لا أشتري جريدة "لوموند"؛ لصعوبة لغتها، مقارنة بالجرائد الشعبية.. فـ"لوموند" لها لغة مرتبة.. محبوكة.. متماسكة.. صارمة أكثر مما ينبغي، وذلك بالنسبة إلى من هو مثلي من حديثي العهد باللغة الفرنسية.. إنني فقط لهذا السبب أحاول القراءة في فرانس - سوار.

نحن الأسيويين عموماً "منغلقون" على أنفسنا، ولا نروم الاختلاط بغيرنا، لعلها ثقافة القطيع، نحن نبدع عندما نكون "معاً"، لكننا غالباً ما نفشل عندما نكون مع "آخرين" من غير جنسنا، أو وحيدين مثلي أنا الآن. هل رأيتم يوماً آسيويّاً يمشي في الشارع،

في بلاد أجنبية، وحيداً؟! مستحيل!.. فنحن دائماً "عشرة"، وأقل ما يمكن "خمسة"!

عدت أسأل الرجل ، الشجرة الهرمة أو المقبلة على الهرم، إذا كان يريد أن يشرب شيئاً!

- قهوة لو سمحت (أجابني)،

ثم أردف:

- لكنهم لم يعودوا يخدمونني هنا، ولا يقدمون لي شيئاً!.

- إذاً.. سجائر؟!سجائر أمريكية!

- بكل سرور.. مع أنني لا أحب الأمريكـــان.. ولا أحب ثقافتهم! عدا بعض الموسيقى.. لقد قلت: بعض الموسيقى! مثل موسيقى الهنود الحمر، أو أحياناً موسيقى رعاة البقر الريفية..

من جهتي لم أكن أريد أن أدخل معه في حديث عن الموسيقى، لسبب بسيط، وهو أنني لا أفهم في موسيقى الهنود الحمر، أو موسيقى رعاة البقر الريفية، فعدت أسأله:

- أكنت على موعد مع صديقك؟!
- أجل.. ولكن يبدو أنه لم يأتِ بعد!!

ثم سألني:

- من أين أنت؟

فأجبته:

- ياباني من مكان قريب من طوكيو، المدينة التي ليس فيها من اليابان سوى اليابانيين أنفسهم، وأماكن "المساج"!.. فطوكيو بغير اليابانيين وأماكن "المساج"، مدينة أوروبية، أو أنها من أمريكا التي لا تحبها!

ثم سألني اسمي.. وسألته اسمه.. وقال بأنه يراني هنا أكثر الأيام.. ولكنه كان يعجب كيف أكون في أغلب الأحيان وحيداً.. والواقع أنني كنت وحيداً، ليس "أغلب الأحيان" كما قال، بل دائماً! ثم قلت له بأنني جئت إلى هنا لدراسة القانون التجاري، وأنا الآن في مرحلة "اللغة"، أي في بداية السلّم.. فذكر لي بأنني لن أتعلَّم "اللغة"، إن بقيت هكذا وحيداً وإذا لم يكن لي أصدقاء يتكلمونها بطريقة صحيحة.. صحيحة على الأقل إلى حدٍّ ما.. ولتكن صديقة فرنسية مثلاً.

- أليس لديك صديقة؟ (سألني!)

-أجبته:

- بلى! .. لديّ مشروع صديقة!.. ولكنها مثلي لا تجيد اللغة الفرنسية، فهي الأخرى يابانية في الصف الدراسي نفسه. فقال لي بأنه لا يقصد هذا .. بل يقصد صديقة فرنسية، أو شبه فرنسية، تجيد اللغة، ويستحسن أنها لا تجيد غيرها.. ثم ضحكت في وجهه، مؤكداً بأن مزاجي فيما يبدو ظل آسيويّاً، فأنا أحب العيون الضيقة، والأنوف المفطوسة!.. ضحكنا معاً، ثم شرع في التهام سيجارته.. هي في الواقع سيجارتي، التي قدمتها له قبل قليل.. فقد اقتنع أخيراً بأن يدخن سجائر أمريكية.. وقد يكون كل ما في الثقافة الأمريكية مضرّ بالعقل وبالوجدان، ولكن ذلك سيكون أقل ضرراً بالصحة من سجائر الجيتان.. هذه السجائر السحيقة التي تفتك بكل شُعَبِنا الهوائية، وجميع مسامات الرئة.. وأنا أتحدى أن تجد فرنسيّاً تخلو رئته من قطران أغبر، يصيح بصوت مرتفع: أنا الجيتان والجيتان أنا!

لقد جلس هذا "الشخص" إلى طاولتي اليوم؛ لأنه لا يستطيع أن يجلس وحيداً إلى طاولة خاصة.. سوف يطردونه؛ لأنهم لم يعودوا راغبين في بقائه هنا.

ثنى جسده إلى الطاولة، ثم رفع وجهه إليَّ:

- هل تدري لماذا؟!

- لماذا.. ماذا؟

- لماذا لا يريدون أن ارتاد مقهاهم؟! فقط لأننا، نحن الفنانين، مشردون، كما يقولون.. إن مثل هؤلاء لايستحقون الاحترام؛ لأنهم لا يحترموننا.. ولايعطوننا الحرية في اختيار نوعية الحياة التي نريد!

حوّلت مجرى الحديث إلى "الطقس" والجو السائد.. وارتفاع الأسعار.. لأنني كنت أعرف لماذا كان مدير المقهى لم يعد راغباً في بقائه وبقاء جماعته في المقهى، ولكنه سرعان ما أعادني إلى الحديث عن المقهى، وعن عدم قبوله فيه:

- إن كل "الجرسونات" ينظرون إليَّ في قرف..

ولولا أنني أجلس إلى طاولتك، لما استقبلوني ثانية واحدة..

وكأن هذا الموضوع ليس بذي بال، عدت أسأله عن هواياته.. فقال "أهمها الموسيقى".. فهو، كما يرى نفسه، عازف وملحن.. يعزف على الغيتار.. والأكورديون... كما أنه ألّف عدة مقطوعات موسيقية.. وهو يتعاون مع هبّي إنجليزي آخر في إحياء بعض الحفلات في بعض والضواحي الباريسية.

بدأ تعلقه بالموسيقى في سني طفولته المبكرة، فما أن استوى يافعاً، حتى غادر أمه التي حدبت عليه منذ ولادته.. أما أبوه، فيقول: إنه لا يعرفه.. لم يجد في نفسه في أي يوم الرغبة الملحة لمعرفته..

ويضيف:

- ربما أنه مات.. وربما أنه ما يزال حيّاً.. هذا لايهمني أبداً..

ترك أمه وهو لم يبلغ سن الرشد بعد.. فقد كانت تحدّ من تعلقه بالموسيقى.. فقد كانت تريد منه أن

يختار طريقاً آخر. ومنذ ذلك الوقت، لا يعلم عن أخبارها شيئاً البتة.. وقال:

- لقد كانت تحبني كثيراً؛ إذ كنت وحيدها.. ولكنها كانت نوعاً ما غليظة الطبع معي، حين يجيء الحديث عن الموسيقى.. لا تهمني الحياة معها الآن؛ لأنني أصبحت قادراً على الحياة بدونها.. ولكن بودي أن أعرف ماذا فعلت بها الشيخوخة.. هذا إن لم تكن قد ماتت..

- ألا تعلم أين تسكن الآن؟ (سألته)

- عندما غادرتها، كانت تسكن منزلنا المتواضع في إحدى قرى الجنوب في فرنسا..

ثم أخذ يخبرني عن نشاطه الموسيقي الخاص.. فقال: إنه يعزف ويؤلف الموسيقى لنفسه ولأصدقائه.. وللناس الذين يحبون الموسيقى.. إنه لا يعمل أي عمل آخر مطلقاً، إلا في حالة استثنائية واحدة، عندما يفتك به وبصحبه الجوع.. وعندما لا ينفع في ذلك لا التسول، ولا الاستجداء، ولا السرقة!.. أجل السرقة.. فمثل هؤلاء يبيحون لأنفسهم السرقة!

كما أن هؤلاء الفنانين المزعومين يطلبون إلى الفتيات منهم، أن يقوموا بالتسول، وباستجداء المارة، ليجمعوا فيما بعد "المحصل"، ثم يأكلونه سوياً.. إنهم يقدمون صديقاتهم للتسول؛ لأنهم يعرفون أن الناس يعطفون على النساء أكثر!!

قال:

- كل الناس في أوروبا يعطفون علينا، ونحن نرتاح لهذا، وإن كنا نشعر حقيقة بأن أكثرهم، مع عطفهم علينا، يحتقروننا، ولا يودون أن يكونوا مثلنا.. إنهم متحضرون! كما يرون أنفسهم، ولكنهم مستفيدون حين يجعلون تحديد مفهوم التحضر بأيديهم وحدهم.. لا بد لكل ظاهرة متحضرة الآن من وجهين، نحن أحد هذين الوجهين، وهم الوجه الآخر.. ثم صاح:

- إلا أصحاب هذا المقهى.. فإنهم همجيون.. إنهم يكرهوننا.. إنهم لا يودون أن يرونا مطلقاً.. أنا لست معقداً.. ولكني أشعر بهذه الحقيقة وألمسها..

كل المقهى كان في شغل عنه.. فما لفت إليه انتباهاً..

أنا شخصياً كنت أعرف مشكلة جيلبير (وهذا كان اسمه) مع المقهى، فهو يومياً يتخذ، مع أصحابه، طاولة في المقهى، ثم يقضون عليها الساعات الطوال.. لايملكون نقوداً يصرفونها هنا.. ثم إنهم لايتوقفون عن تدخين السجائر الرخيصة، والحديث عن البورجوازية "العفنة"، وعن بوهيميات الأزقة الخلفية، والجنس المكشوف، والحشيش، والسرقة "المشروعة".. وما الموسيقى بالنسبة إليهم سوى "هروب" إلى الوهم والضياع، فهي ليست "منتجاً خلاقاً" يزيد الحياة جمالاً ورقياً، وأحسب أن أمه، هي الأخرى، لم يكن يغضبها تعلقه بالموسيقى المحضة، بل إن ما كان يغضبها، هو موسيقى التشرد، والانحراف، والتسول، وشرعنة السرقة بدعوى استباحة البروجوازيات الظالمة المستأثرة بكل شيء.. ثم وجدتني ألتفت إليه فجأة، لأقول له:

- ثم إن "جماعيتكم"المزعومة ما هي سوى أنانية

جريئة، تهدف في الأساس إلى إعادة تشكيل العالم على صورتكم.. ثم ماذا عن هذه الشعور المسترسلة المنتثرة العشوائية، التي تخفي الملامح أو تسهم في تزييفها، وهي بالإضافة إلى ذلك تنبعث منها الروائح الغريبة؟!

أحسسته يتفاجأ بما يسمع منيّ!.. فقال:

- أنتم الأسيويين لا تظهر ملامحكم الغامضة الجدّ من الهزل، في كلامكم وتصرفاتكم.

ثم أضاف:

- أذهب إلى المدينة الصينية بالقرب من "بورت دو أورليان" في أطراف باريس، وهناك ستجد فتيات أسيويات ضيقات العينين يتحدثن الفرنسية بطلاقة.. هذا إن كنت تعتزم أن تتعلّم اللغة الفرنسية فعلاً! ثم مدّ يده: نحو علبة السجائر.. سجائري الأمريكية:

- هل أطمع في سيجارة أخرى؟

وقبل أن يرتد إليّ بصري، كان قد أشعلها!.. ثم نظر إلى أحد الجرسونات العاملين في مقهى، وقال لي بأنه لا يتصور نفسه يقوم بعمل هذا الشخص، لمدة 12 ساعة في اليوم، إلى أن يصل سنه إلى الستين، وربما إلى ما فوق الستين!..

سحبت علبة السجائر التي كانت ملقاة على الطالة، ووضعتها في جيبي، ثم طويت الجريدة.. أمسكها في يدي اليسرى وأتأهب للقيام، وقلت:

- لكنك لا ترى بأساً في أنك ستصل إلى الستين أو ما فوق الستين، وأنت لا شغل لك غير سبّ البرجوازية العفنة، وتدخين الحشيش، وممارسة الجنس الجماعي.. وتسوّل السجائر، كما تفعل الآن!

أظن أن ملامحي الآسيوية، على الرغم من غموضها، كشفت له هذه المرة عن حقيقة ما كان يقبع في نفسي!

استوى واقفاً.. وبدأ يجيل عينيه في أنحاء المقهى.. يبحث عن صديقه الذي لم يأت.. ودون أن يتوقف عن تقليب عينيه حتى في سقف المقهى، مدّ يده يتحسس علاقة حقيبته ليشنقها من جديد على كتفه الأيسر.. فما أن حنيت بصري إلى الجريدة التي فتحتها من جديد، حتى طرقت مسامعي أصوات أكواب وقوارير تتحطّم، كانت على طاولة في نهاية المقهى من ناحية باب الخروج.. ركلها برجله قبل أن يسلم نفسه لزحام الرصيف.

الزنزانة رقم 6

- هذه هي أمي يا سيدي الضابط.. جاءت تقدم نفسها إليكم للقبض عليها كسجينة.. ومتهمة بالقتل.! أجل، فإنها، من أجل أن تساعدني وتنقذني من بين يديه، وهو يهددني بالقتل، أطقلت عليه سبع رصاصات متتالية؛ فمات! إنه زوجي يا سيدي الضابط!! ومحامينا هو الذي نصحنا بالمجيء إليكم الآن!

ثم قدَّمت إليه المسدس (7.65) ملفوفاً في كرافتة (ربطة عنق) قديمة خاصة بالزوج القتيل! كان المسدس ملفوفاً أيضاً في بقايا كراهية الزوج.

حدث هذا في مخفر البوليس، في أحد أحياء مدينة مونبلييه الفرنسية، فتكلمت الأم وهي تتنحنح، وتزيح قبعتها العريضة المنفوشة عن رأسها الأشيب:

- نعم يا سيدي الضابط.. سبع رصاصات أودعتها رأس ذلك القذر.. إذ كان لا بد أن اكتب نهاية حياته.. فأنا لم أعد أحتمله..

واستطردت:

- قبل أن يموت.. كنت في غرفة النوم في "فيللا" ابنتي؛ إذ دخل فجأة يسكب في أذن هذه المسكينة كل ما في قواميس الأشقياء من سباب وشتائم.. وكانت تطل من عينيه كل ما على هذه الأرض من شياطين.. حتى أنني كنت على ثقة بأنه سيختم ذلك الخطاب الرديء ببعثرة عظام جمجمة ابنتي على ذبابات عدد من رصاص مسدسه، الذي لايفارق جيبه أبداً.. في الحال يا سيدي الضابط ، لجأت إلى مسدس ابنتي، الذي كانت تدسّه دائماً تحت وسادتها.. ثم خرجت إليه لأكتب نهايته بإيداع جسده كل ما كان يحمله المسدس من باقي الرصاص.. سبع رصاصات.. بنتي تقول لي بأنها سبع.

ثم تضيف:

- تصوّر يا سيدي الضابط.. فحتى وهو يموت خرج من باب "الفيللا" يتعثر ثم يتدحرج، إلى أن وصل إلى الحديقة، دون أن يقول لزوجته: "مع السلامة"..

- أجل يا سيدتي العجوز، إنه غير مؤدب! (قالها الضابط في سخريته، وهو يرخي نظره نحو الورق المعروض أمامه).

ثم التفت إلى الجنود:

- خذوهما إلى الزنزانتين رقم (6)، ورقم (7).

استأنف الضابط، يحني رأسه لاستكمال المحضر.. راجع المعلومات التي كان قد سجّلها عن القتيل وزوجته.. وعن أم الزوجة.. وعن أبيها، كان على جلدة الملف السوداء بقايا ذباب، وكان الملف كبيراً، ويحمل على حافة "كعبه" رقماً طويلاً لاينتهي، كان ينتفخ بأعداد ليست قليلة من صور الرجال والنساء، الذين وقّعوا قراراتهم مع الناس

بالسكين والخنجر.. وكتبوا رسائلهم إلى "المحكمة" بقطرات الدم.

قالت الزوجة:

- ولكن لماذا أنا أيضاً إلى الزنزانة؟ إنها هي صاحبة الرصاص الذي ينام في جسد زوجي.. إنني أبكيه بحرقة وألم.. فهل هذه مساعدة لي منكم، أستطيع أن أستعين بها في تجفيف دموعي؟

- ردّ الضابط:

- لا.. ولكن لا بد أن تشعر أمك بقربك منها.. أليس كذلك يا مدام لانفان؟

أجابت الأم، وهي تقف على الباب إلى جانب الجندي الذي سيرافقها إلى (الزنزانة):

- ولكني أستطيع أن أتصبَّر وأسلو عنها، فهي اليوم امرأة راشدة، فلا أخاف عليها.. دعها تذهب سيدي الضابط ، أو أطلب من أحد جنودك أن يوصلها إلى منزلها!

- ولكنني لا أستطيع أن أحرمها حنانك ودفئك مدام لانفان (أجابها الضابط).

وقبل أن تغيب في أيدي الجنود، دخل شاب طويل بوجه مستطيل مقفل، مفتول، في كامل أناقته، بدلة رمادية، وكرافته مزركشة عرض 12سم، وقف أمام طاولة الضابط يدعك يديه بشدة.. وعينه تحفر أقدامها على الفراغ الصغير الأبيض في الدفتر الكبير، ذي الرقم الطويل، ثم سحب أحد الكراسي الكابيه المتناثرة على غير انتظام في المكتب.. خشي أن يجلس، فيتسخ بنطلونه "الشيك"، فرفع بتثاقل رجله اليمنى إلى سطح الكرسي.. ضبط توازنها بغرز كوعه إلى الفخذ المفتول.. وبدأ يتكلم..

- سيدي الضابط.. سأفشي لك السر الذي يخنقني.. ويكتم أنفاسي.. لقد جئت إليك الآن أقدم لك نفسي لإلقاء القبض عليّ كسجين.. متهم بالقتل.. لم أستطع أن أحتفظ بهذا السر لمدة أطول.. فأنا الذي قتلت السيد أيف غابان!! أجل!!.. أعتقد أنني...

- تعتقد؟ (تساءل الضابط وقد دفع بجسمه إلى حافة طاولة المكتب محدقاً في الشاب باندهاش).

- لقد كنت مع سيدتي زوجته في "الفيللا"، أبحث عن قطعة غيار لإحدى مكائن الغسيل المعطلة في المغسلة، إذْ دخل علينا السيد غابان، ليبدأ شجاراً عنيفاً مع زوجته، لا أعرف سبب الشجار.. ولكنه كان عنيفاً وصاخباً.. ولا أعلم الآن كيف وجدت نفسي في ساحة المعركة.. أجل!.. لقد تدخّلت في الموضوع، فتناولت ماسورة حديدية كانت مسندة إلى الجدار..و..

وقبل أن يكمل صاحت العجوز الأم، مدام لانفان، التي لم تغادر بعد، وهي تحاول أن تسحب يدها من يد الجندي، لتتقدم نحو طاولة الضابط:

- إنه يكذب يا سيدي الضابط.. يكذب!!

- التفت إليها الشاب، وهو يدخل يده في جيبه، كأنه يبحث فيه عن شيء ستناله العجوز، ثم نظر إليها بضع ثواني في غير اهتمام، ثم أدار وجهه من جديد نحو الضابط، وهو يخرج يده ويحسس بها على رأسه، ويمشي في غرفة المكتب.

- لم أكن أعلم يا سيدي كيف تدخلت في الموضوع، فأخذت "ماسورة" حديدية كانت تستند إلى أحد جدران الغرفة، لأجعلها تتوسط رأسه.. ولكي تكمل زوجته مشوار الموت الذي بدأته أنا، ناولته سبع طلقات نارية متتالية، خرجت من مسدسها في لمحة عين لتستقر في أنحاء مختلفة من جسده الفقيد.. فشرع يتدحرج .. ويتلعثم.. ويتعثر حتى توسّط حديقة "الفيللا".. وهناك كنا ننظر إليه، وهو يرسم أحد مشاهد الفناء..

جرّ نفساً عميقاً كأنه آتٍ من تحت طبقات الأرض السفلي، ثم استأنف:

- أجل يا سيدي.. فإن لم أكن أنا القاتل، فلقد شاركت في عملية القتل على الأقل!! أليس كذلك؟؟

- ثم صاحت العجوز من مكانها مرة أخرى:

- إنه يكذب! يكذب! أنا التي قتلته يا سيدي الضابط!..

- فسحبت الزوجة (مدام غابان) يدها برفق

شديد على جبهتها، ثم أخرجت من حقيبة يدها "مرآة" صغيرة لتعيد تصفيف شعرها الأسود.. ولتمرر بسرعة على شفتيها "أحمر الشفاه"!! ثم تقدمت نحو طاولة الضابط:

- إن هذا الرجل يقول الحقيقة يا سيدي.. أنا التي قتلت زوجي.. وإن كنت قد تركت أمي تقدم نفسها متهمة بالقتل في مكاني، فما فعلت ذلك إلا نزولاً عند رغبتها.

- نزولاً عند رغبتها؟ (تساءل الضابط في دهشة)!

- أجل! فلقد قالت لي أمي: أنا لا أريدك أن تذهبي إلى السجن.. وإن أخذوك إليه، فتأكدي أنني سأقدم على خطوة لا ترضيك ولا ترضيهم.. سأنتحر!! ولأنني كنت متأكدة أنها ستفعل، وافقت على أن تقوم هي بتمثيل دور القاتلة.. وخاصة بعد أن أقنعني أبي، وقد كان يوماً ما مثلك، أحد رجال الأمن، أقنعني بجدوى الفكرة، إذ إنكم ستطلقون أمي

قريباً بعد أن يعفيها القانون من العقوبة، لتقدُّم سنها!

- قال الضابط، وهو يقف ليخرج من وراء المكتب"

- ولكن.. لقد نسيت يا سيدتي أن تعيدي أحمر الشفاه إلى الحقيبة؟

ثم التفت إلى الجنود:

- خذوها.. إلى الزنزانة رقم "6"، والأم إلى الزنزانة رقم "7"، وبعد أن خرجتا، سأله الشاب وهو ينزل رجله من على الكرسي، وعينه ترى أن الفراغ الصغير في الدفتر الكبير ذي الرقم الطويل قد امتلأ.

- وأنا يا سيدي؟ إلى الزنزانة رقم "6" أيضاً، أليس كذلك؟

- لا، بل إلى الزنزانة رقم "11"، والأب لانفان الذي سنحضره بعد قليل بجوارك في الزنزانة رقم "12"، يهمنا أن نحتفظ به هو الآخر.. سنحتفظ بكم

لوقت قصير.. لحين حضور محاميكم، أو نُعيّن لكم محامياً.

- قال الشاب:

- سيدي الضابط.. لقد أردت يوماً أن أواصل دراستي حتى نهايتها.. إذ كنت شغوفاً بالقانون، وكنت أطمح إلى نيل شهادته العليا.. لأصبح محامياً كبيراً.. وأحد أساتذتي لم يستطع آنذاك أن يقنعني بأنني يمكن أن أكون فقط أحد الشهود في أي محكمة، يهمها أن تنهي القضية عاجلاً "!" ثم قعدت يا سيدي، أخيراً، عن إكمال دراستي؛ لأنه لا ضرورة لذلك فيما أظن. ها.. ها.. ها لقد اكتفيت بالعمل في المغسلة التي يملكها المرحوم السيد إيف غابان.. مع السلامة يا سيدي الضابط، ولا تنس أن زوجته هي التي أطلقت عليه الرصاص، ما دمنا سنذهب إلى زنزانتين مختلفتين"!!".. ولا تنسَ أيضاً أن الملابس التي أرتديها الآن، هي لأحد زبائن "المغسلة".. فإن جاء يسأل عنها.. فقولوا له: إنها معي..

- عاد الضابط يجلس إلى كرسيه خلف المكتب، يجدد معلومات المحضر:

الزوج أيف غابان (القتيل) عمره 43 سنة، صاحب مغسلة كهربائية في مدينة مونبيلييه الفرنسية، و"فيللا" يسكنها مع زوجته في قرية مجاورة اسمها "كاستلنولولي".. له من زوجته بنت اسمها بريجيت، (15سنة)، أما الزوجة مرغريت غابان (40 سنة)، فلاتعمل، تتجمّل فقط!، أم الزوجة مدام لانفان (65 سنة)، وزوجها (71 سنة) ضابط قديم متقاعد، لايغادر منزله إلاّ إلى المقهى المجاور لمنزله، أو للمشي في الحديقة العامة أمام مبنى البلدية.

الشاب المتهم بالاشتراك في عملية القتل: ميشيل فرانسوا (25سنة)، أحد عمال المغسلة التي يملكها القتيل.

وبعد أن وصل الضابط في كتابته إلى هنا، أضاف في الهامش:

بريجيت: "بنت القتيل" المرافعة المنتظرة في القضية!

الضابط: متهم جديد في القضية!.. وهو يحب أن يوقف في الزنزانة رقم "6"، ثم وقع، وأشهد من حضر "!!" وخرج!

القَمْلَ...

هو المسؤول!!!

.. والآن، يا حبيبي، بعد أن انتهت "الحفلة" في تونس كُفّ عن البكاء، ودعنا نتحدث بهدوء، حدّق في تونس المليحة، إنها خضراء جداً، حدّق فيها مليّاً، وانظر إلى ذراعها الملفوف بالأبيض، ورأسها المعصوب بالأبيض أيضاً. تونس مهدودة بالتعب، والجراح، والموت، وسوء الطالع.

العرب هم الذين اختاروا أن تكون جامعتهم فيها بعد زيارة أنور السادات إلى الكنيست الإسرائيلي، والفلسطينيون هم الذين اختاروا "أيضاً" أن يكون مقرَّ قيادتهم على أرضها. لقد أقحموا تونس في هذه

المسؤولية، وهي لم تتهيأ، أصلاً، للمفاجآت والمخاطر الناجمة عن مثل هذا الوجود "المشبوه!" تونس كانت تعدُّ نفسها لمهمة أخرى، وهي أن تظلّ خضراء جدّاً فحسب، لكنها في النهاية شربت "المقلب" إلى آخره. نعم، يا حبيبي، لقد قلت: المقلب! لأن العرب إنما اختاروا تونس ليُقصُوا عنهم قرف الجامعة العربية؛ ولأنهم حين سهّلوا انتقال قيادة المنظمة إلى "شط الحمام"، كانوا يريدون أن يُقتّل "بعض" أفرادها على بساط أخضر، مثل بساط تونس، فلقد ظلت لحومهم طوال السنوات الماضية تنتثر فوق الرمل والحجارة الصغيرة المدببة، وليس هناك من شيء أخضر.

ارفع ذراع تونس الملفوفة بالأبيض، وخذ رأسها المعصوب بالأبيض أيضاً بين يديك، إنها إلى هذه اللحظة لم تفق بَعْد من زلزلة القنابل، وأزير الـ"إف 16". نوعان من المرض يشغلان أذهاننا - يا حبيبي - الآن: الإيدز والـ"إف 16": مرض يأتي من فوق، وآخر ربما جاء من تحت، إننا محاصرون، محاصرون إلى حد الاختناق، والعرب يتعطلون عن التفكير

والتصرف؛ لأنهم يخافون الإيدز، الذي تنتقل عدواه بالشم، واللمس، والرفس أيضاً، "والجنس" هو أساس العمليات العقلية، كما يقول فرويد، هل فهمت؟

أعتقد بالمناسبة أن فرويد هذا لم يجر تجاربه في التحليل النفسي على نمساويين أو أوروبيين بصفة عامة، لكنه كان يجريها على بعض العرب الذين اخترقوا الستار الأوروبي في "هيئة" متسولين أو عمال نظافة، وكانوا يعشقون بآذانهم وعيونهم، وأجسادهم أحياناً. فليس لفرويد أن يصل إلى هذه النتيجة الفظيعة، دون أن يكون نموذجه عربيّاً قُحاً.

تصوَّر، يا حبيبي، حالتنا الآن! إننا لا نستطيع أن نرفع رؤوسنا إلى "فوق"، كما أننا لا نستطيع أن ننظر إلى "تحت"، إنها حالة تصلُّب تدعو إلى الدهشة، ولهذا فقد عبرت الطائرة المصرية "الفدائية" المطاردة بالـ إف 14، أو إف 50، لست أدري، ولم نجرؤ أن نسمح لها بالهبوط في تونس، أو أن نلحق بها في الهواء.. إننا نخاف الآن كل شيء يطير حتى العصافير والبعوض، إننا مهددون بالموت في كل

لحظة، فالموت إن لم يأتنا من "تحت"، فلا محالة في أنه سينصبُّ على رؤوسنا من "فوق"، يا له من زمان قبيح!

خذ ذراع تونس الملفوفة بالأبيض إلى حجرك، أحضنها قليلاً إلى صدرك، وأسأل نفسك هذا السؤال: هل كانت تونس هي الأولى في تلقي الفاجعة في العرب؟ وهل هي الدولة الوحيدة التي تخاف هذه الخيول المعدنية المحلِّقة، دائماً، في أجوائنا العربية؟ توقَّف قليلاً عن حَك مؤخرة رأسك بهذه الصورة التي تبعث على التقزز! إنني أعرف أن القمل ينتشر في كل أجزائك، فأفهم، إذاً، لماذا ذُبحت تونس، ولماذا اختطفت الطائرة المصرية بعد ذلك بقليل، وتأكد، منذ اليوم، أنهم يستطيعون أن يفعلوا بنا ما شاؤوا، وأنهم سيأخذون منّا ما أرادوا، وأنهم سيشغلوننا حتى عن تنقية جلودنا من هذا القمل، وقلوبنا من هذا الخوف، وعقولنا من التفكير في الـ "فوق". صحيح أننا لا نفكر كثيراً في الـ"فوق"؛ لانشغالنا الدائم بما هو "تحت"، ولكننا اعتدنا أن نبحث لأخطائنا وعيوبنا عن مسؤول،

فمن أين لنا بمثل هذا المسؤول الجاهز المتوثب؟ القمل. لقد نسينا السؤال الذي طرحناه قبل قليل! وجوابه هو: أن تونس ليست الأولى في تلقي الفاجعة (تصوّر هذا الكشف الذي قررناه في هذا الجواب!) إننا دائماً نختار الأسئلة السهلة، لوضع الإجابات الباردة والباهتة والتافهة، ولست المثقف الوحيد المسؤول عن هذا؛ بل إن المثقفين العرب جميعاً غير مسؤولين يا حبيبي، إن المسؤول الوحيد هو القمل. فلقد قرر في مؤتمره التسعين، أو المائة، أو الألف، أن الجلد العربي أنسب الجلود للعيش والنهش، رغم أن "الفن" الوحيد الذي نجيده على مدار التاريخ، هو "الاغتسال" بإسباغ، لست أدري ماذا يجد القمل في رؤوسنا وجلودنا، فالأوروبيون لا يغسلون شعورهم سوى مرة واحدة في الشهر، وهم ولا يستهلكون سوى قالبين من الصابون في الشهر أيضاً، لكن القمل لا يذهب إليهم، إنه حليفنا الدائم؛ ربما لأن القمل حالة فكرية وثقافية، فوق أنه ظاهرة اجتماعية متوترة. فالمثقفون قتلتهم التطلعات الفندقية، إن صح التعبير،

والمجتمع العربي مأخوذ بالنماذج الجاهزة في باريس ونيويورك وطوكيوا، ابتداءً من ربطات العنق الجلدية، وانتهاءً بآخر أسطوانة "هاوس ميوزيك" تشنّ وترن.

قف هنا قليلاً، لقد تعودنا أن نحمِّل الأنظمة السياسية مسؤولية الحرب، ولكننا لم نحاول أن نسأل أنفسنا قط: هل الحرب حالة عسكرية فقط؟ وهذا هو السؤال العميق الوحيد الذي سنندهش إن أجبنا عليه بأمانة! وما دام أن الإجابة ستكون مبكية، فلنتوقف عن اتهام الأنظمة وحدها، لنراجع هيكلية المجتمع العربي كله، وبنيته العقلية والنفسية. إن هذا المجتمع مهيأ للرقص، والهزّ، والفزّ، واللزّ، ولكنه غير مهيأ لاستيعاب حالة الحرب. الحرب شيء مفزع في هذا المجتمع المهلهل، الهش، والأنظمة وحدها لا تستطيع أن تحارب، مهما بلغ عدد جيوشها. الحرب - يا حبيبي- تعبئة عامة، واندفاع لكل الناس، عبر الجيوش. والمثقفون لا يستطيعون أن يبيدوا وحدهم جحافل القمل عن جلود الناس. وما دام القمل باقياً، ستبقى الهزيمة، لا، بل إن المثقفين هم المسؤولون عن

انتشار القمل بهذه الصورة المزعجة، نقول: إن القمل هو الذي جعل المثقفين ينتشرون بيننا بمثل هذا المستوى من الجَرَب و "الحكة". إمعن يدك في مؤخرة رأسك.. في وسط الرأس.. في مقدمته، إمعن "الحَكّ"، وإلاّ فإن القمل سيقضي عليك، أجلده بربطة العنق الجلدية، اضرب عليه من "فوق" بأسطوانة "الهاوس ميوزيك" التي أمامك، أجل! انقضّ عليه بكل جبروتك! ماذا تنتظر أمام الـ"إف – قمل"، ما دمت تمتلك ربطة العنق، والـ "إف - ديسكو".

ها أنت تضحك! وها أنا تعود إليَّ شهوة البكاء! إنني أشتهي أن تبكي أنت، لقد كنت نقيّاً وأنت تنوح. إنك تستثير في نفسي الشفقة والعطف وأنت تضحك. أدرك تماماً، أنك شعرت بالغثيان، حيث كنت أهتّف في أذنيك سيرة القَمْل. هي "هلوسة" ليست لها أي دلالة أو معنى، ولكن خذها كما هي، فماذا تريد أن أكتب لك؟ إنني أخاف مثلك، أخاف البعوض والذباب والقَمْل، وأخاف أيضاً هذه الخيول المعدنية التي تحجب عنّا الشمس، هذا هو زمان الخوف، فكيف تريد

أن تحارب الأنظمة أو الجيوش، ما دام الناس يشتغلون بـ"الآخر"، وبربطات العنق الجميلة، ويخافون!.

تعقَّل يا حبيبي، ودع جسدك يتشرّب الهزيمة حتى العظم! "انقعه" في مائها سبعة أيام، واذبح ديكاً أسود، وامزج دمه بذلك الماء، ثم اشرب، وانهل، واعتل. فهكذا تريد صديقتك أمريكا، وأمريكا قادرة على كل شيء، كما تعلم! لقد حوّلت جسدك الممتد من الخليج إلى المحيط "وسادة خالية" لها، فهي مرة تنام عليها، ومرة تضعها بين فخذيها، ومرة ترفسها، حتى ينقطع فيها النَّفَسْ.

تعقّل يا حبيبي، واشرب هزيمتك القراح، وتذكَّر أنني لست المسؤول، والأنظمة والناس والمثقفون ليسوا المسؤولين.

المسؤول هو القمل.. أجل! القمل! لعن الله القمل!

رسالة من قتيل الباخرة*

عزيزي سليمان خاطر،** المعروف حالياً بـ "المجنون".. مجنون القاهرة، أنا المدعو ليون كلينغهور.. "شهيد" الباخرة أخيلي لاورو.

أكتب لك رسالتي هذه هانئاً بمماتي "المجيد"،

---

* اختطفت الباخرة أخيلي لاورو من قبل أربعة أشخاص من جبهة التحرير الفلسطينية في 7 أكتوبر 1985م، وقتل على متنها المواطن الأمريكي اليهودي؟ ليون كلينغهور.

** سليمان محمد عبدالحميد خاطر، شاهد في طفولته (9 سنوات) قصف القوات الإسرائيلية لمدرسة بحر البقر الابتدائية (أبريل 1970م)، مما نتج عنه قتل 30 طفلاً، وعندما أصبح سليمان عسكريًا (الخدمة العسكرية) في أكتوبر 1985م بمنطقة رأس برقة جنوب سيناء، أطلق رصاصه الذي أصاب سبعة من الإسرائيليين في أكتوبر 1985م، ثم اتهم بالجنون، وحُكم عليه بالسجن 25 عامًا، ثم قيل: إنه انتحر "في ظروف غامضة"، وهو في السجن، كان في الجثة آثار "خنق" بسلك رفيع حول الرقبة!

الذي ما حلمت بمثله يوماً ما، لقد كانت أحلامي أقل من ذلك، بكثير، فهذه طائرات تختطف، وهذه أزمات دبلوماسية حادة تتوقد، وهذه حكومات عتيدة تسقط، وأخرى في طريقها للسقوط. كل ذلك من أجلي يا سليمان المجنون! وأنا لست بأكثر من "علج" أمريكي "لا فوقه ولا تحته"، يُسبغ على لحيته مساء كل يوم عدداً غير قليل من أقداح "البيرة" الأوروبية، لا سيما الهولندية منها، وبالذات الـ"هينيكن"، ذات الزجاجة الخضراء، والمعروفة برغوتها الغزيرة، أنا أموت في الـ"هينيكن"، الرغم من ارتفاع ثمنها. ربما أنك لم تذقها قط، رغم "الانفتاح" في مصر، جرّبها يا عزيزي سليمان مرة واحدة بعد خروجك من الجنون أو السجن. جرّبها مرة واحدة، ثم استغفر الله كثيراً بعد ذلك، فنحن نعرف أنها محرمة في دينكم، ولكننا نعرف أيضاً أن أكثركم يرتكب المنكرات، ثم يريح ضميره بعد ذلك بالاستغفار.

آخ! يا عزيزي سليمان!

إنهـا تجربـة فريـدة ومثيـرة.. أعنـي المـوت بطريقتـي، وإن أردت الحـق، فأنـا لـم أعـد أذكـر هـل كنت فعلاً أحد ركاب الباخرة " أخيلي لاورو" أم أن أحداً اقتادني إلى الشاطئ وقتلني، ثم أغرقني في الماء. وإن أردت الحق كذلك، فأنا لا أعلم لماذا قذفت بي الأمواج إلى ساحل عربي قرب طرطوس، ولماذا طرطوس هذه بالذات؟ وبقدر ما شعرت بالخوف الشديد، وأنا أسمع قرع أحذية الجنود العرب حول جثتي الهامدة على الشاطئ، إلاّ أنني أحسست بسعادة بالغة لهذه الخطوة الجديدة في مسيرتي نحو "المجد"، فبمجرد أن يكون الذين اكتشفوني بعد مماتي عرباً، فإن هذا يعطي قصتي أو قضيتي بُعداً تاريخيّاً لامعاً، ألستم تقولون: إن العرب قد اكتشفوا أمريكا قبل كولومبوس؟ ها أنتم اليوم تكتشفون فقيد "الأمة" الأمريكية أيضاً بعد وفاته! قبل أي أحد آخر، وإذا كنتم قد اكتشفتم "جثتي"

على هذا الشاطئ العربي الجميل، فلقد اكتشفت أنا ما هو أهم من ذلك، لقد اكتشفت هذا الحزن الدافئ "الشاعري!" العميق، الذي يغرق وجوه جنودكم يا سليمان! إن وجوههم شاحبة، ناقعة، على الرغم من الكتل الشحمية المتهدلة من كل نواحي الجسد، ولاسيما من الأمام والخلف، لماذا كل هذه الشحوم يا عزيزي سليمان، هل هي "البيرة" الـ"هينيكن"، وكثرة الاستغفار، أم هي قلة التمارين، وعناية الزوجات العربيات بالطبخ؟ لقد أكدت لي تلك الكروش الغليظة، أن الدعاية الصهيونية على غير حق، فأنتم بالفعل أهل السلم والسلام، كما أكّدت لي، وهذا مهم، أن من حقِّ نسائكم أن يشتهرن في كل بقاع الأرض بإجادة الطبخ، وبمعرفتهن لمقادير "البهارات" اللازمة التي تساعد دائماً على تسخين العواطف والجسد. كم كنت أتمنى أن أتزوج من عربية يا سليمان!، ليس للإنجاب منها، فسأكافح ذلك ما استطعت، مع توقعاتي الشديدة بالفشل، ولكنني

أريد تأكيد مسألة "التسخين" هذه، وكما يقول شاعركم: "وأحبها وتحبني، ويحب ناقتها بعيري". هل تستطيع أن تتصور أمريكيا مع بعير؟! لقد أضحت "البعررة!" لازمة عربية تاريخية وحضارية، بحيث يصعب تصورها مع أي جنس بشري آخر غيركم، انظر إلى وجهك في المرآة يا سليمان! ألا ترى أنك تشبه البعير؟ بلى يا عزيزي! بلى! دع عنك المكابرة، واعترف بأنك بعير! وأن الجنون الذي انتابك في سيناء، هو من "أحقاد" هذا الصنف من الحيوانات، وأنت أول عربي يجرؤ على قتل سبعة إسرائيليين دفعة واحدة! ولك أن تتخيَّل كيف سيكون الرد الإسرائيلي الأمريكي على فعلتك المجنونة، وتذكَّر أنه في مقابل ثلاثة قتلى إسرائيليين فقط في لارنكا، كانوا قد "قتلوا" منكم ستين أو أكثر من ستين، وقد استبيحت دولة كاملة هي تونس، وتذكّر أيضاً أنه من أجل أمريكي واحد فقط، هو أنا، غادر رولاند ريغان فراش نانسي، وأقسم ألا يطأ

المسكينة، ولا يقبلها، ولا يضمها، ولا يراقصها، وأن يسهر بدونها خارج المنزل، وألا يغتسل، ولا يبدل ثيابه، حتى يأخذ بالثأر، فاختطفنا طائرتكم، وخرقنا ذمتكم، وهتكنا حرمتكم، وأهنّا كرامتكم، ودخلنا إلى إيطاليا، وعبثنا بها وبأمنها، وتحدينا سيادتها وأسقطنا حكومتها، وسنقتل الفلسطينيين الأربعة الذين لم أعد أتذكر سحناتهم ووجوهم الآن، وكل ذلك من أجل أمريكي واحد يا سليمان! هو أنا. قل لأصحابك أن يتجنبوا مثل هذه الأفعال "المشينة"، ولك أن تحثّهم على العناية بكروشهم ونسائهم، فذلك أفضل لهم، وأدعى لسلامتهم، ألم تستمع إلى تصريحات وزير الحرب الإسرائيلي الأخيرة؟ لقد قال بأن إسرائيل ستواصل عدوانها ضد الفلسطينيين بكافة الوسائل والإمكانات التي تمتلكها في أي مكان، ولاحظ أنت قوله: "في أي مكان"! ثم تحسس رأسك الفسيحة، وتصوّر أين ستكون الضربة الإسرائيلية القادمة؟

عزيزي سليمان..

حين اكتشفني جنود العرب قرب طرطوس، انتابني خوف شديد، وشعرت بألم مبرح، فلقد حسبت أنهم سيحبسون عني باقي "المجد"، وحسبت أن جثتي ستذهب "فطيس"، فربما أخفوها وحرموني من مواصلة الرحلة المثيرة، كما يكونون بذلك، قد حرموا المصورين ووكالات الأنباء والتليفزيون من دقائق مُستفزَّة، تكهرب الأربعمائة مليون أمريكي في الولايات المتحدة وخارجها، أجل! الأمريكيون يتكهربون لرؤية موتاهم، وذلك على خلاف ما عرفت مؤخراً عنكم، إذْ لا فرق عندكم، كما قيل لي، أن تقتل بقرة، أو ضفدعاً، أو بعوضة، أو إنساناً.

لقد خفت يا سليمان أن يخفي الجنود العرب جثتي؛ لأن الحرب شاملة، وهم لن يقدموني للمحاكم الإيطالية التي تبحث عن أدوات أساسية للمضي في محاكمة الفلسطينيين "العرب" الأربعة، الذين

اختطفناهم واحتجزتهم السلطات الإيطالية. لقد كانت التهم الموجهة لهؤلاء معلنة وواضحة، وهي القتل العمد مع سبق الإصرار، وخطف السفينة، وحيازة الأسلحة والمتفجرات، وإن الإعلان عن العثور على جثتي، وتسليمي للسلطات الإيطالية يعني إحكام الخناق أكثر وأكثر حول أعناق "المتهمين"، لكن كل تخوفاتي "الشريرة" تبددت في لحظة، إذْ جاء فريق من أطبائكم المهرة المخلصين المحبين للسلام والإنسانية، ومعهم طبيب من إحدى السفارات الأمريكية، وعضو من مكتب التحقيقات الفيدراليه الأمريكيه، ثم أعلنوا للملأ أن الجثة المتعفنة الآن هي جثتي، وكانت وسيلتهم للتعرف إلى الجثة بصمات الأصابع، وأسناني، أجل أسناني التي صمدت سنين طويلة أمام السجائر، ولفافات الحشيش، وزجاجات البيرة الهينيكن.

لقد فرحت بهذه النتيجة يا سليمان، فأنا مازلت أسير على طريق "المجد" والشهرة، وكان بإمكان

جنودكم أن يسدلوا الستار على بقية المسرحية، وينتهي بالنسبة لي كل شيء، لكنني أكبرت فيهم هذا الوفاء للصداقة.. التي "تضم" الشعبين الأمريكي والعربي، كما أكبرت فيهم النزاهة والصدق والشرف، حتى وإن كانت الإدانة ستركب ظهر عربي آخر، وأصدقك القول: إنه في مثل هذه التصفيات السياسية، تكاد تكون حادثتي استثناءً، لا سيما في بعض دولكم العربية العظيمة، فكم من الجثث تدفن في غيهب الليل، وكم من الشرفاء يقتلون، ولا يعلم بهم أحد، حتى أهلهم وذووهم، ولكن يبدو أن تعاملكم مع الغريب يختلف، فأنتم معروفون بحماية الجار، وإغاثة الملهوف، حتى لو كان ميتاً أو قتيلاً، لقد تبدّلت نظرتي إليكم، يا سيلمان! فالمؤسسات الصهيونية تظهركم على غير حقيقتكم.

لكن بقدر ما كنت فرحاً بما يحدث لي، أعترف لك بأنني كنت شديد الحزن، لما يمكن أن يحدث للفلسطينيين الأربعة الذين ينتظرون مصيرهم الأسود

في روما، فقد يزيد في تعقيد أمورهم وصول جثتي، ومعها التقرير "الأنيق" الذي كتبه الأمريكيون، ووقّعه العرب. والغريب أنني ترددت أكثر من مرّة في مثل هذا الشعور، فلقد كنت ألمح أن كل من حولي، ولاسيما العرب، كانوا فرحين ومستبشرين بما يفعلون، لقد أحضروا لي صندوقاً مرصعاً بالصدف الأبيض، من أغلى الأثمان، ثم وضعوني فيه بحنان بالغ، ورحمة متناهية، ثم لفوا الصندوق بالعلم الأمريكي الشريف، وهم يصفقون، ويرقصون، ويغنون، ويرددون الأناشيد الوطنية والقومية. لقد كانت لحظات خائفة، اختلطت فيها عواطف الفرح بالحزن، واختلطت فيها الحماسة بالإكبار لأمريكا، وللشعوب العربية المجيدة، لحظتها فقط تأكدت أن ما تكتبه الصحافة، هو غير ما تضمره الأنظمة، وينفذه العسكر، فأمريكا تظل الحبيب الأريب القريب، رغم ما يظنه الحاقدون، والموتورون، والأنذال، والسفلة. لقد كان الوقوف أمام جثتي العظيمة

مناسبة لاضطرام العواطف وجيشانها في العيون والأصابع والكروش. كروش العرب يا سليمان، فالأمريكيون ليست لهم كروش. وتستمر "الهيصة"، وتأتي طائرة خاصة لنقلي إلى روما، تصوّر!! طائرة خاصة لي أنا الذي قضيت حياتي راكباً احتياطيّاً في الدرجة السياحية، أو مقيماً قابعاً تعيساً بائساً في ممرات القطار. وفي تلك الطائرة، وعلى أصوات الهتاف والمزامير، أخذتني، وأنا أرقد في الصندوق الأنيق، نشوة غريبة، فصحت في المرافقين: أريد "بيرة" واشترطت أن تكون "هينيكن" هولندية! واشترطت أيضاً أن تكون رغوتها طافحة، فلا مناص من أن أشرب "نخب" هذه "الحفلة"، ولا بد أن يشرب معي المرافقون أنفسهم، ومن هم المرافقون يا عزيزي؟ إنهم: سفير أمريكي وجنود عرب، أجل، جنود من العرب يتولون حراستي إلى روما، عاصمة الجمال والنوافير، لعلهم كانوا يريدون أن يطمئنوا على وصولي إلى أيدٍ أمينة هناك، كي أصل إلى

المحكمة، فهم، كما يبدو، حريصون كل الحرص على وصولي إلى المحكمة، لتأخذ العدالة طريقها، وليأخذ الحق مجراه. وما وجه الغرابة في ذلك؟ فلقد عُرف العرب بأنهم أهل حق وعدل، يأمرهم بذلك دينهم، وتحثهم عليه شيمهم. ولو سُرقتُ أو قُذفتُ من الطائرة، فعلى أي صورة ستأتي المحاكمة؟ وكيف سيتسنى للعرب أن يُنصفوا أمريكا "الصديقة" من أنفسهم؟ لا يهمك السفير الأمريكي الذي كان معنا في الطائرة، فبعض الهدايا تجعله يختلق "سيناريو" مكتملاً للتخلص مني! حيث إن الأمريكيين يحبون "الرشوة"، بخلافكم أنتم العرب، الذين تخلون بلدانكم تماماً.. تماماً.. من أي ملمح للفساد، أو الرشوة، أو الاختلاس، أو السرقة، أو الابتزاز.

وفعلاً، يا سليمان، طلبت البيرة الهينيكن.. في الطائرة.. واحضروها لي إلى الصندوق، ثم استحلفتهم بالله أن يشربوا معي، ففعلوا جميعاً إلاّ واحداً من الجنود العرب، أبى واستكبر، وعبس

وبصر، وقال: إن هذا حرام! ولن أُلطخ فؤادي وضميري بالحرام! لكني سمعت أحد رفاقه يقوله له بعد قليل: اشرب يا رفيقي وحبيبي، فلقد شربنا كلنا، وليس معنا هنا إلا أمريكيون، والأمريكيون "ما عنهم غَطوة!"، ثم إننا الآن قد ابتعدنا عن الحدود العربية، فنحن نوشك أن نصل إلى روما. وفعلاً نجح الرفيق في اقناع رفيقه، فشرب حتى سقط، ونام، ثم سمعته يهذي وهو نائم بهذه العبارات: "ضربوا تونس، اختطفوا الطائرة المصرية، لن يدعى عرفات إلى الأمم المتحدة، لقد ألغت بريطانيا لقاءها بالوفد المشترك، سيُقتل الفلسطينيون الأربعة"، وحقيقة لم أفهم شيئاً مما كان يقوله!.. لكنه كان يهتز وينتفض، وهو مغمض العينين، لقد كان يضحك في جنون، يبدو أن هذا هو موسمكم جميعاً للجنون يا سليمان!

آخ!.. لقد خار مني، للحظات، شيء من اليقين، في أنك "المجنون" الوحيد يا عزيزي! رغم أن

جنونك -أنت- استثنائي و"إرهابي" وغير مرغوب فيه من القوى المحبة للسلام والحرية.

وقبل أن أختم رسالتي هذه إليك، أود أن أنقل لك ما سمعت من راديو الطائرة: لقد أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية، أن واشنطن ستفعل كل ما في وسعها لخطف "أبو العباس"، وتقديمه إلى المحاكمة.

تعيش أمريكا..

يعيش الأصدقاء العرب..

تعيش البيرة الهينيكن.

المخلص أبداً

"شهيد" الباخرة

ليون كلينغهور

الردّ من "مجنون القاهرة" *

عزيـزي الصـديق الميّـت ليـون كلينغهـور، أو "شهيد" الباخرة!

لقـد سـاءني فـي رسـالتك إلـيَّ أنـك تجهـل أشـياء كثيـرة عـن مصـر الحديثـة، وعـن نتـائج "الانفتـاح" والتطبيـع، فلقـد تظـن سـعادتكم أننـا لـم نعـرف بعـد، البيرة الأوروبية، ولاسيما الهينيكن، وأود أن أنقل إلى علمكـم، مـن بـاب التطمـين وإراحـة البـال، أن شـوارع القـاهرة ومتنزهاتهـا، تشـهد الآن مـا هـو أعظـم، إذْ إن "أصدقاءنا" الآخرين، ونعني الإسرائيليين، قـد حملـوا

* ردّ سليمان محمد عبدالحفيظ خاطر.

إلى الناس هنا، وهم يسوحون حول الأهرامات، مساحيق بيضاء، وأحياناً وردية، يقولون: إن فيها خير علاج للجوع، والعطش، والكوابيس، والخوف، والتشرد، والقهر، والقلق السياسي والاجتماعي، والتفكك الأسري، كما أن هذه المساحيق تلهب المشاعر، وتساعد على الإنجاب، وقد أقبل عليها شبابنا بروح منفتحة، وعقلية مستنيرة متحررة، وقد كان لها –ولله الحمد- أثرها الفعال في علاج الأمراض السابقة الذكر، وقيل: إنها، بالإضافة إلى ذلك، تسهم في زيادة الإخصاب، وتعالج العجز الجنسي، ولقد سمعت أن هناك ندوات تعقد، ومؤتمرات تُنظم، يقودها بعض المفكرين "الرجعيين"، وتُشجّع عليها الأجهزة "القمعية" في البلاد، والهدف منها أيها الصديق، هو محاربة تلك المساحيق السحرية العجيبة، وحرمان الشباب منها، بدعوى أنها "مخدرات". وما دُمت قد تحدثت في رسالتك عن "الإرهاب.." فإنني أود أن أعترف لك هنا بأن شباب مصر يعيش هذه

الأيـام أشـرس درجـات الإرهـاب، وإلا فمـا معنـى أن تتدخل الشرطة والمباحث في تصرفاته الفردية، وهو يتعاطى بعض "الأدوية" الناجعة التي نجحت، فعلاً وتخصيصاً، فـي تبديـد مخاوفـه السياسـية وقلقـه الاجتماعي. إن على هذه الشرطة يا سيدي أن تختار: فإما أن يتدخل الشباب في السياسة، وإما أن يُعطى قـدراً كافيـاً مـن الحريـة الشخصـية لتعـاطي تلـك المسـاحيق، وأهمهـا وأشـهرها الكوكـائين، وهـذا نـوع واحد من الأنواع التي يحملها إلينا معهم الأصدقاء من السواح الإسرائيليين، كما ذكرت سابقاً. وبيني وبينك، فإن من الحكمة ومن المصلحة "العليا"، ألا يتدخل الشباب في السياسة؛ لأن هؤلاء "المتهورين" مـازالوا يلعنـون السـادات، ويترحّمـون علـى أحمـد عرابي، وسعد زغلول، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده. وأنا أعرف أن أثر هؤلاء الأخيرين على البذور الخيرة "للسلام"، الذي فرضتموه علينا في "كامب ديفيد"، أكثر خطورة من أثر الكوكائين على شبابنا،

وأصدقاؤنا يقولون: إن "تستنشق" من حين لحين قدراً متواضعاً من هذا المسحوق العجيب، خير لك من أن تحشو جمجمتك الصغيرة بالقيم الثورية المفرغة من محتوياتها الموضوعية. وأنا شخصياً أعتقد أنهم على حق، فماذا تعني "الحرية"؟ وماذا تعني "السيادة الوطنية"؟ وماذا يعني "الاستقلال"؟ إنني أعتقد أن هذه المفهومات تحتاج إلى بعض المراجعة، وتحتاج إلى قليل من التأمل والتفكير، فهل يعتقد عاقل اليوم، أن تلك المفهومات مازالت تحتفظ بمدلولاتها البعيدة؟ أو أنها على أي شيء من مدلولاتها التاريخية والمجتمعية والحضارية؟ بل هل تظن، أنت، أنها مازالت تحتفظ بكامل شرعيتها؟ وهل ساورك اليقين للحظة واحدة بأنها ما تفتأ تُبقي على تأثيرها أو فعلها السحري في عقول الناس؟ إنني من جهتي، أعتقد أنها لم تعد كذلك، وتاريخنا الإنساني الحديث حافل بما يدعم هذا الزعم مني، وأمريكا "الصديقة" نفسها تعلم هذا حق العلم، مع أنها

مازالت بكل الوقاحة، وعفواً لبذاءة التعبير، تجهد نفسها في المناداة بالقيم الأمريكية، والدفاع عن "حقوق الإنسان"، وتصرّ على زعامة العالم الحر. ومع ذلك، لم تتردد لحظة واحدة في إرسال آلاف الجنود الأمريكيين، المدججين بالرصاص والبارود إلى فيتنام، انطلاقاً من أخلاقيات تلك الزعامة، كما أنها تدخّلت وتتدخل بدباباتها وطائراتها في شؤون دول أمريكا اللاتينية، عملاً بفحوى ذلك الدور، وتحقيقاً لأهدافه السامية الجميلة!، ثم إنها تتواطأ مع إسرائيل على قتل العرب، والتنكيل بهم، وتشريدهم، ومطاردتهم؛ استجابة لتلك المسؤولية، واتساقاً مع غاياتها النبيلة!!. وإن أردت الصدق، يا عزيزي "ليون"، فإن وجه أمريكا لا يزداد إلاّ "نقاءً" في عيون العرب، ودعك من الأحداث الأخيرة في تونس، ومصر، وإيطاليا، فإن تاريخ أمريكا الحديث، في غير هذا، حافل بالمكرمات، وهو يزهو دائماً بتأكيد صداقتها العميقة لشعوبنا المنكوبة في كل شيء. إن أمريكا

لا تحب "الإرهاب"، وتحاربه، وتطارد أهله، وتدافع عن حريات الشعوب، وتناضل من أجل استرجاع حقوقها المسلوبة. واستمع إلى هذه الحكاية، من تاريخنا القريب، في مكافحة أمريكا للإرهاب الموجه ضد العرب: تذكّر يا صديقي أن السفير الأريب فليب حبيب، قد أعطى للثائر المزعج ياسر عرفات تأكيدات بأن الفلسطينيين الذين سيبقون في لبنان، بعد تهجير قادة المنظمة "وأعوانهم" وعملائهم إلى تونس، سيكونون آمنين مطمئنين، وليسوا في حاجة لحماية "جنود" المنظمة، وفليب العجيب أعطى تلك التأكيدات لياسر عرفات باسم الولايات المتحدة، وليس باسم موزمبيق. ولكن ماذا حدث بعد ذلك ياليون؟ لاشيء أكثر من أنه انطلاقاً من مبدأ "الحرية"، فقد أعطي وحوش الكتائب حريتهم، في غمرة الليل وخدرة الضمير، وسمح لهم بالتجول السريع في صبرا وشاتيلا، فكانت المذبحة المشهودة التي سيظل شبحها الكئيب يطارد أمريكا في جميع مراحل تاريخها

المقبل. وخذ، يا عزيزي، هذه الحكاية أيضاً، لقد رأت الحكمة الريغانية أن تبعث وحدات أمريكية، بوصفها جزءاً من القوة المتعددة الجنسيات؛ للمحافظة على السلام (لاحظ المحافظة على السلام)، ثم رأت الحكمة الريغانية فيما بعد، أن تكون أمريكا طرفاً نشيطاً في حرب لبنان، وشيئاً فشيئاً أخذ جنود البحرية الأمريكية يزدادون شراسة وشهوة للقتل، فانخرطوا في القتال إلى الذقن، أو إلى ما فوق الذقن بقليل. وبعد ذلك، شهدنا ما كانت تقوم به السفينة الحربية الكبرى "نيوجرسي" من نشاط "حربي" ضد المواطنين والعُزّل في ضواحي بيروت. وقد أظهرت تلك المناوشات القدرة القتالية الفائقة للجندي الأمريكي، كما أكدت لشعوبنا "المتخلفة"، أن أمريكا هي سيدة العالم الأولى في كل شيء، حتى في الموت! وفي حين كان يتساقط الرصاص الأمريكي على رؤوس العرب في ضواحي بيروت، كان "الحليف" الإسرائيلي يقتل الناس بمجرد الاشتباه، وكان يهدد باستخدام "القبضة

الحديدية"، ويتبنى سياسة "الأرض المحروقة"، وأمريكا "الصديقة" تستمع إلى كل ذلك في نشوة وطرب، مع علمها بأن مثل هذه العبارات تقترن بالنازيين الذين لا تحبونهم. إن أمريكا، التي تطارد الإرهاب في كل مكان من أنحاء العالم، كانت تعلم أنه منذ بداية اتباع إسرائيل لسياسة "القبضة الحديدية"، كانت قد قتلت في خمسة أسابيع فقط 73 لبنانيّاً، ولمجرد "الاشتباه" في أن لهم نشاطات "إرهابية". فماذا فعلت أمريكا من أجل هؤلاء، وهي التي مازالت تُحرقُ كل شيء من أجل مقتلك المشبوه؟ وإن أمريكا التي تتزعم العالم الحر، وتنادي بحقوق الإنسان، إضافة إلى تورطها في قتل العرب، وتحالفها مع إسرائيل لتنفيذ هذه المهمة، كانت تعلم أن الجيش الإسرائيلي عندما تقهقر في الجنوب، احتجز عمليّاً أكثر من ألف ومائة من اللبنانيين رهائن، بناءً على أضعف الأدلة، أو حتى من دون أدلة، ثم أودعهم السجن في لبنان نفسها، ثم بعد ذلك أخذهم إلى

إسرائيل (مع أن أمريكا تعرف أن ذلك يعدُّ خرقاً سافراً لميثاق جنيف الرابع لعام 1949م)، فماذا عملت أمريكا لهؤلاء أيضاً، وهي التي تقيم الدنيا ولا تقعدها من أجل الباخرة " أخيلي لاورو" اليوم؟ أم أنه قد بات لديها اعتقاد راسخ بأن "أصدقاءها" العرب جميعاً إرهابيون، يجب أن يقتّلوا كلهم، وأن يسحلوا كلهم، وأن يدخلوا إلى السجون جميعهم. ماذا تُسمِّي أمريكا هذه التصرفات الإسرائيلية؟ وكيف يفهم شعبكم هناك تصرفاتكم مع العرب؟ هل تعتقد أنها كانت مفاجأة أن تقتحم مقركم قرب مطار بيروت (في تشرين 1983م) سيارة شحن مليئة بالمتفجرات، وأن يقتل في هذه الحادثة 265 أمريكيّاً؟ هل تعتقد أنه كان مفاجأة أن نشهد ذلك السخط على أمريكا الذي تَبَدَّى في مثل معضلة رحلة الـ"تي. دبليو. أيه" رقم 847 ، والتي استمرت أسبوعين؟

إن ما سقته في السطور السابقة من معلومات مخيفة عن التصرفات الأمريكية، لا ينسجم مع ما كان

يـرد علـى لسـان أحـد السياسـيين الأمـريكيين، وهـو يحاضر عن تورط علاقاتكم معنا. لقد كان يحذر ذلك السياسي من المخاطر الكامنة في ردة الفعل التي تتسم بها علاقات أمريكا مع إسرائيل، فعلى الولايات المتحدة أن تُقدّم تأييداً لكل مبادرة من المبادرات التي يمكن أن تقـدم عليهـا أي حكومـة إسـرائيلية، وكـان هـذا السياسي الأمريكي يرى، وهو يتحدث عن "المعاملة غيـر الحساسـة، التـي عامـل بهـا الجـيش الإسـرائيلي سكان لبنان"، أن الأمر الذي لم يتنبأ به أحد، هو أن ارتباط أمريكا القوي بإسرائيل، "قد يكون السبب في إيجاد ما يقرب من كارثة بالنسبة إلى أمريكا أيضاً".

أجل، أيها "الصديق" الظريف! إن الكارثة تُهدّد المصـــالح الأمريكيـــة برمتهـــا، لقـــد ذبحتمونـــا، "وهرشتمونا"، وفرّقتمونا، ومصصتم دماءنا، وفرضتم علينـا، فـي مصـر، سـلاماً ناقصـاً لا نبغيـه، وهـا أنـتم تريـدون أن تفرضـوه فـي أمـاكن أخـرى. لقـد لطخـتم بالعار شعوبنا، وأحرجتم أنظمتنا، وقهرتم شبابنا. لقد

وضعتم أنفسكم شريكاً لعدوّنا في طروحاته العدوانية، وطموحاته التوسعية. إنكم ترفضون المنظمة (منظمة التحرير)؛ لأنه يرفضها، وهو يرفضها؛ لأنه يعلم أنها الطريق الوحيد إلى السلام، وهو لا يريد السلام. لقد تكفلتم عنه، كما يبدو، بمطاردة القادة الفلسطينيين، وأنتم تعلمون أنهم "اختيار" الشعب الفلسطيني، وأنهم ينعمون بمباركة الدول العربية جمعاء، فلا احترمتم إرادة الشعب الفلسطيني المقهور، ولا قدّرتم "مباركة" الأنظمة العربية الشرعية، التي تزعمون صداقتها، فأين احترام إرادة الشعوب؟ وأين متطلبات الصداقة الحقيقية؟ إن تأكيد "إرهابية" المنظمة، يعني التشكيك في شرف شعب كامل؛ لأنه هو الذي اختار المنظمة، ووقف وراءها. كما يعني كذلك التشكيك في نزاهة أكثر من عشرين دولة "صديقة"، هي الدول العربية؛ لأنها هي التي باركت المنظمة، واعترفت بها ممثلاً شرعيّاً وحيداً للفلسطينيين. ولعل هذا يعني، في النتيجة، أن "الكل" إرهابيون: الذين اختاروا (إذْ

اختـاروا إرهـابيين)، والـذين سـاندوا وعاضـدوا (إذْ إنهم، يساندون ويعاضدون إرهابيين)، فماذا تبقَّى لنا معكم بعد؟!

أيها الأمريكي الظريف! تفكَّر قليلاً في الانتفاضات التي تجري، من وقت لآخر، في شوارع القاهرة.. تفكَّر فيها مليّاً.. ودعني أصمت الآن؛ لأنني سأقول كلاماً كثيراً لن يرضي أحداً..

المعرِّف: سليمان خاطر أو "مجنون" القاهرة
(كما يحلو للشرطة المصرية)

الزحمة

دخل في الزحمة!.. يدفع الناس!..

كانوا كثيرين... كثيرين جداً.. وكانوا كلهم يهتزون.. ينتفضون.. فهم، فيما يبدو، في أعنف سكرات الحمى.. أو أنهم يلاحقون إيقاع إحدى معزوفات الـ"تام.. تام".. الأفريقية!.. أو وصلة مملّة من موسيقى الـ"تكتو" المزعجة!

قالوا له، بعد أن أخذوا بأطراف قميصه الأزرق ذي الخطوط الطويلة البيضاء:

على هونك يا أنت!.. الدنيا ما برحت بخير!.. والشمس مازالت تطلع من المشرق!..

لم يجب بل "نفض!" بأطراف أصابعه، أيديهم التي تمنعه من السير.. ومضى يفرز بذراعيه الناحلتين

أكتاف المحتشدين المكتظين المشبعين بالزهو.. مضى حتى بلغ قلب "الزحمة" ومهجتها!.. وهناك وقف!..

وقف حتى اكتنزت مناخيره برائحة الممر الأسود، الذي كان يندى غروراً بتدفق الرغبات والأحلام الراعفة!..

ليس من المهم أن نعرف الآن اسمه، أو أصله وفصله، إنه هو الذي رفض أن يعلن لكم ذلك، فقد قرَّر أن يدخل هذه القصة أو "الحدوتة"، ويخرج منها "متخفيّاً"، مجهولاً وغير معروف، يريد أن يمرّ بكم كحلم غامض، لا تكتمل إفاقتكم، إلاّ وقد نسيتم معظم أحداث قصته!

قال ورائحة الممر الأسود تستقر في كل مسام الجسد: أريد ناساً!.. أريد أن تعركني هذه الأجساد، حتى تتفتت كل الشياطين التي تسكن تحت جلدي، كأنه يسمعهم يصيحون في وجهه بصوت واحد

- .. أريد.. زحمة!..

أجابوه:

- يلعنك الله!..

- أريد أن أقتحم عيون كل الواقفين هنا.. أريد أن أخترقها، حتى تسيل!.. تسيل دماً.. أو رغبة، أو حبّاً

كأنه مازال يسمعهم يرددون: يلعنك الله!..

قال: خذوا قميصي هذا، وانشروه على رأس أعلى بناية في مدينتكم! وسأقطع لكم يدي أن لم تطف على نهر الراين كل الأسماك الصغيرة التي تبلغ للتوّ سن الرشد.. (هو الآن في فرانكفورت بألمانيا) ستجيء جماعات لتموت على الشاطئ!.. كلها ستموت؛ لأن أبالسة رغبتي ستنبعث عليها كالشهب.. في الشرق تعلمت كل شيء، إلا مسألة أن "أموت في اللهب، كما تموت الفراشة"!..

هل مازالوا يصيحون في وجهه للمرة الثالثة:

- يعلنك الله!..

قال:

- أتدرون من كنت أتمنى أن أقابل هذه الليلة؟.. كنت أتمنى أن أقابل "غوته" ابن مدينتكم الشرعي.. أنتم لا تعرفون عنه أكثر من أنه كاتب، وشاعر،

وفيلسوف.. وأنه سيطر على عقولكم ووجدانكم أكثر من نصف قرن، وأن نابليون قال عنه: "هذا هو الرجل!" أنتم لا تدرون أنه كان حجراً في حلق السكينة في هذه المدينة (فرانكفورت)، كان سهماً لا يهوي!. هل تعرفون الفاتنة "أنيت"، لقد ماتت وهي تخفي تحت فساتينها آثار أنياب "غوته".. هل تعرفون "ماري"، ابنة أستاذه في الموسيقى؟ لقد انتشلها غوته من تحت يد هذا الأب وهو يصيح!.. وكتب من أجلها مسرحيته الشهيرة: "نزوة العاشق".. هل تعرفون "فريدريك"! هي الأخرى طعنها غوته في قلبها، حتى بلغ دمها أعماق الأرض!.. ولكنه كتب لها أحلى أشعاره.. وهذا عوض يكفيها ما ظل ذكرها، وذكر غوته شغلاً لألسنة الناس!.. هذا العاشق اللعين - أعني غوته - كنت أتمنى أن أقابله الليلة ليفهمني!.. هيه!.. ربما صفعني غوته!.. وربما أشار عليكم بأن تطرودني من هنا!..

ثم أرخى رأسه نحو الأرض.. وهو يتابع بصوت مكسور.. مثقل بالشجن والحمى:

- أنا أعرف أن "الكبار" لا يتقبلون أحياناً حماقات الصغار برحابة صدر!.. غوته كان إنساناً يأكل، ويشرب، ويهذي مثلي ومثلكم.. ولكنه كان يعشق، ويبيع، ويشتري في سوق الهوى، وهو لايتوقف عن زرع الحسرات في نفوس الكثيرين والكثيرات.

أخذوه نهباً بين أكتافهم في قلب "الزحمة".. في حي الزحمة الذي يسمونه "سكسنهاوزن".. لم تكن فرانكفورت، ليلتها مجرد مركز للقاء أهل المال والتجارة من شتى أنحاء الأرض.. يجيئون هنا.. للتفاهم.. للتبادل.. لتحقيق الصفقات والعقود خلال العام.. فرانكفورت ليلتها كانت ثوباً أفريقيّاً فيه ألوان كثيرة.. وزخارف كثيرة.. ومشكلات كثيرة أيضاً!!

كل شيء في "سكسنهاوزن" كان يغني!.. والطاولات الخشبية السمراء العريضة، كانت تترع بأيدي الناس في طول مقاهي الحي وعرضها، إنها هي الأخرى كانت تشب!.. كانت تتأفف من العرق، ومن بقايا سجائر الزبائن.. وعطاسهم.. ولكنها، وهذا هو

المهم، كانت تخفي تحتها بعض المفاهمات الخجولة التي تتم بالأقدام أو عبرها.. أجل! فأقدامهم تحت هذه الطاولات العريضة، كانت هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يتخذ دليلاً على وجود بقية متواضعة من الحياء "والحشمة".

مدَّ رجله، هو أيضاً، يريد أن يفعل كما يفعلون!.. يريد أن يتحدّث بقدمه!.. أخذت قدمه النحيلة المدفونة في حذاء بنية طويلة العنق، تشرع في "تفاهم" حالم مسهب مع قدم أخرى!.. كانت بالتأكيد قدم امرأة! رفعت رأسها صاحبة القدم تسأله:

- من أين أنت؟!

قال بنزق:

- من الشيطان!

هزت كتفيها، كما يفعل كل البنات المسكونات بعفاريت الرغبة، ثم قالت:

- وهذا الذي سميته، هل هو أحد أصدقائك؟!..

دون أن يجيب، أخذ كأسها الذي كان يرشح بذرات وكرات صغيرة باردة، ثم أرخى يده تحت

الطاولة يسفح ما بداخله على الأرض.. أعاد الكأس فارغاً يدفعه نحوها بقوة. وقبل أن تتلقفه بيدها، كان قد توزّع على الأرض قطعاً صغيرة، ذهبت في كل اتجاه!..

وعلى الرغم من غلبة الحناجر .. وجلبة الخناجر.. في هذا المقهى، إلا أن الزبائن كلهم التفتوا نحو مصدر صوت انتحار الكأس! هل كان يضحك منه كل الموجودين هنا؟.. لايهم.. فهو يرفضهم دون استثناء!..

لوى سترته الصوفية (إشارب) حول عنقه ثم نهض!.. فأخذته من ذراعه تقول له:

- اجلس..!

قال وهو يضع كفه على كتفها:

- أود أن أذهب إلى الرصيف!.. فأنا أحتاج إلى الخروج من الـ"زحمة"!..

قالت وهي تدفعه بقوة نحو باب الخروج:

- الزحمة فيك يالعين!.. اذهب إلى الجحيم.

- تركته يمضي نحو الخارج، فالناس هنا

يحترمون رغبة الآخرين، حتى وإن لم يفهموها.. يكفي أن "ترغب" ليخلوا سبيلك.. طبعاً وسبيل رغبتك.

قبل أن يوصد باب المقهى خلفه، استقرت عيناه على طاولة أخرى (عريضة هي الأخرى)، في أحد أركان المحل.. كان يحتويها رجل يحسبه من الصين.. وآخر يعتقد أنه من أفريقيا.. وبينهما امرأة شقراء، يبدو أنها ألمانية.. أكيد ألمانية.. هذه المسكينة ذهبت بها السنون بعيداً عن سن العشرين.. ثلاثتهم كانوا يضحكون بأصوات مرتفعة جداً!.. الصيني كان يضحك، دون أن يفهم شيئاً.. كان يضحك مجاناً ككل الآسيويين!.. والأفريقي كان يضحك، وكل التدابير التي في رأسه تتدفَّق بشراسة في أصداء قهقهاته.. أجل!.. فقد كانت عينا الخبيث تأكل النصف الذي يواليه من وجه المرأة.. أما هذه الشقراء، فقد كانت سعيدة جداً؛ لأنها كانت تهرس تحت قدميها قارتين كاملتين: آسيا وأفريقيا!.. ثلاثتهم شرعت أصواتهم وقهقهاتهم تطغى على الحناجر، التي جاءت هنا لتهرب من الصمت والوحدة!..

مضى يسترق السمع.. كأنه ضابط تفتيش.. عسكري يتحمَّل مسؤولية ما يضمر الناس، وما لا يضمرون.

قالت الشقراء:

- أنا لا أحب النقاش "الفكري"!.

قال الأفريقي:

- ولا أنا!.

قالت:

- لأن هذه المناقشات "شغل"، وأنا لا أحب أن أشتغل بأي شيء.. أريد أن أبقى "بيضاء".. خالية من أي شيء..

قال الأفريقي:

- أنا كذلك يا عزيزتي.. فالأفارقة المولعون بالنقوش والألوان، هم الأشد غموضاً.. والأشد كسلاً أيضاً.

ثم أضاف الأفريقي:

- أن تعيش معناه، أن تكون عاطلاً.. عندما تشتغل لن يكون لديك وقت كافٍ لكي تعيش!..

الصيني كان دوره أن يضحك فقط!

تقدَّم صاحبنا حتى بلغ طاولة هؤلاء الثلاثة.. ثم وقف!.. ركَّزت هذه المرأة في صدره عينين، كأنهما حربتان.. ثم قالت:

- تريد ناراً تشعل بها سيجارتك؟!.

ردّ بسخرية:

- لا .. بل أريد أن أشير عليك باستبدال معجون أسنانك!

قالت: وكلها غضب:

- يا قذر!.. ألهذا جئت تسحب أقدامك الثقيلة إلى طاولتنا!..

أجاب، وهو يركّز يده على الطاولة:

- جئت لأصفع الصيني.. ولأنصح هذا الأفريقي بأن يعود إلى أدغاله!.. ولأقول لك أنت: أنني أنا أيضاً لا أحب النقاش "الفكري". ولكن هل تدرين لماذا؟!..

قالت:

- لا!..

قال:

- لأنه لا يلتقي فيلسوفان إلا وينحدران إلى أوقح ما في داخلها!..

قالت:

- ثم ماذا؟!..

قال، وهو ينظر إلى الثلاثة:

- قبحكم الله أجمعين!..

قال الأفريقي:

- تأدب!..

فضحك الصيني، حتى سقط رأسه على كتف الشقراء، ليتركه كذلك!.. كأنه كان يبحث عن أي مناسبة مواتية لهذه الفعلة.. أستأنفت الشقراء حديثها لصاحبنا الذي مازال واقفاً (لم يدعه فهم أحد إلى الجلوس).

- الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يتكلّم.. وهو أيضاً الحيوان الوحيد الذي يعقل!.. ولهذا، فقد كان "الأعلى" بين باقي الحيوانات!

قال بهدوء وهو يشعل سيجارته..

- ومن قال لك بأن هاتين صفتين يختص بهما الكائن "الأعلى" كما تسمينه، فكل الحيوانات ياسيدتي تتكلم، وتدرك ما تقول وما تفعل.. ولا يحق للإنسان بأي حال أن ينكر على غيره من الحيوانات الأخرى القدرة على التعبير والتفكير، لمجرد أنه لا يفهم ما تقول.. ولا يدرك أبعاد ما تفعل!..

قالت:

- أنت مجنون!..

قال:

- المسألة أعقد مما نتصوّر.. فلغة الحيوانات الأخرى وطريقة تفكيرها أعقد من لغة الإنسان وطريقة تفكيره.. والحيوانات تتميّز بفهم لغة الإنسان، إلى جانب معرفتها التامة للغتها.. بينما الإنسان لا يفهم سوى لغته فقط! والحيوانات كذلك تعي كل تصرفاتها.. بينما الإنسان لا يتيقظ لكل ما يفعل في كل حين!..

قالت:

- من الأفضل أن تتوقَّف عن هذا الهذيان؟!..

قال:

- نقول للحمار: "عر"، فلا يتلكأ في الانطلاق نحو الاتجاه الذي نريد، ونقول له: "هش"، فيقف رأساً.. ولكن هذا الحمار، لو نهق من الجوع لقال الإنسان: إنه ينهق من "البطر"، ولو خذلته قواه المنهدة، فلم يقو على النهيق من الجوع أيضاً!.. لقال الإنسان: سبحان الله! إنه في حالة صوفية.. حالة عشق وتبتل.. إنه يحمد ربه على النعمة والعافية!..

نظر الصيني إلى ساعة يده.. ثم قال:

- لقد جاء الوقت الآن!..

رفع رأسه عن كتف الشقراء.. واتجه يمشي نحو مرآة كانت تغطي نصف الحائط المواجه في المقهى.. نظر إلى وجهه طويلاً.. طويلاً.. دون أن يتكلَّم، وبعد لحظة أخرج من جيب معطفه مسدساً صغيراً!!.. ثم تهاوى على الأرض، بعد أن ماج المقهى على صوت الرصاصة التي أودعها رأسه!! لم يعرف أحد لماذا.. انتحر الكائن الذي كان يفجر المقهى بضحكاته وقهقهاته!..

نظر صاحبنا إلى الأفريقي، وإلى الألمانية، ثم قال:

- أسألكما: متى رأيتما أحد العناوين الرئيسة في جريدة ما يعلن عن انتحار حمار لأي سبب من الأسباب؟!.. هذا على الرغم مما يلقي الحمير من ضنك، وتبخيس، واضطهاد!

قالت الشقراء:

- إذاً.. الإنسان حيوان ينتحر!..

قال:

- نعم، هذه هي الصفة الوحيدة التي تُميّز الإنسان عن بقية الحيوانات.. أي حيوان آخر لا يمكن أن يختم حياته بنفسه، مهما بلغ به اليأس أو البؤس!..

كان الأفريقي مايزال يحوم بعينه حول الشقراء.. يأخذها طولاً وعرضاً، وفي كل اتجاه!.. كان ما يزال "يدبر!".. كان ما يزال يُخطّط: من أين يجب أن تبدأ غارته السوداء، ولكنه أخيراً فضّل أن يتكلّم:

- لماذا تأخذ الحمار مثلاً في كل ما تقول؟!..

ردَّ صاحبنا:

- يكذبون أولئك الذين يقولون: إن الحمار أغبى

الحيوانات.. أو أغبى الكائنات.. وأنت عندما أقول لك: يا حمار!.. يجب أن تحتسب ذلك شرفاً لك!..

انتفض الأفريقي.. ثم ضرب الطاولة بيده، وهو يرفع عينيه نحو الخارج!..

صاحبنا لم يأبه!.. بل، تحدياً، أخذ يقرب وجهه من وجه الإفريقي!.. كان يغالي!.. لاشك أنه كان يغالي.. فقد كان يضغط بسبابته على أنف الأفريقي، وهو يقول:

- الحمار "أطلق من شاربك"، فهو لا يمكن أن ينتحر!..

البوليس يأتي دائماً متأخراً!.. كأننا نحسبه لايجيء إلا ليكتب السطر الأخير في تقارير القتل!!.. لقد ملأ بوليس فرانكفورت كل "الخانات" في تقريره عن وفاة الألمانية الشقراء، التي أخذت في صدرها طعنة غير عامدة!.. أما في تقريره عن وفاة صاحبنا المتطفل على طاولة الثلاثة.. فقط اضطر إلى شطب أكثر "الخانات" بهذه العبارة: "مجهول" إذ لم يجد

في جيوبه جواز سفر.. ولا أي بطاقة أخرى تشير إلى شيء.

البوليس لم يفهم شيئاً عندما أخذ الأفريقي، يردد وهو في طريقه إلى السجن:

- والحمار لا يمكن أن يقتل حماراً آخر!!..

فـــلان

هكذا - يا حبيبي- فهم يذبلون حتى يسقطون، أو يختفون من مدى العين والذاكرة!

هكذا - يا حبيبي - فهم يتضاءلون.. ويتضاءلون حتى يتلاشون.. وحتى تبكي أنت، وينفطّر فؤادك، وحتى تمضي تلعن جميع الذئاب والكلاب، الذين أخذوهم إلى هذا المأزق الشرس الذي يقتل الكبرياء! ويطعن الطموح!

هؤلاء يا حبيبي يسرقون الحياة، وهم لصوص الأمل والمستقبل!

كان رجلاً بحجم الشمس والأمل، وكانت له في هذه الحياة مآرب كثيرة لا تحصى! وكان أبوه، وأمه،

وزوجته، وأطفاله يلتفون حوله في الصباح والمساء كزهر الربيع! وكان هو يذرع الدنيا ذهاباً وإياباً.. من نجاح إلى نجاح.. ومن وعد إلى وعد.. إلى أن جاء اليوم الذي تربصت به الذئاب والكلاب، لصوص المستقبل، وسرّاق الحياة، فقالوا له: تعال يا حبيبنا إلى المتعة.. تعال!.. ثم وضعوا بين أصابعه أول سيجارة حشيش، فابتلعها في تردد، وحياء، وخجل، ومرارة.. لكن الذئاب والكلاب كانوا دائماً هنا، حوله، يحاصرونه، ويحيطونه من كل جانب! وهم مازالوا يلوحون له بمفاتيح المتعة: تعال يا حبيبنا.. تعال! جرب!.. جرب "شمة" واحدة أو شمتين! وخذ من عقار السعادة حبة أو حبتين!! وادخل إلى دمك من هذا السائل العجيب نقطة أو نقطتين! وفي صبيحة يوم كئيب مدهش فتح الرجل، الذي كان بحجم الشمس والأمل، عينيه فوجدهما واهنتين، ثقيلتين، ضئيلتين، منكسرتين.. ومدَّ يديه قبالة وجهه، فرآهما معروقتين شاحبتين هزيلتين، كجذع شجر الذرة، أنهكه قيظ الصيف.. ومنذ تلك الساعة، انعكست الآية، فأصبح هو

الذي يسحب جسده المهمل خلف الذئاب، وفي أثر الكلاب! يبكي ويتهالك ويفعلون به ما يريدون من أجل شمة أو شمتين، حبة أو حبتين، نقطة أو نقطتين..

تضاءل كثيراً.. وتضاءلت أيضاً مآربه التي كانت لاتحصى، ذبل هو، وذبلت ذاكرته التي كانت تتدفَّق بالتحدي والطموح، أما الأب، والأم، والزوج، والأطفال، فقد ثووا جميعاً حوله يلهثون، عطاشى مأخوذين، كالحين كأوراق الخريف.

الأب أصبح يتهيّب دخول المسجد؛ كيلا يقرأ جيرانه في عينيه غدر الكلاب، وخيانة الذئاب.. والأم تغلق غرفتها على نفسها طوال اليوم، فهذا غدها يتخاذل بين يديها، وقد كانت تراهن عليه الإنس والجن..

قالت الزوجة: اسمع يا فلان! اطرد عنك يا حبيبي هؤلاء الذئاب! لقد أطفؤوك.. وذبحوك.. ولقد اغتالوني هكذا عنوة في قلبك وعينيك!.. اطردهم يا فلان، فلقد اجتثوني منك.. من داخلك.. فلا ماء، ولا هواء، ولا حب قديم يرفع عنا الضيم والقهر والملل..

قالت الطفلة الصغيرة (شذى): سنذهب اليوم يا أبي إلى مدينة الألعاب، فهناك أطفال كثيرون يغنون، ويرقصون، ويضحكون.. تعال معنا يا أبي!

كان فلان لحظتها يأخذ حبة أو حبتين.. شمة أو شمتين.. وفجأة أسند رأسه إلى الجدار ونام!.. كأنه قد نام!!..

فقالت الزوجة: الأم تعالي يا شذى.. تعالي يا حبيبتي.. هل نسيت أنه في مدينة الألعاب ممنوع دخول الرجال!!

ثم غادروه جميعاً وهو يذبل!.. يذبل حتى اختفى.. اختفى من مدى العين والذاكرة!!

الحب أحلى!

إنها تحبه الآن..

كل الحلول متأخرة عن أوانها!

.. اسمها إيفلين، جميلة، متوسطة القامة، بل هي فوق المتوسطة بقليل، ها هي في شعرها الكستائي، الذي يكسو أعلى الكتفين، وينسدل من الخلف إلى منتصف الظهر، وجهها مشع بالحيوية والنقاء والإيحاء: شفتان تميلان إلى الغلظة والتوحش الجميلين، وعينان ليستا خضراوين، بل زرقاوين.. الناس يميلون إلى العيون الزرقاء التي حين تشتد الشمس على شاطئ البحر، في الجنوب الفرنسي مثلاً تصبحان رماديتين مشعتين، واللون هنا ليس ذلك

الحيادي الذي نعرفه، بل هو اللون المتهيئ للاقتحام.. يقتحمك حتى لا يُبقى فيك على شيء!

أصلها من مونوبيلييه، وهي تعيش، حالياً على الأقل، في باريس. عمرها ثلاثة وعشرون عاماً.. وقد عرفت قبله غيره.. ولكنهم – جميعاً – مروا في حياتها، كما يمرُّ مسافرو القطار بمحطات لم تكن هي غاية رحلاتهم!

مرة واحدة فقط شعرت إيفلين بتعلق "ما" نحو شاب في مثل سنها.. كانت تعتقد أنه (الحب)، ولكنها تبيَّنت بعد أن تركها ذلك الشاب ليتزوج من غيرها، أن ذلك لم يكن سوى الشعور الملتهب غير الراشد الذي يراود كل مَنْ هنّ في مثل سنها.. إنها غِرَّة.. أو أنها تريد أن تكون غِرَّة! تستسلم، وهي تظن أنها تقاوم!.. تقاوم وهي تنادي من أعماقها: أن اقبل يا فتى عليك اللعنة!

هما كانا معاً منذ سني الطفولة الأولى.. أهلها يعرفونه.. وأهله يعرفونها.. بل في سنوات متأخرة، اتخذت العلاقة بين الأسرتين منعطفاً جديداً، زاد من

التحامهما.. فقد تزوَّج أخوها الأكبر بأخت هذا الشاب الذي كانت تعتقد أنها تحبه!

لم تكن إيفلين تحب أحداً قط.. كانت تقول في داخلها: "إما أنني مخلوقة استثنائية، حرمني القدر من لذة هذه الأسطورة الأبدية التي يدعونها (حبّاً).. أو أن الناس يغالطون أنفسهم وعواطفهم عندما يبالغون، فيعتقدون أن (الحب) يحيي ويميت!..

كانت تستمع إلى صديقاتها، وهن يسردن عليها حكاياتهن مع (الحب)، وفيهن من تبكي تجرح خديها بالدموع.. وفيهن من تتمادى في يأسها إلى حدِّ استيحاء مشروع بائس مفزع لإنهاء حياتها.

مثلاً!.

كانت تضحك أحياناً، عندما تستمع لمثل هذه الحكايات.. وأحياناً كانت تبكي!.. لقد كانت تضحك عندما تستشعر درجة حادة من الكبرياء، إذ إنها ما انصاعت يوماً لمثل هذا "الوهم".. أو أنه مازال إلى الآن "وهماً".. وهي كانت تبكي عندما يستيقظ خوفها من أن يكون تكوينها العاطفي تكويناً ناقصاً.. وهذا

المستوى من "الأزمة الداخلية"، أصبح بالنسبة لها مصيراً وقدراً.. بل لقد تحوّل إلى وسواس خناس، استحوذ على كل شيء فيها! حتى جاء اليوم الذي عرفت فيه هذا (الأجنبي)، نزار على حسين، الذي أصبحت فيما بعد!.. نعم فيما بعد!.. (تحبه) بأعراض الحب وظواهره نفسها، التي لا ينجو منها أي عاشق أو عاشقة!.. فهي تشعر، فعلاً، إنها "مريضة" جداً..

- من أي بلد أنت؟ (سألته في عجلة يوم أن لقيته للمرة الأولى).

- سأترك لك وحدك مهمة العثور على هويتي!.. فمن أي بلد تظنين أني قادم؟

- من الشرق على أي حال!

- ولكن الشرق كبير!

يووووه!.. أطال القصة، وهي قصيرة.. كانت في عجلة شديدة من أمرها، فقالت له لكي تختصر الحوار:

- لا أدري أذاً!

رد عليها ببرود:

- سأعطيك مهلة.. نصف ساعة، اذهبي لقضاء

حاجاتك الآن، وعندما تعثرين على تحديد معين لهويتي، ستجدينني أنتظرك هنا!

عندما قال لها ذلك، كان يريد أن يجد لها حجة (ربما واهية) تدفعها للعودة إليه.. فقد كانت في هذا المقهى (مقابل لمدخل الجامعة)، مع مجموعة من أصدقائها وصديقاتها، شبان وفتيات، وربما صعب عليها أن تتركهم للجلوس إليه كل الوقت.

مرت ساعة.. أكثر من ساعة.. أكثر من دهر.. وهي لم تعد لإكمال حديثها معه.. لقد عبرت أمامه أكثر من مرة، دون أن تلتفت، مجرد أن تلتفت إليه .. هل تريد أن تفتنه بمشيتها التي هزت وتهز كيانه؟ هل تريد أن تشغله بشعرها الكستنائي المنسدل إلى منتصف الظهر، والذي تسقط مقدمته على النصف العلوي من الوجه، وهو يستجديها لتعيده بكفها الملائكي إلى مكانه وسط الرأس، وعلى جانبيه؟!.

"ربما أنها خجولة.. فهي تستحي أن تعود للحديث معي من جديد. تريد أن أدعوها أنا هذه المرة لتحميسها!" كان يقول في نفسه.

- هاه!.. هل عرفت من أي بلد أجيء؟! (سألها وهو يقودها من طرف اليد.. من طرف القلب.. نحو طاولته الخالية).

التفتت إليه، ولكن دون أن تحمل نظراتها أي اهتمام.. ثم اكتفت بأن قالت له وهي تزيح يده الأخرى عن كتفها:

- لا..!.. لم أعرف.

ثم استدارت حول نفسها كالأفعى وتركته واقفاً يحصي بعينيه المتنكستين أعقاب السجائر، ومخلفات أقادم الناس على الأرض!

لم يكن يهمها أبداً أن تعرف من أي بلد يجيء، ولا في أي بلد سيقيم!.. فما أهمية أن يكون هذا (الأجنبي) باكستانياً.. أو هنديّاً.. أو إيرانيّاً.. أو أفريقيّاً.. أو عربيّاً.. أو أي شيء آخر؟!.. لقد سألته عن أصله.. تماماً كما لو سألت بائع الفاكهة عن سعر البرتقال الأسباني، فذلك لا يعني دائماً الرغبة في الشراء.. ربما استرعتها ملامحه الحادة.. وربما لفتها شعره الأسود الحالك.. ربما أعجبها تفرده بهذه

السحنة، التي لا تشبه كل السحنات الموجودة هنا!.. وكل ذلك لم يذهب بها بعيداً، كما يتصوَّر هذا الشرقي، الذي يأبى خياله الرحب إلا أن يُفرط في تفسير كل ما يدور حوله.. كما تأبى ذاتيته الشديدة، إلا أن تغالي في إنشاء علاقة محابية بين ما يقوله الآخرون، وكل ما يحقِّق رضاه، أو أوهامه، أو ارتياحه الشخصي!

- سأقول لك من أي بلد أنا!

قال لها ذلك، بعد أن استوقفها للمرة الثانية، كأنه يرجو أن تتبدّل نظرتها اللامبالية نحوه!.. ومن يدري، فربما كان يتوقّع أنها ستقفز بشرى، إذ يْكشف الحجاب عن الهوية الغامضة لفارسها المجهول!. أووه!.. ياللعنة!.. لقد اضطر فجأة إلى قطع ابتسامته الدعيّة على وقع كلماتها الجافة:

- بسرعة لو سمحت، فأصدقائي بانتظاري!

ردّ وهو يبحث عن بقايا الريق في فمه.

- حسناً!.. أنا إيراني.. اسمي (نزار) جئت هنا لدراسة الفنون الجميلة.. فأنا رسام!.. أنا أيضاً انحدر من سلالة عربية..

- قاطعته:
- آه.. تشرفنا.. أتمنى لك إقامة سعيدة..
- ثم لجأت إلى أصدقائها.

تقابلا أكثر من مرة، في أيام أخرى، في المقهى ذاته، أمام مدخل الجامعة الضخم، يحدثها عن الفن.. والبترول.. والشاه.. وبلاد الفرس.. وحضارة كسرى.. حدثها عن زرادشت، والمجوسية الفارسية القديمة.. كانا يتحدثان أيضاً عن كل الشرق.. وعجائبه.. ولياليه القمرية.. ذات النجوم الساطعة.. والقلائد.. والخرز.. والودع.. والأبخرة السحرية!

شيء واحد كانت تدركه إفلين.. وهو أن نزاراً سيعدّ في حياتها واحداً من العابرين، فهي لم تنتظر إلى اليوم، كي يجيء هذا الإيراني من على بعد آلاف الأميال ليملأ قلبها حناناً و"حبّاً".. ومسألة الحب الذي يسرق، ويقتل، ويبعث على الأرق، إنما يلجأ إليه الناس في الإثارة السينمائية.. وفي روايات الحب المفرطة في الرومانسية.. وفي حكايات عواطف الفروسية.. والنبل البرجوازي!.. والحب إن كان

موجوداً فعلاً - وهذا ما تعترف باعتقاده أحياناً - فإن قدرها النحس قد حجبه عنها.. أو لعل مصيرها المشرق قد وقاها هذا الجحيم، الذي يتلظى به البشر، منذ أن خلق الله المرأة والرجل.

إنها تفكّر هذا التكفير، كلما شاءت أن تخادع نفسها؛ كي تظلَّ في سلام مع وساوسها المخيفة، ومع قلقها الدائم.. وإلا فهي في الواقع تطمح إلى حب رجل كأي امرأة أخرى.. فهي تريد أن تحب رجلاً؟!.. نعم!.. ولكن في حدود أنه "رغبة" النساء، وليس مصيرهن.. وهذا فقط ما كانت تختلف به عن أكثر قريناتها!

سألته يوماً وهي ترفع بكلتا يديها شعرها الكستنائي إلى ما فوق رأسها، ثم تدعه ينهمر:

- هل أحببت قط في حياتك؟!

أجاب في مباشرة غير منتظرة:

- عرفت نساء كثيرات، ولكني أحببت امرأة واحدة فقط.. آخ.. لقد كنت أشعر أن الله خلقها من أجلي!

- ولماذا هي بالذات؟

- كانت الوحيدة المهيأة لملء (المكان).. كان يخيل إلّى أنني صنعتها بيدي..

- أوه.. ما أحلى كلامك!.. كأنك شاعر! (قالت له ذلك، وهي تداعب بأصابعها النحيلة شعره الأسود الناعم).. ثم سألته:

- ولكن أين هي الآن؟!

- تزوّجت من رجل آخر! هي الأخرى..

كان يعجبها كلامه عن المرأة التي أحبها، وإن كانت قد سمعت مثل كلامه كثيراً!.. يوماً ما جلست إلى نفسها تقول: "ولكن إن كان ما يقوله نزار صحيحاً، فهذا يعني أن الله خلقني أنا الأخرى من أجل رجل معين.. لكن أين هو هذا الرجل؟! وكيف سأجده؟ إن مجرد إثارة مثل هذه التساؤلات، تجعل التفكير في مسألة البحث عنه مسألة شيقة ومثيرة! ها.. ها.. ها..."

استمرت تضحك بصوت مرتفع، ثم تابعت تتحدَّث إلى نفسها:

"ولكنها عملية شاقة ومهمة مستحيلة! يزيدها

تعقيداً، أنني لا أعلم كيف سأهتدي إلى هذا الرجل الذي خلقني الله من أجله! هل سيكون اسمي مكتوباً على جبهته مثلاً؟!.. ها.. ها.. ها.."

ثم تابعت: "لا أريد أن اشترط فيه أن يكون وسيماً، أو ذكيّاً، أو غنيّاً، إلى آخر المواصفات التي يتشدَّق بها كل البنات.. لأنه قد يكون وسيماً كالبدر، وذكيّاً كما لم يكن من قبله أي رجل آخر، ولكنه يعجز عن ملء كل "المكان".. هذا المكان! السحري الذي يتحدَّث عنه نزار.. أجل!.. هذا المكان! الذي يدعونه في بعض الأسر المطمئنة: السعادة.. ولكنه بالتأكيد شيء آخر غير السعادة!"

انتصبت واقفة، ثم اتجهت نحو المرأة تنظر مبتسمة إلى وجهها الدقيق المتوهج المحتشد بالنقاء والحيوية وتابعت: ".. لا.. إنه لا يمكن تصور الحب بهذا الأسلوب.. إن مجرد التفكير في عملية "التفتيش" هذه، تثير في نفسي الضحك.. إنها تُحوّل الحب نفسه إلى مهزلة.. لا شك أن هذا الإيراني مجنون!.."

مشت حافية القدمين.. في ثوبها الشحيح، ومفاتنها المتفدقة.. ثم أخرجت لنفسها في المرآة التي انتصبت على أحد جدران الصالون.. أظهرت أكثر من نصف لسانها.. ها هي تغني وهي تتجه نحو البالكون أغنية "قصة جميلة" للمغني الفرنسي المشهور ميشيل فوغان.. ولما استقرت على البالكون كانت تمسك بقبضتيها الحاجز الحديدي الذي يقسمها إلى نصفين.. نصف يراه المارة، ونصف لا يراه أحد.. يمكن فقط أن يتخيلوه!.. أخذت تنظر إلى العابرين على الرصيف المقابل.. تتفحص وجوههم.. وقاماتهم.. وملابسهم.. وأشكالهم.. بعد لحظة، أخذت تتمتم بكلمات تكاد تكون مسموعة:

" لا.. هذا مستحيل! إنني لا أرى فيهم أي رجل مناسب.. ومع ذلك من يدري؟! ربما كان الرجل الذي خلقت من أجله بين هؤلاء!.. ترى هل يتعين عليَّ أن أجيء كل يوم إلى البالكون لأنظر إلى العابرين، لعلي أعثر على رجلي المناسب!!.. وعندما أجده أقفز إلى عنقه!.. وأقول له: قف!.. فأنت وحدك الذي ستقيم

في صدري، قلعة شامخة من الاقتناع يتداعى خلفها أي تطلع آخر.. ولو رفض لأنني – مثلاً – لست المرأة التي يريد.. أو لأنه متزوج.. أو لأي سبب آخر! فليس لي إلا أن أشهر مسدساً في وجهه، أسحبه من ربطة عنقه إلى الداخل، ثم أقفل عليه الباب!.. ها.. ها.. ها".

ضحكت مرة أخرى، وهي تعاود الدخول إلى الغرفة ثم سكتت قليلاً، وقالت: "ولكن ما هذا التلبيخ؟! ما ذنب نزار المسكين؟! فهو لم يقل، ولاغيره قال: إن الناس عندما يحبون لابد أن يسبقوا هذه الخطوة بخطوة أخرى وهي "التفتيش" عن الشريك المناسب.. بل لقد قرأت في مكان ما، أن هناك إلهاماً داخليّاً غامضاً معقداً، هو الذي يمكن أن يجذب امرأة ما إلى رجل ما، أو العكس".

فجأة رنَّ جرس الشقة.. عادت تقول في نفسها، وهي تتجه نحو الباب.. تفتحه "أعتقد أنني أستطيع أن أقول كلاماً جميلاً مثل كلام نزار.. ليتني كتبت ما دار في رأسي قبل قليل.. أو ليتني أستطيع ترديده على

مسامعه الآن.. حتى لا يظن أنه – وحده – القادر على التفلسف!".

دخل نزار، فبادرته بهذا السؤال الذي لم يسبق لها أبداً أن وجهته إليه قبل اليوم:

- هل تحبني؟!

أجابها وهو يلتصق تماماً بها، ويداعب شعرها الكتسنائي المنسدل على كتفيها.. يداعبه بكلتا يديه من اليمين ومن اليسار، يجمعه نحو الخلف، ثم يدعه ينهمر:

- أجل!.. وهذا هو السبب الوحيد لوجودي معك الآن!

تردّ.. وهي تأخذه نحوها من كتفيه العاليتين:

- لا.. أجبني بصراحة.. ولا تظن أبداً أن إجابتك ستكون قاسية، حتى لو كانت بالنفي الكامل.. فليس لي ذنب في ألاّ أكون المرأة التي تملأ فيك كل "المكان"، وهذا بالضبط كما لو عجزت أنت عن القيام بهذه المهمة معي، هل لك ذنب في ذلك؟!.. أجبني بصراحة،

وسوف لا أقذفك إلى الخارج، فأنا أقاسمك هذا المفهوم!

تلعثم قليلاً، ثم قال:

- يعجبني كل شيء فيك.. أقول: كل شيء!. وأشعر بسعادة وارتياح بالغين، عندما أكون إلى جانبك.. وما ينقصني هو "الحنين".. أو "الحاجة" الداخلية العارمة لدوام حضورك.. فأنا – مثلاً – أعتقد أنني سأتغلب يوماً ما على ألم ابتعادي عنك.. أعني "الابتعاد" الذي أشعر بأنه، سيتم حتماً.. إما بالعودة إلى بلادي يوماً ما.. أو بمجرد شجار مبتذل يقع بيننا، كما يقع بين أي امرأة وأي رجل.. إن الحنين الدائم، هو ما نسميه "الحب".. الحب الحقيقي طبعاً.. وهو قد يأتي.. وقد لا يأتي.. لا أدري!.. لعلّه يأتي أحياناً في أوقات متأخرة!!

ابتسمت وقالت:

- أهكذا تحبون في الشرق؟!

أجابها:

- الناس في كل مكان يحبون هكذا!، ولكن في كل

مكان أيضاً هناك من يحب المرأة "رغبة"، وهناك مَنْ يحبها "مصيراً".. والأخيرون يكونون دائماً أقل يا سيدتي.. ولهذا السبب، نجد أن المحاكم في كل أرجاء الأرض مليئة بقضايا الطلاق والخيانة إلخ.. ولهذا السبب أيضاً، نجد أن الشوارع في أنحاء الدنيا مليئة ببائعات الهوى، وبالأطفال المشردين، والمطرودين، والتائهين.

في كل لقاء لهما بعد ذلك كان لابد أن يتحدثا عن الحب ساعات طويلة لا تنتهي.. كانا يتحدثان أيضاً عن الناس الذين يضطرون للكذب في علاقات المودة بينهم.. إنهما يتهمانهم بالجبن، وربما بالنذالة.. وأحياناً يعذرانهم؛ لأن الناس في بحث دائم عن أي قدر متاح من السعادة. الناس في علاقات المودة بينهم "وهميون"؛ لأنهم يحبون أن "يحلموا"، وخاصة عندما يجدون أنهم أضعف من أن يتحملوا الواقع دون ماكياج.

قال لها يوماً:

- لو جاءك رجل يطلب يدك، واعترف لك بأنه لا

يستطيع أن يقول لك -الآن على الأقل- بأنك تملئين كل "المكان"، هل تقبلين الزواج منه؟!

قالت تستنكر:

- ولكن لماذا يطلب يدي، إن كنت لا أملأ كل "المكان"؟!

أجابها:

- إما لأنه ضاق بحياته وحيداً، فهو في حاجة إلى شريكة تُبدّد وحشته، بعد أن يئس من العثور على امرأة (يحبها) فعلاً.. وإما لأنه يودُ أن يكون عنده أطفال.. والزواج هو الوسيلة الأمثل لهذه الحادثة!

- لا أعتقد أنني سأوافق على الزواج منه على أي حال! (أجابته)

فرد عليها:

- لأن في هذا المشروع ما يفسد أحلامك، أو جزءاً منها!.. أليس كذلك؟!

ثم أضاف:

- إن هذا يا سيدتي هو ما يشجع الرجال على الكذب عليكن معشر النساء!

- أنت مجنون!
- بل أنا مجرب!
- هل سبق أن تزوجت بهذه الطريقة؟
- أنا لم أتزوج قط.. ولكني في كل يوم أرى مشاهد من هذا الطراز!
- يمكن في إيران.. أو في الشرق! ولكن ليس هنا! أووه.. آسفة جداً.. لقد نسيت أنك رسام سوريالي.

ثم أضافت: ..

- أنت وجماعتك السوريالييين، لا يمكن أن تتكلموا أو ترسموا بواقعية.. فكلكم معقدون!
- نحن يا سيدتي لا نرسم إلا الواقع أو الحقيقة كما هي.. فلا نحاول أن نكيفها أبداً مع المنطق البشري.. لأن المنطق البشري لا يُمثّل الحقيقة في كل الأحيان.. عندما ترين في الحلم أن طول جسمك ثلاثة أمتار، بينما طول ساقيك لا يتعدى عشرة سنتيمترات فقط ، فهذا لا يعني أن هذا الشكل الجسدي المؤقت ليس حقيقة، كما يبدو لك في

الميـزان العقلـي المجـرد، أو فـي المنطـق البشـري اليـومي، بـل إنـه هـو الحقيقـة نفسـها، فأنـت رأيتيـه بـأم عينـك.. بـل أكثـر مـن ذلـك، أنـه أثـار مشـاعر معينـة فـي داخلـك، كالدهشـة، وربمـا الخـوف؛ لأن عقلـك العـادي لـيس مهيئـاً لاسـتيعاب هـذه الحقيقـة! التـي لـم تكـوني تعرفينها.

كانـت إفلـين تجـد لـذة بالغـة، كلمـا أثـارت حماسـه للـدفاع عـن بيكاسـو.. أو دالـي.. أو دو بوفيـه.. كـان يعجبهـا أن تـراه يصـرخ.. يتفتـق.. وهـي تقـذف هـؤلاء بأقسـى الـتهم، وأوقـح الشـتائم، مـع أنهـا لا تعنـي أي شيء ممـا تقـول.. فـالغرض أولاً وأخيـراً، هـو أن يعمـد نـزار إلـى حـل (أزاريـر) قميصـه مـن شـدة الحـر، الـذي ينـتج دائمـاً بفعـل الحمـاس العنيـف الـذي يكسـو كـل أعصـابه، وقسـمات وجهـه، وهـو فـي حومـة الـدفاع عـن أصحابه الذين يدعونهم مجانين! تريـد أن تـرى صـدره عاريـاً، وهـي تحسـس شـعره الكثيـف.. وتزيـد مـن انقضاضـها علـى السـوريالِيين.. بـل انقضاضـها عليـه هو.. تشـمه.. تُقبّلـه.. تجـري شـفتيها الغليظيتين علـى

رقبته.. وتحت أذنيه.. وأسفل ذقنه.. ثم ترتفع قليلاً إلى أن يغيب عن وعيه!

كان في كل نقاش آخر يبدو هادئاً رزيناً، يُدلي باعتراضاته دون أي انفعال.. أما حين يكون الحديث فنّاً، فإن أفلين تكاد تقول في نفسها: "لقد خرج عن صوابه!وأنا أريد أن أخرج هذا اللعين عن صوابه!.. كي يتدفق أكثر".. كان هذا يعجبها!.. وكانت في كل يوم لاحق تكتشف تفسيرات جديدة لعدد من ألغاز لوحاته، التي كانت تملأ كل أجزاء غرفته الطلابية الصغيرة.. وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتها تعجز، من يوم لآخر، عن مكايدة الرغبة الملحة في تأمل تلك اللوحات أكثر فأكثر، كلما جاءت لرؤية نزار، أو للحديث معه في مكانه.. لم تعد تسأله أسئلتها الساذجة الأولى: لماذا اللون الأصفر هنا، ولماذا اللون الأسود هناك؟!.. لماذا رسم حواء تأكل رأس (ثعلب)، وهي لم تكن أكلت سوى التفاحة؟! ولماذا مزَّق تلك اللوحة، مع أنها جميلة، واستبقى الأخرى مع أنها أقل جمالاً؟!.. إلخ.

أصبح نزار ليس في حاجة لأن يقول لها بأن هناك أسئلة يجب ألا تطرح إطلاقاً على الفنان! وليس في حاجة لأن يُردّد لها بأنه لا يحب الحديث عن رسماته؛ لأنه هو نفسه، يعجز تماماً عن تفسيرها.. والفنانون ليسوا مطالبين أبداً بتفسير فنهم!

لقد كانت إفلين في البداية لا تفهم كيف يمكن أن يعجز الفنان عن تفسير منتجاته الفنية، لكنها الآن أصبحت تفهم كل شيء.. أصبحت، فوق ذلك، أكثر إدراكاً لرسم نزار من نزار نفسه؛ لأنها أضحت تعيش في روحه.. في داخله!

يوم أن جاء يرحل عائداً إلى بلاده، ذهبت تُودّعه في المطار.. ولكن قبل أن يصعد إلى الطائرة، كانت تقول له:

- في البداية لم أكن أعتقد أنك ستكون الرجل الذي سيملأ "المكان"، أو الرجل الذي سيبني في صدري قلعة شامخة يتداعى خلفها أي تطلع آخر..

ثم تضيف:

- ولكن طمئني.. هل يمكن أن يحبَّ

الإنسان في حياته مرتين؟!

مسح الدمعة المنحدرة على خدإيفلين الوردي بلمسة خفيفة من أصابعه وهي التي كانت تُحبُّ دائماً مداعبة تلك الأصابع، عندما يقصُّ عليها إحدى أساطير الفرس الأوائل.. أو إحدى مغامرات نجوم الرسم في غضون التاريخ.. لقد كان، لحظتها، يعترف في داخله بأن هذا الكلام الذي تقوله له إفلين ينزل على رأسه كالصاعقة!.. فهي لم يسبق لها أن قالت له: بأنها تحبه!.. ولا أمكنه، يوماً، أن يستقرئ ذلك بنفسه!

أجابها:

- أن نحب في حياتنا مرتين، هذا هو السؤال الذي مازلتُ أطرحه على نفسي كل يوم منذ سنوات عديدة!.. أي منذ أن سفكت دمي المرأة الأولى!.

تمتم بأشياء أخرى لم تفهمها، وهو يدير وجهه نحو الطائرة!.. الطائرة التي ستأخذه عنها إلى البعيد! وربما إلى الأبد!

نـــوم

كانت آخر كلمة قالها له أبوه، وهو يصعد سلم الطائرة:

- خَلّك رجال.

ابتلع "الغصة" كما يبتلع كومة من الجمر.. ثم ترك خلفه كل شيء.. ورحل!

... انقضت عليه سنون طويلة لم ير خلالها لحية الوالد.. ولا بنت المرحوم!..

قبل أن يتم "الحكاية" قاطعه صاحبه:

- دعنا من لحية الوالد الآن!.. واترك بنت المرحوم!..

هذا ما كان يخشاه.. فهو لا يريد أن يفسد على

"الشايب" تصوره، ولا يريد أن ينتزع من تلك البدوية نقاء الشيمة والوعد!

كأن صاحبه أراد أن يُغيّر مجرى الحديث كليّاً، إذ أخذ يسأله:

- قل لي: لماذا تأكل كالغول.. وتشرب قهوة سحيقة لا قاع لطعمها.. ولكنك لا تسمن ولا "تنتفخ"؟

لم يجب، وإنما بهدوء أخلى الكرسي الذي كان يحتله في مواجهة صاحبه، ثم توجّه إلى الباب الخارجي يفتحه، وهو يقول:

- اقفله لو سمحت!!

- ماذا؟.. الباب؟!

- لا يا سيدي.. بل فمك.. فالباب سأقفله أنا خلفك!.. إني قررت أن أنام!

- ولماذا "إني"؟!.. قل: قررت أن أنام.. بدون "إني"

- حسناً!.. أخرج الآن!

بعد أن خرج صاحبه.. أخذ ينخر "الموكيت"

بإبهام رجله، وهو في طريقه إلى سريره الصغير، الذي يحتلُّ جانباً صغيراً أيضاً من الغرفة الضيقة.. الضيقة بهواجسه، وبتصوراته، وقلقه.. أنثنى على مؤخرة السرير يخلع حذاءه. استعداداً للنوم.. ثم أهدل جفنيه، ولم ينم؟!

إنه يخاف!.. يخاف أن يفكّر.. يخاف أن يجر إليه دفتر الحساب! ومع هذا، فهو يفكر كثيراً.. ويجري مع نفسه على وسادته الغليظة في الظلام أقسى عمليات الجمع والطرح!..

بدأ ليلته السوداء هذه، بترديد هذه الكلمات التي كان يجرها من داخله، كما يجرّ المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الصخور الضخمة التي سيبنون بها الحيطان الحصينة لسجنهم.

"أنا يتيم كتبت أمه وصيته قبل أن يولد!.. في طبعي جموح، لا يحده سوى عنفوان الأيام التي تنزّ بالمفاجآت القاسية!. في عيني نشيد مبحوح، لا يثنيه إلا أنين المشبوبين بوهج الحرمان من كل شيء!.. أنا لا أبحث عن الرحمة في قلوب الآخرين، ففي كبريائي

ما يعصمني من ذلك.. ولكني أبحث عن الناس.. عن الحب!. أبحث عن عشق لم يولد.. وأنا.. أنا لا أعرف من أنا، إلا أنني لا أقوى على البحث والتفتيش في داخلي عن هويتي.. شيء واحد أعرفه.. هو أن أيامي حبلى بكل ما ينبغي، وما لاينبغي".

ثم سرى "يهدرش!" يعبث بجمجمته في كل اتجاه، على غير رضا منه، فهو يريد أن ينام، ولكن هواجسه المكدسة في داخله بلا نظام، كانت تلهب النوم بسيالها الملعونة كلما أقبل.. كانت تلك الهواجس تفتح أمام خياله المتعب مليون طريق، وطريق.. تتولاه سراديب طويلة قائمة، لا يكاد يضع نقطة النهاية في أحدها، حتى يتولاه آخر.. يجري في كل منحى، وبدون توقف، وكأن وراءه كل جنّ الأودية المهجورة، تلهبه بسياط غليظة وقاسية، أو كأنه يطارد إحدى شوارد الخيول المتوحشة في أدغال غابة أفريقية مظلمة لا يعرف نهايتها.. كان يتعب!.. كانت أنفاسه تتلاحق! ولكنه لايستطيع أن يستربح.. لم يكن يتوقف في نهاية مشوار إلا ليستأنف آخر جديداً!..

وغالباً ما تكون بداية هذا المشوار الجديد هادئة.. حالمة.. ولكنها تنتهي بالرعب والخوف!.

في أحد السراديب، وهو يلهث، وجد نفسه في أحد المقاهي القديمة أمام حسناء تحتسي من عيونه السوداء عبقريات الشمس، والصحراء، والرمال الساخنة.. تستأذنه للذهاب إلى "التواليت"، لتعديل ما أفسدته نظرات الناس الجائعة من تسريحتها الجميلة.. لكن قبل أن تقوم، يطلب إليها أن "ترفع صوتها" .. تسأله "بماذا!؟ "فيجيبها: "بالنهيق!".. لقد كانت رأسه تنحشر بكل الطيش. وبكل الغرور!.. فما كان من هذه الفاتنة التي يتمنَّى كل الرجال ودها، إلاّ أن حملت حقيبتها وخرجت!.. ولكن قبل أن تدلف إلى الشارع، التفتت تقذف إليه من الباب كل ما يمكن أن يُكنّه "البنات" من سخط على "الأولاد" غير المؤدبين!.

خرج وراءها يجري.. يفتش عنها بين الزحام، كانت تقف أمام بائع السجائر الذي كان يحتلُّ ركناً

متواضعاً من المقهى المقابل.. قبل أن يصلها، كانت نظراته المتغطرسة تشرد في كل مكان.. كانت تلاحق في شراهة كل العابرين على الرصيف.. وأمام بائع السجائر تقدَّم إليها يخزها في كتفها بسبابته، برفق، رفق شديد، بل كانت أنفاسه المتلاحقة أكثر جلبة من تلك الوخزة.. دفعته بقوة، لتضيع مرة أخرى في الزحام.. فرك جبهته وهو ينظر حوله، يحصي العيون الكثيرة التي حملت "نعشه" إلى جهنم!!.. كانت ضحكات الناس الذين رأوا المشهد تسدُّ مسامعه، وتحجب عن عينيه الرؤية.. فخرج إلى الشارع يجري من جديد، وحين أدركها ألقاها على الرصيف بين أقدام المارة، ثم أخذ يركلها في وجهها، وفي صدرها، بكعب حذائه الطويل، حتى أخذ الدم يسيل من وجنتيها.. ومن عينيها.. ومن فمها بشكل يثير الرعب، والفزع، والاشمئزاز!

كان شيئاً يشبه الجريمة!.. أقعده في سريره قبل أن يتصوَّر قيود البوليس تطوق يديه وعنقه النحيلة!

كـاد أن يبكـي.. فالليـل يقسـو عليـه. فبـدا كأنـه يطلب النجدة من صاحبه، الذي طرده قبل ساعات، سحب إليه التليفون الملقى على أرض الغرفة، ثم أخذ يتذكَّر "الرقم"، وهو ينظر إلى مؤشر ساعته الذي كان يقترب في وهن من الخامسة صباحاً!

بعد أن أيقن، أن الذي على الطرف الآخر هو صاحبه، بدأ حواره معه هكذا:

- كيف تودُّ أن "يلد" الجمل برغوثاً؟! عندما يشاء الجمل أن "يلد" برغوثاً.. أنا أود أن استنشق رثاء الأجيال الصاعدة!

- ماذا تقول ؟!

- أقول: عندما يشاء الجمل أن "يصبح" برغوثاً، أنا أود أن أحتسي دموع الحفاة!

- أقسم بالله أنني لم أفهم شيئاً!

- أقول: عندما يشاء الجمل أن "ينهق" كالحمار.. أنا أود أن أعلق في مؤخرتي "ذَنَباً".

- هل هذا ما كنت تردده منذ لحظة؟!

- بالضبط ، ولم أُغيّر حرفاً واحداً!

- ولكن الجملة الأولى لم يكن فيها ذكر لـ"الحمار!"

- بالعكس يا أهبل!... فـ "الحمار" يأتي ذكره في كل حين!

- قل لي بالله عليك.. هل أنت مجنون؟!

- والحمار عندما يشبع "ينهق بالضرورة.. "ينهق" باحترام!. فهو يُحيِّي سيده.. يا أستاذ!

- إيه.. وبعدين؟!

- على طول المدة يفقد هذا "السيد" حاسة السمع!.. وهذا أهم ضمانات بقائه سيداً!.. يا سيدي الضابط!

- ضابط ماذا يا رجل؟!.. هل فقدت عقلك؟!

- ضابط "إيقاع"، ضابط في البوليس.. ضابط "حمار"!

- أنت تشتمني؟!

- أستغفر الله!.. بل اشتم الحمار، قبحه الله!

- حسناً.. ولكن يبدو أننا لن ننتهي الليلة من قصة هذه الجمل.. وهذا البرغوث.. وهذا الحمار؟!

- لا يا سيدي، لن ننتهي منها، حتى تغني الجمال، والحمير، والبراغيث!

- أقفله لو سمحت!

- ماذا؟!.. التليفون؟!

- لا.. فمك.. فأنا الذي سأقفل التليفون! "إني" قررت أن أنام!.. هل مازلت تتذكَّر "إني"؟!

بقي يشد سماعة التلفون إلى أذنه دون حراك، بعد أن أقفل صاحبه التليفون.. ولكن بعد لحظة، انفجر يضحك بهدوء، وهو في طريقه إلى الحمام.. وقبل أن يعود إلى سريره تجرَّع كأساً من الحليب البارد الذي لا تخلو منه ثلاجته أبداً.. لكنه من جديد لم ينم.. فهو ما يزال يخاف!.. يخاف أن يُفكّر!.. يخاف الفشل.. يخاف الخطيئة! يخاف الناس!.. يخاف هواجسه التي تنحشر في جمجمته بلا انتظام!.. وبفعل تقلبه المستمر من جنب لآخر، كانت الشرائف

تتكدَّس في مؤخرة سريره، كالجثة الهامدة المهروسة التي تنبعث من ثناياها رائحة الموت والكسل والوحشة.. وبتقزز واشمئزاز، دفعها حتى سقطت على الأرض.. ثم أخذت نظراته تشرد في ضوء الشارع.. ضوء النهار.. الذي كان يتسلَّل من نافذته إلى داخل الغرفة، مشكلاً على "الموكيت" الأزرق مستطيلاً ضوئيّاً صغيراً، يشبه قطعة صافية من البحر ملقاة في "حرة" سوداء..

أخذ صاحبنا ينطلق في سرحات هواجسه المجنونة من هذا المستطيل الضوئي الأزرق.. كان خياله المتعب يجد في هذا المستطيل محيطاً جباراً، وهذه البواخر، وهذه السفن الكبيرة والصغيرة، تبدو موزعة مشتتة، كالفراشات الصغيرة الذابلة في الحقل الواسع الشاحب!

قام في يومه ذاك بأكثر من رحلة بحرية مليئة بالمفاجأة، والكرب، والخطر، والمغامرة.. تبدأ تلك الرحلات فرحانة ولهانة.. وتنتهي غالباً بغرق السفينة

أو باشتعال النار فيها.. وأحياناً بالاعتداء الإرهابي المفزع لقراصنة البحر وسارقيه، الذين لا يعرفون الرحمة ولا اللين!

كان خياله المتعب يجد - أحياناً أخرى - في هذا المستطيل الضوئي الأزرق بحيرة صغيرة لسباحة الأطفال، هؤلاء الصغار يحفُّون البحيرة في بداية "السرحة"، كالنشوة، أو كملائكة تحوم في أردية بيضاء بريئة ناصعة، وفي ابتسامة بسيطة وساذجة متهللة.. ولكنهم في النهاية، كما يراهم، يطفون على السطح.. وجوههم تغرق في الماء!.. وأيديهم مشرعة على سطح البحيرة، كأجنحة مكسرة!.

من خلال الحيطان الأربعة التي تكتنفه، كانت تمتد لتأخذ بتلابيبه أصابع طويلة جداً!.. تكتسي بشعرات مبعثرة على أنحائها، كالحراب.. وتنتهي بأظافر وحشية حادة وعريضة، كأظافر الغول!

من تحت سريره كانت تنبعث نحوه رؤوس منقوشة منفوخة.. لها قرون طويلة مدببة.. وكان يراها حمراء تشتعل كالشهب!

تحوَّلت الغرفة إلى مقبرة موحشة.. وكانت تنفرج مقابرها عن موتى السنين، التي ولت وراحت!.. مقبرة مليئة بالحشرات القبيحة الغريبة المؤذية.. كان يخرج من القبور أناس تنغرس في جباههم خناجر حادة يتقطَّر من مقابضها الدم والصديد والقيح!!.. كتب على صدورهم "القاتلون من أجل القتل".. كان يخرج من تلك القبور أيضاً أناس يلتفون حول كومة عالية من "الأحذية" العتيقة ينشلونها بأسنانهم، كما تنشل السباع الفريسة.. كلما توقَّف أحدهم عن الأكل ألهبه بالسياط رجل كالحصان، كان يقف على رؤوسهم..

كان يرى أناساً يجرُّون ببطء وبوهن عربات كبيرة جدّاً، محملة بصخور كبيرة، وبأكياس ثقيلة من الرمل الناعم، تتفصّد جباههم عرقاً أسود كالقار، وتفوح منه رائحة كريهة يتساقط منها الطير..

كان يرى أناساً شاحبين مهلكين، يمسكون بين أيديهم حيّات رمادية طويلة، يندي السمّ من بطونها البيضاء كما يندي الماء من بطون "القرب".. كانت

تلك الحيات تتلوّى على بطونهم وعلى صدورهم.. وكلما ظمئت مدت أعناقها إلى ثقوب صغيرة في رقابهم، ترضع من دمائهم ما يروي عطشها، ويزيد في نحولهم وانطفائهم.

كان يرى كذلك!.. ماذا كان يرى؟! في الواقع أنه لم يعد يرى شيئاً أبداً.. كان يسمع فقط جهاز التليفون الذي بدأ يشتت صمت الغرفة القاتل.. ويبعثر ضوء الشارع الخافت، الذي كان ينبعث من النافذة.!

كان الصوت البعيد المنبعث من التليفون يقول له:

- اسمع هذا "الشعر" الذي كتبته قبل لحظات، وأنا أتناول قهوتي الصباحية:

أبكيك يبتلعني الخشب!

أبكيك تبتلعني الحجارة!

أبكيك كما ابتلع الحجارة والخشب!

هذه هي البداية يا أستاذ!.. أيش رأيك؟

- زفت!! (ردّ عليه)

- أيهما أفضل يا قذر: شعري أم قصة الشايب، وبنت المرحوم، والجمل، والحمار، والبرغوث؟!

- أقفله لو سمحت!.. إني..

حسناً.. حسناً.. "إنك" قررت أن تنام!.

يوسعك أن تموت*

طرقوا الباب.. أو لم يطرقوه!.. خلعوا أحذيتهم عند مدخل البيت.. أو لم يخلعوها!.. المهم أنهم أمامه الآن..

ها هم على مقربة شديدة.. منه!

زوجته؟! كانت إلى جانبه، أو أنها تقف على النافذة، تستنشق هواء البحر!

ابنته؟! كانت نائمة.. أو أنها تتهجى قصيدة طويلة لمحمود درويش، أو قصة قصيرة لغسان كنفاني!..

---

* أبو جهاد زعيم فلسطيني من مؤسسي حركة فتح، عندما اغتالته إسرائيل في منزله في تونس العام 1988م.

هذا كله ليس مهمّاً.. بل المهم أنهم يقفون الآن فوق رأسه..

ليس بوسعه أن ينهض، أو يزحف، أو يتنفَّس، وإنما كل ما كان بوسعه هو – فقط– أن يموت!.. وأن يتبدَّد هذا الجسد الضخم.. وأن ينتثر هذا الدم من الأفق إلى الأفق!.. وأن يتبعثر هذا اللحم الشهي فوق السرير.. تحت السرير.. على طاولة المكتب.. فوق سجاد الغرفة.. على جدار المدخل.. على مرايا الحمام.. في كل مكان.

يا مُدية الموت!.. لابد أن تنتشر رائحة اللحم.. اللحم المحروق بالبارود.. وبالبغض!

وللحم العربي يا أبا جهاد قصة مدهشة مع البارود، لا ريب أنك تعرفها.. له قصته قبل أن يكون لحمك!. وستكون له حتماً قصته بعد أن يكون لحمك!.

ولحظة أن اقتحموا منزلك، أو دخلوا عليك غرفة نومك (ليس مهمّاً!) ألم تلاحظ ذلك الهدوء العجيب الذي كان يعتري وجوههم.. لقد لاحظته أنا، لدرجة

أن خالجتني فكرة غير معقولة!.. غير معقولة أبداً.. إذْ كدتُ أنادي بأكواب القهوة، أو أقداح العصير، أو كؤوس البيرة الضخمة.. نعم، البيرة التي نسميها نحن العرب "العجة"؟؟ كدت أطلب أيضاً علبة السجائر، أو صندوق السيجار الفاخر لنُضَيّفهم قبل أن يذبحوك.. أجل!.. كنت أعرف أنهم سيذبحونك!، إنهم يدخلون يا صديقي باطمئنان مدهش!.. براحة بال عجيبة!.. حتى لكأني سمعتهم يهنئونك – الكلاب – برمضان الكريم قبل أن يطلقوا العنان لنيرانهم في جسدك الضخم!.. في لحمك الوافر.

لقد سبق أن ذكّرتك بأن للحم العربي قصة مدهشة مع البارود.. إن له قصته قبل أن يكون لحمك، وبعد أن يكون!..

وهذه الشقراء التي جاءت معهم، ألا ترى أنها بدون سلاح؟. كلهم كانوا مسلحين إلا هي..

لم يعد مهمّاً أن تكون مرتدية فستاناً جميلاً، أو بنطالاً فضفاضاً، كقلبها الذي أحسه يضخ الدم والطموح في استرخاء ليس كمثله شيء.. بل المهم

أيها العزيز، هو أن نفسي قد راودتني وقد نسيت لحظة أنهم جاؤوا ليذبحوك، أن أضع مقطوعة "فالس"، ثم أدعوها للرقص!.. رقصة واحدة فقط!.. خطوتان خطوة! خطوة.. خطوتان!. إنها تدلف إلى مهجعك في كامل أبهتها وأناقتها.. فلتسمح لي سيادتكم بأن أدعوها للرقص!

ياه!.. لقد نسيت الآن كيف كنا سنرقص معاً! لكنني أتذكر جيداً وتحديداً.. أنها كانت منشغلة بالتقاط فيلم تذكاري لموتك، أو لطريقة ذبحك.. أو فلتسمه "شريطاً" كما يقول أحباؤنا التوانسة الذين أودعناك عندهم، فنحن الآن على الأرض التونسية التي يقولون: إنها خضراء.. وستصبح بعد قليل حمراء كالحة. وهذه الشقراء ستعود بالشريط بعد قليل إلى المعسكر، ليراه كل الضباط الإسرائيليين، وهناك سيدلقون عليه مليون زجاجة "شمامبانيا" من النوع الفاخر لا محالة!

تصوّر يا أبا جهاد!!.. مليون زجاجة شامبانيا من أجل زجاجة واحدة أو زجاجتين من دمك!..

دمـك الـذي أراه الآن يبلـل سـترتك.. ويسـتطيل كجسـد الثعبـان علـى البلاط ، وفـوق السـجاد.. وفـي تجاعيـد الجـدران.. وأرجـل الطاولـة، وطفايـات السـجائر.. ثـم يقتحم كـل هـذا الفضـاء الهائـل لينتشـر فوق ملابسي.. يتسلَّق أصابعي.. ينمو فوق ذراعي.. يصعد إلى أنفي.. إنني أحسه كالسم!.. كالسوط!.. كشـواظ مـن نـار! هكـذا توالـت فصـول "النزهـة" الإسرائيلية دونما ضوضاء!..

حتـى المسدسـات.. أو البنـادق.. أو الرشاشـات، التي أحدثوا بها ثقوباً كثيرة في لحمك، كانت هادئة تماماً، لـم تحدث قط أي ضوضاء!؛ فالرصاصة كانت تسـتقر فـي اللحـم، وفـي الـدم، وفـي الأنفـاس، بثقـة مفرطة، وبلا صوت!.

الصوت الوحيد الذي كان يربك سمعي هو أنين أو أزيـز هـذه الكـاميرا التلفزيونيـة التـي تعتلـي كتـف الشقراء.. وكانت تطل على صدرها المكتظ!.. آخ من صدرها المكتظ!!

هـا هـي تصـوّر بهـا رأسـك، وجسـدك، ولحمـك

المنتثر.. الممزق.. المثقوب في كل مكان.. ألم أقل لك بأن للحم العربي قصة مدهشة مع البارود.. قبل أن يكون لحمك، وبعد أن يكون لحمك!. وما الفرق يا ترى بين لحمك أنت، ولحمي أنا.. إنه – كله – لحم!.. لحم كانوا يقولون لنا في دروس المحفوظات: إنه مرٌّ كالعلقم.. لكنني أظن أنهم كانوا يكذبون يا أبا جهاد! وإلا فما معنى هذه "المغامرة" الناعمة.. أو نزهة الصيد الهادئة المطمئنة التي جاءت من أجلها هذه الشقراء.. كما جاء من أجلها رفاقها السبعة.. أو السبعون؟!

هل قلت: "نزهة الصيد"؟!

أجل! لقد اصطادوك – يا عزيزي!- كما يصطادون البجعة، أو الوعل، أو قل: الذئب إن شئت.. لم يعد ذلك مهمّاً، بل المهم هو أنني قبل أن يخرجوا من دارك، كدت أطلب إليهم طلباً واحداً فقط، وهو أن يبعثوا لي – بعد وصولهم إلى المعسكر – نسخة واحدة من الفيلم، أو نسختين.. كنت سأعطي النسخة الأخرى لابني الذي قد يُقدّمها (مع التحية) لمُدرّس

المحفوظات.. ذلك الكذاب الأشر، الذي ما فتئ يغني في الصف الدراسي كل صباح، مردداً أشعاراً كثيرة، كلها يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك بأن دمنا مرّ.. مر كالعلقم.. علقم كالسم.. سم كالموت.. موت كالغضب!.

كنت سأطلب إلى ابني أيضاً أن يتواقح مع مدرسه.. فيضع أصبعه في عينيه، ثم يتحداه أن يروي له بصدق وشجاعة فصلاً واحداً فقط من قصة اللحم العربي مع البارود، قصته قبل أن يكون لحمك، وبعد أن كان!.. تلك القصة المدهشة التي أثارت مذبحتك العجيبة في منزلك، بين حرسك وأهلك! كل تفاصيلها القاتلة في ذاكراتي!

لقد لمحتك وأنت لا تكاد تصدق ما يجري أمامك وحولك!.. تلك كانت مشكلتك يا أبا جهاد! أما أنا فقد كنت دائماً أقول لك، ولابني، وللمدرِّس الكذاب: إنه لا مفر أبداً.. فالبارود مسحوق سحري، سري، عجيب، عجزنا ومازلنا نعجز عن اكتشاف أسباب هذه العلاقة المريبة بينه وبين أجسادنا، فهو لم يعد يتفجَّر

– يا سبحان المولى – إلا في أجسادنا، وهو لم يعد، يشتعل – يا لعظمة الأقدار – إلا عندما يتوغَّل في دمائنا. وكم من مرة رأيته رأى العين يلتهمنا بنهم واطمئنان ولا يبالي.. رجل على رجل، ولا يبالي!.. يتصاعد في عروقنا بلونه الزمهريري الداكن، ولا يبالي!.. يندسُّ في "بزازات" أطفالنا، يقتلع أظافرهم، ويتفجر في جماجمهم الصغيرة، ولا يبالي!.. يختبئ في زجاجات عطور نسائنا، في أدوات زينتهن، يأكل صدورهن، يجزّ شعورهن، يعبث بأحشائهن، ولا يبالي!.. يلتحف السجادات التي تصلي عليها أمهاتنا أو آباؤنا.. فحين يهمون بالصلاة، أو أنهم قد شرعوا فيها، يخرج عليهم من تحتها، فيسري في لحية "الشايب" وفي عينيه، ولا يبالي!..، ويمتد إلى فم "العجوز" وجبهتها ووجهها، وهو دائماً لا يبالي!.

كم من مرة رأيته رأى العين (الوجه في الوجه)، يدخل إلينا من تحت الباب.. ينسل نحونا من شقوق النوافذ.. يقتحمنا من مسام الجدران.. ينفذ باتجاهنا من سقوف المنازل.. ينشقُّ لنا من أواني الطعام الذي

نأكله.. ويخرج لنا بعنقه الطويل الأحمر من صنابير المياه التي نشربها!.. ننام فيندس في أحلامنا!.. نستيقظ فيخترق يقظتنا كالنصل.. قصتنا قصة مع البارود يا أبا جهاد!

إنه ليلفح وجوهنا في كل مكان.. وإنه ليلهب سحناتنا في أي زمان.

قصتنا مع البارود تعرفها يا أبا جهاد!

والمدرسون الكذابون أنت تعرفهم أيضاً.. وها أنت نفسك، بكل ما أوتيت في جسدك من رصاص، تقف اليوم شاهداً على كذبهم!. فالمائدة مازالت قائمة!.. وهي حافلة بلحمك الضخم!! .. لحمك الذي أكَّد أبطال مجزرة الفجر – كما يفعلون دائماً – بأنه ليس مُرّاً ولا من يحزنون!.. هل تبلغ الجرأة أو الشجاعة بوزارء التربية العرب أن يعرضوا – ولو لمرة واحدة – على أطفالنا في المدارس الفيلم الذي نقل مشاهد ذبحك؟! هل يستطيعون أن يقصُّوا على هؤلاء الأبرياء الصغار قصة اغتيالك؟ وطريقة الشواء الذي نضج عليها لحمك؟! فيقولون مثلاً.. مثلاً فقط!..:

لقد كان يسكن مع زوجته وأطفاله مسكناً "عربيّاً" قصيّاً، في وطن "عربي" قصي أيضاً، وفي ليلة ربيعية أزهرت بالموت، كان أبو جهاد (وزير الحربية الفلسطيني نفسه) يتمدد على سريره بجانب زوجته، يطالع بعض التقارير عن نشاطات المقاومة، أو يقتعد كرسيّاً إلى جانب المذياع، يتابع أخبار النار التي يشعلها أطفال الحجارة (لاحظ الحجارة وليس البارود!)، وفجأة هبط الإسرائيليون من السماء!.. لا، بل قل: انشقت عنهم الأرض!.. لا أحد يدري! ولن يدري أحد! فهذا ليس مهمّاً!! والحقيقة أنه لم يعد هناك أي شيء يهم.. غير أن باب "المسكن" العربي الذي "يسكنه" أبو جهاد انفرج فجأة.. وعلى الفور بدأت الحفلة.. حفلة الدم الذي انتشر، واللحم الذي انتثر.. لحمك أنت!.. اللحم الذي نقل كل تفاصيله الفيلم الذي سيعرض بعد قليل في المعسكر الإسرائيلي!.. عندما يصعد الإسرائيليون من جديد إلى السماء.. أو عندما تنشق الأرض فتبتلعهم، ويختفون هنا أو هناك!..

يختفون تحت أظافرنا.. بين أصابعنا.. في مسام جلودنا.. إنهم يروننا دائماً، ونحن لا نراهم أبداً. إنهم هنا أو هناك.. بيننا.. أو حولنا.. يأكلون معنا – حين يريدون – في آنية واحدة.. ينامون إلى جوارنا – حين يشاؤون – في سرير واحد، وعلى وسادة واحدة!. يذهبون معنا إلى الشغل.. ويوصلون أطفالنا إلى المدرسة والفصل.. وهم دائماً يضحكون من حكاياتنا الصغيرة مع زوجاتنا بعد منتصف الليل، أو قبل منتصف الليل، حسب المزاج، أو بمقتضى الهمة والعزم!

إن أزيز هذه الكاميرا التي تحملها هذه الشقراء على كتفها يؤذيني يا أبا جهاد! تصوّر!.. لم يخفني البارود كما أخافتني هذه الكاميرا!.. أنت تعلم أنهم كانوا يقتلوننا في السابق بلا تصوير أو كاميرات!.. فأي شيء دفعهم يا ترى إلى هذه البدعة اليوم؟! نحن لا نعارض أن يذبحونا كيفما شاؤوا، أما أن يصورونا بمثل هذا الاطمئنان القاتل، فذلك هو الأمر المزعج حقاً!!

ثم إننا يا - أبا جهاد – لم نألف التصوير إلا وقوفاً، أو على صهوة حصان أبيض أو أشهب، أو فوق كرسي وثير يلمع ويسطع.. فكيف يحقُّ لهم أن يرتكبوا هذه الفعلة غير اللائقة، فيلتقطوا لنا هذا "الفيلم" ونحن على الأرض.. ممددون على الأرض.. مساوون تماماً تماماً للأرض!!

لقد سمعتها سمعاً مجلجلاً بأذني هاتين – أعني تلك الشقراء! – تقول لأحد رفقائها: خذ لي بالله عليك "لقطة" بهذه "الكوفية" العربية قبل أن نرحل من هنا! كانت كوفيتك يا أبا جهاد أو كوفية أحد أبنائك.. لعنها الله تلك الكاميرا!!.

لقد رأيتهم بعيني هاتين.. أعني السبعة أو السبعين، الذين وفدوا إلينا ليقتلوك (لا يهم العدد، ولم يعد هناك من شيء يهم أصلاً!) رأيتهم، بعد انتهاء الحفلة والتصوير، يغتسلون على "الشاطئ التونسي.. يغرقون أجسادهم في ماء البحر.. والشقراء تصرُّ مرة أخرى على أن يلتقطوا لها لقطة أو لقطتين، وهي في مايوه السباحة.. فالماء كان

بارداً.. بارداً جداً.. والهواء كان منعشاً.. منعشاً جداً يا أبا جهاد.

وبعد قليل، رأيتهم يلمّون ثيابهم، و"يضبون" آلة التصوير!.. ثم اختفوا اختفوا هنا أو هناك.. بيننا أو بعيداً عنا.. صعدوا إلى السماء.. اخترقوا طبقات الأرض.. أو قل: إن البحر قد ابتلعهم.

والمهم، مع أنه لم يعد هناك من شيء يهم، سوى الفيلم! لعنة الله على الكاميرا وعلى الفيلم!!

أمر أخير يا أبا جهاد: هل تستطيع أن تتصوَّر لحظة واحدة أننا نستطيع أن ندخل تل أبيب لنقتل ذبابة "إسرائيلية" واحدة؟!.. واحدة فقط؟!

هل تستطيع أن تتصوَّر ذلك؟! سؤال بريء جداً.. بريء حتى من العقل!

والفيلم الفيلم يا أبا جهاد.. لا تنس الفيلم!!

****

ليس المهم أن يأتيك الموت من خنصرك أو بنصرك.. من صدغك أو رسغك.. من قدمك، أو أنفك، أو فمك، أو "أم" رأسك.

لـيس المهـم أن يأتيـك فـي هيئـة فـايروس.. أو جرثومة! أو ينفذ إلى عظامك ولحمك في شكل مادة مشتعلة اسمها البارود.. أو سائل حارق نافذ اسمه الرصاص.

أجل! فهذا كله ليس مهمّاً!

بل المهم المهم، هو أن تستقبل الموت وأنت في أبهى صورك!.. في بذلتك البيضاء.. متشحاً بسيفك الذهبي.. ووردة الحبيبة!

واقفاً.. ظهرك إلى الحائط.. وابتسامة نجلاء كثغر الفجر! تلتهم كل علامات الحزن في وجهك، وتأتي على كل ارتسامات البله في وجه زمانك/ الظل.

والمهم المهم أيضاً، هو أن تأخذه بيده إلى مكتبك الصغير (أعنى الموت نفسه).. تطلعه هناك على جميع رسائل الحب التي كتبتها، أو كُتبت لك!.. تخرج له جميع صور النساء اللاتي أحببتهن، أو هن أحببنك!.. تُقدّم له قائمة أصدقائك الذين اختاروك. أو اخترتهم أنت!.. ثم تضع جمجمتك بين كفيه.. ويديك على فخذيه.. وركبتيك في ركبتيه، وتقول له : أدخل

الآن!.. أدخل ياعزيزي إلى هذا الجسد الضخم. واعبث بهذا اللحم الوافر كما تشاء!..

المفترض الآن أنه (أي الموت ذاته)، قد عرف عنك كل شيء، قبل أن ينقلك إلى حياة أخرى، لا تعرف أنت عنها إلا القليل القليل.

أما مراسم اقتحامه إمبراطورية جسدك المديد، فستتم على طريقتنا نحن!.. أي في هدوء.. وفي كثير من المودة والاستسلام التام!

إن الذي يثير غضبي وحقدي، أن أبا جهاد المسكين لم يعطه الموت مهلة كافية، تلك الليلة، ليأخذه إلى مكتبه "الصغير"، فيطلعه على أشيائه "الكبيرة" صورة والده ووالدته في دمشق، صورة "جهاد" ورفاقه من الجيل الثاني في فلسطين.

لم يعطه الموت مهلة ليستقبله واقفاً.. في بذلته "الكاكي"، متشحاً بمسدسه الداكن، وصورة طفل فلسطيني في يده حجر.. حجر وموت!

لم يعطه مهلة ليستقبله ظهره إلى الحائط.. فيقدّم له نفسه، من جديد، على طريقته الخاصة.

أجل! قلت طريقته الخاصة؛ لأن أبا جهاد له أسلوبه الذي يختلف عن أسلوبنا جميعاً في الحوار مع الموت!.. فإن بينهما "صداقة" قديمة، وتربطهما علاقة "مصالح مشتركة"، فهما يسهران في النادي نفسه..

ويركبان في الصباح القطار نفسه.

يشربان من قدح واحد.. ويخيطان ثيابهما لدى "ترزي" واحد..

لقد ظفر به الموت هذه المرة، فطحنه تحت أسنانه!.. والشقراء اللعينة لم تتوقف بعد عن التصوير!.. إنني أراها هنا، معنا الآن في مقبرة الشهداء.. في "مخيم اليرموك"، تلتقط صور "الزفة" للشهيد الجديد!.. تقول: إنها قد دخلت إلى هذا المكان أيضاً.. وأيضاً.. دون أن يراها أحد.. وأنها ستخرج منه، ولن يراها أبداً أحد.

حتى أنا لا أراها، ولكنني أثق تماماً أنها هنا معنا تندسُّ في كمي.. تدخل إلى جيبي.. تتدثر في عباءتي الفضفاضة.. وتسرق صوتي، ورائحتي، وملامح وجهي القديم..

إنها تتذكر الآن كمال عدوان، وكمال ناصر حين دفنا هنا.. في المكان نفسه.. قبل خمس سنوات مضين من الآن!.. وقد قتل معهما بالرصاصة نفسها.. وبـ"الشحنة"نفسها من البارود، أبو يوسف النجار.

والمدهش أن هناك أوجه شبه كثيرة بين الطريقة التي ذُبح بها أبو جهاد، والطريقة التي ذُبح بها هؤلاء الثلاثة. لقد قُتل هؤلاء الثلاثة بسكين العدو في عاصمة عربية، حصينة، وذات سيادة، ويحيطها العرب من "أكثر" الجهات.. وكذلك قُتل أبو جهاد.

لقد قُتل هؤلاء الثلاثة في غرف نومهم، في بيوتهم، في العاصمة العربية الحصينة، ذات السيادة، والتي يحيطها العرب من أكثر الجهات.. وكذلك قُتل أبو جهاد!..

لقد قُتل هؤلاء الثلاثة في فصل الربيع، وبالتحديد في شهر أبريل.. وكذلك قُتل أبو جهاد.

لقد كان يسكن هؤلاء الثلاثة في فردان قريباً من "البحر".. وكذلك أبو جهاد، فقد كان يسكن هو أيضاً في "سيدي بو سعيد"، وهو حي على طرف

"البحر".. في فوهة البحر، بين أنياب البحر!

يروى أن الشقراء ورفاقها السبعة.. أو السبعين (لايهم العدد)، قد دخلوا علينا من باب البحر!.. البحر نفسه الذي دخلوا منه في المرة الماضية على أبي يوسف النجار ورفيقيه.

وبالمناسبة كذلك، فإنه يحكى أن الذين قلتوا أبا يوسف النجار ورفيقيه، عادوا إلى قواعدهم في إسرائيل "العدوة" سالمين غانمين، فلم يلحقهم، منَّا أو من غيرنا، أي أذى، ولله الحمد!.. لا، بل إننا لا نعرف حتى الآن كيف اخترقوا خفارة العاصمة العربية، وكيف امتهنوا قداستها، كما لا ندري من أي جهة غادروها، بعد أن أغلقوا الأبواب خلفهم بأدب وإحكام!

إنهم ينتهكوننا كالشياطين المردة، فلا نراهم حين يدخلون، ولا نعرف من أين يخرجون، ولم نكد ننسى لغز شارع "فردان" في بيروت ما قبل الحرب، أي منذ خمسة عشر عاماً (وهذا ليس بالكثير)، حتى فاجأنا لغز حي "سيدي بو سعيد" هذا العام.. قبل دخول رمضان الكريم.

عجيب كل هذا الذي يحدث يا أبا جهاد! هؤلاء هم الذين يقررون متى نحيا، ويقررون متى نموت!.. وهم الذين يختارون إن كنا سنقتل في الشارع، أو سنذبح في غرف النوم.. بين أطفالنا، أو في أحضان زوجاتنا.. واقفين أو جالسين.. يقظين أو نائمين.

هم الذين يقررون في أي عاصمة عربية نعيش، وفي أية عاصمة عربية نهلك..

وتذكر أبا جهاد، فعندما قلنا: نبقى في بيروت، قالوا: لا.. بل تذهبون إلى تونس، وفعلاً – يا حبيبي- ركبنا الباخرة ونحن نبكي كما تبكي النساء!.. وغادرنا بيروت، ولم نعد بعدها إليها أبداً.. ثم سكنا على طرف البحر.. في فوهة البحر.. بين أنياب البحر.. في تونس!

هم الذين يختارون الفصل الأجمل للذبح، وإعلان أعياد الموت، فهي قد تكون في الربيع (تصوّر).. في أبريل، كما حدث في "فردان" عام 1973م، وكما حدث في سيدي بو سعيد هذا العام 1988م.. وهل ننسى أيضاً مقتل الدكتور عصام السرطاوي جهاراً

نهاراً في أحد فنادق "البوفيرا" في البرتغال!.. لقد حدث هذا في أبريل أيضاً عام 1983م، وهل تذكر حمدي رحمة، الذي نسقوه في مثل هذا الشهر عام 1975م في سيارة ملغومة في بيروت، أو نبيل وادي، الذي "دهكوه" في مدريد عام 1982م.

وهي (أي أعياد الموت)، قد تكون في الصيف.. وهو فصل إخصاب.. وحصاد. دونك يا أبا جهاد قائمة ببعض الرؤوس التي أينعت، ثم تم قطافها في هذا الفصل، فصل التثاؤب.. لا، بل فصل الحصاد!

غسان كنفاني (يوليو 1972م).. "نفضوه" في سيارة ملغومة في بيروت، وفي الشهر نفسه (عام 1979م) ذُبح زهير محسن في فرنسا، وكذلك ناجي العلي في العام الماضي في "أيفس ستريت" بلندن.

أما في أغسطس، وهو من فصل الصيف "أيضاً"، فهذا وائل زعيتر (1972م) يثقبون جسده ورأسه بمدس نجيب في روما. وفي الشهر نفسه من عام 1978م استشهد عز الدين قلق في باريس، وكذلك مأمون حريش عام 1983م.

أما في يونيو، وما أدراك ما يونيو، وهو شباب الصيف، فحدِّث ولا حرج، محمد بودية في باريس 1973م، على ناصر ياسين في الكويت 1978م، نعيم خضر في بروكسل 1981م، محمد طه في ألمانيا الغربية 1982م، نزيه مطر وكمال حسني، في روما 1982م، خالد نزال في اليونان 1986م.

أوه يا أبا جهاد!.. لقد تذكرت الآن..

أنهم لوجه الحق يقتلوننا مشكورين في جميع الفصول بلا استثناء، يقتلوننا كلما أرادوا، ومتى شاؤوا.

ففي الشتاء (حتى الشتاء) قتلوا.. مثلاً.. أقول: مثلاً.. ميشال النمر (1985م) في أثينا (وهو صحفي وناشر)، وكذلك منذر أبو غزالة (1986م)، وصالح موسى الضميري (1973م) في الدانمارك. وفي الخريف.. (حتى الخريف).. قتلوا مثلاً.. أقول: مثلاً.. على حسن سلامة (1979م) في بيروت، ومحمود صالح (1977م) في باريس، ويوسف مبارك (1980م) في باريس أيضاً. إبراهيم عمر يوسف

(1975م) في بنغازي، وإسماعيل درويش (1984م) في روما، وفهد القواسمة (1984م) في عمان بالأردن.

ويقول العارفون بشؤون السياسة (وأنا كما تعرف لست منهم): إن هذه الحرب الانتقائية قد شملت العالم العربي والأوروبي بصفة عامة، ودخل فيها على الخط جهات متعددة.. منها إسرائيل وغير إسرائيل، وهم يقصدون هنا "الإخوة" أو الأشقاء الذين يحطبون في حبل إسرائيل!..

وأنا لا أريد أن ألوح بشعار الخيانة أو العمالة (فأنا لست مناضلاً في حرب، ولا عضواً في إحدى جمعيات الرفق بالحيوان)، لكنني وأنا أقف في جنازتك الآن.. هنا في مقبرة الشهداء.. أجد الحماس يدفعني إلى أن أشير بأصبعي "الصغيرة" إلى حقيقة "كبيرة" يتعذَّر عليّ فهمها تمام الفهم.. ويصعب عليّ تعيين أبعادها، التعيين الدقيق، وهي ستخرج الآن في صيغة تساؤل يمرق من حنجرتي هكذا، كالسهم غير الملتهب، كيف لا تستطيع الاستخبارات العربية أو الفلسطينية أن تخلق لها، بالمقابل، عملاء من

الإسرائيليين داخل إسرائيل، فنصحو يوماً ما على "موساد" عربية تضرب بقوة في قلب إسرائيل، فنشم مرة واحدة شواء شارون، أو شامير، أو كاهانا.. مثلاً.. أقول: مثلاً.. أي تنتقي خليتانا بعناية ضحاياها، كما يفعلون هم معنا.. فتهز في الإسرائيليين ثقتهم.. كما يهزون هم ثقتنا.. وتحاول أن تفقدهم شيئاً ضئيلاً من توازنهم، كما يفقدوننا هم كل توازننا.. أجل!.. أعرف.. أنني قد وقعت في التناقض، فها أنا أُلوّح من "طرف خفي" بتهمة الخيانة أو العمالة.. ولكن ماذا أفعل؟! أنني أخاف.. أخاف الشقراء التي تشاركنا "زفتك" اليوم إلى قبرك.. وأخاف العسكر الذين أقابلهم في المطارات.. وعلى أبواب الجامعات.. وفي أحراش المدينة.. وعند إشارات المرور.. وعلى أبواب المقاهي.. وتحت نافذتي .. وبين دفاتري وأوراقي..

إنهم لا يخيفون مع الأسف إلا أنا، وأنا أخاف أن ألج باب السجن.. وأخاف، بطبيعة الحال، أن ألج باب الموت..

وحين يأتيني الموت، لا محالة، وعندما لن يكون لي أي خيار، فأنا مثل أي شاب (عربي في أكثر الأحوال)، لا يخلو من شيء، قليل أو كثير، من الغرور، أريد أن يأتيني الموت وأنا في أبهى صوري.. في بذلتي البيضاء.. متشحاً بسيفي الذهبي ووردة الحبيبة!!

أجل، إنني يا سيدي لا أستطيع أن أتهم بصراحة، أو أكتب بصراحة، أو أتنفس بصراحة.. والسبب بسيط بسيط جداً، وأنت تعرفه، أو ربما لا تعرفه.. إنه عسكرنا الظاهرون والخفيون، وإنه أيضاً هذه الشقراء التي أجدها في كل مكان، وهي منذ الآن ستظل تنقل على كتفها كاميرات التصوير، الكاميرات التي تطلُّ من فوق، من فوق صدرها المكتظ! وتظل تطلّ، من فوق أيضاً، على عاهاتنا وتشوهاتنا التي أصبحت (بفضل العلم والتكنولوجيا) لا تعدّ ولا تحصى!!.. ومن يدري يا أبا جهاد، فلعل هذه الشقراء اللعينة التي تخترق صفوف جنازتك الآن، تقرأ بطريقة سحرية عجيبة كل هذه الأفكار التي تموج وتعتلج في صدري، مع أنني

أقفل حولها جميع أبواب فمي ونوافذه.. كل شيء ممكن يا عزيزي!.. إن هؤلاء هم القادرون على كل شيء.. وأنا خائف.. خائف حد الضمور.. إنني أختنق في هذه المقبرة.. مقبرة الشهداء.

فالشهداء بالفعل كثيرون، لكن "الشهود" هم الأكثر.. الأكثر ورب الكعبة!..

ما بالك تتهافت مسرعاً هكذا يا عزيزي إلى قبرك، تمهَّل قليلاً يا أبا جهاد، وسأزف إليك بعض الأخبار التي ربما يهمك أن تنقلها إلى من قبلك من الشهداء:

تقول مصادرنا الخاصة المطلعة: إن العرب بدؤوا يفكرون الآن في بناء أسوار عالية، بل شاهقة، من الأسمنت المسلح حول عواصمهم الكبرى، ويفكرون أيضاً في تسقيفها من جهة السماء.. فلا ينفذ إليها، هكذا، لا الهواء، ولا الأعداء..

وتقول المصادر نفسها: إنهم يفكرون أيضاً في "تبليط" البحار التي تحيط بتلك العواصم من بعض جهاتها، فقد تأكدوا الآن أن الأعداء إن لم يهبطوا على عواصمنا من السماء، فإنهم حتماً سيدخلون

إليها سباحة.. من طرف البحر.. من فوهة البحر.. من بين أنياب البحر.

وتضيف المصادر ذاتها: إن العرب قرروا فصل جميع رجال المباحث، والاستخبارات، وطرد جميع عسكر الجوازات، وخفر السواحل والحدود؛ لأن بلداننا بهذه الأسوار الشاهقة العظيمة، والسماء المسقوفة، والبحر المبلط، لن يتمكّن أحد من اقتحامها، أو امتهان قداستها.. لن يتمكَّن أحد من دخولها ليذبحنا كالنعاج، أو كالدجاج، في غرف النوم، أو على مداخل البيوت!.. ولن يتمكَّن بالتالي أحد من التقاط الأفلام التذكارية لدمائنا، التي تستطيل على الأرض، وتتلوى كأجساد الثعابين، أو كالرماح المحطمة.. لقد قلت لك: إن أكثر ما يزعجنا في أعراس ذبحنا، هو هذه الأفلام الخبيثة التي يُراق من أجلها ملايين الزجاجات من الشمبانيا.. والمشهد يمرُّ.. والسكاكين تكرُّ.. ولحمنا يشويه البارود.. ورائحته تنتشر من الأفق إلى الأفق.. في كل مكان!

اذهب إلى قبرك الآن يا أبا جهاد، لقد استوقفتك طويلاً، وأنت رجل لا تحب الكلام!.. (غريب هذا كأنك لا تمتُّ إلى العرب بأي صلة)، ولكن قبل أن تذهب، أودُّ أن أهمس في أذنك بأن آخر تعليق سمعته، كان من أحد الجنرالات الإسرائيليين، بعد عملية ديمونا.. تلك العملية التي تعرف أنت جميع تفاصيلها، يقول الجنرال: نحن نبحث في ذبح العرب عن غير المألوف.. وهم يبحثون في الانتقام منا عن كل ما هو مألوف.. هل لمحت الفرق؟ يبدو يا سيدي أن هذه بالفعل هي مشكلتنا الكبرى، ولهذا فنحن نموت كل يوم.. وهم بالمقابل لا يموتون ولا يوم.

كلمة أخيرة - يا أبا جهاد- قبل أن نهيل عليك التراب.. انظر إلى وجوه هؤلاء النسوة اللاتي جئن إلى مقبرة الشهداء لمزيد من البكاء.. انظر إلى وجوههن! هل تلاحظ هذا السفور القاتل؟ إنها وجوه غير محصنة يا سيدي! فهي قابلة للّطم في كل

حين.. في كل لحظة! أليس هذا مخجلاً يا أبا جهاد! بلى والله يا حبيبي، رغم بذلاتنا البيضاء، ورغم سيوفنا الذهبية، ووردة الحبيبة!

مجرد كلام!

في خيالي يقف طفلْ! *

طفلٌ شامخُ يحمل حجراً! حجراً ضخماً ملء الكف.. بل هو، في الحق، ملء الفؤاد!

وفي خيالي أيضاً يقف ياسر عرفات.. أجل! إنني أراه يقف أمام بوابة كبيرة.. ثقيلة جداً.. مرتفعة جداً.. يغيب أعلاها في السحاب!.. وقد قيل لي: إنها بوابة أمريكا العظيمة!!.. وإن العالم الحر.. النظيف!.. المعقم.. يقبع خلفها بانتظار المطر!.. أو بانتظار ما يجود به البحر!.

لماذا الطفل يتأهب بالحجر؟.. ولماذا يقف عرفات

* المقصود طفل انتفاضة الحجارة.

هكـذا سـاهماً أمـام البوابـة الكبيـرة.. لا يلـوي علـى شيء؟ هل هو هول المفاجأة؟!

نعم!.. فلن يفتحوا له الباب.. إذْ لا أحد هناك!.. وعليه أن يطوي كوفيته، ثم يرجع من حيث أتى!*

أما الطفل فما يزال رافعاً يده بالحق وبالحجر!.. والأهم أنه لا يبالي بأحد البتة!

عرفات يتلفَّت الآن إلى أي اتجاه.. ليس مهمّاً إلى أين؟ المهم أنه يتلفت..

الطفل متصلب كالجبل، ومازال يتأهب كالهول!.. العجيب أن الحجارة قد أخذت تتهاوى حول رجليه.. تدبُّ نحوه.. حتى لقد بلغت منه الآن إلى ركبتيه، وهو – يا سبحان الله! – لم ينفك يتأهب كأنياب الموت.

فجأة استطال الطفل.. استطال كثيراً، حتى غاب رأسه، هو أيضاً، في السحاب.. أما الحجر فقد تحوَّل إلى شيء مهيب.. صخرة هائلة.. تتحفَّز لمغادرة الكف.

* عندما مُنع ياسر عرفات من دخول أمريكا.

هكذا كانت تتكوَّن هذه العلاقة الغريبة بين باب أمريكا.. وكفّ الطفل.. وتجاعيد ياسر عرفات، ولحيته المهملة!..

المهم أن أبا عمار يتلفَّت منحدراً أو صاعداً، مأخوذاً إلى اتجاه ما.. لا أدري أي اتجاه.. فقد قلت: إن المهم هو أنه ما زال يتلفَّت!

هل من الضروري أن يعبر أبو عمار بوابة أمريكا العالية؟ هل من الضروري أن يقتحم هذا الرجل الصاخب هدوء المجتمع "المتحضر"..

شولتز هو الذي ينعت مجتمعه بـ"المتحضر"، ويعلن بأن رفضه لدخول عرفات إلى أمريكا يعدُّ من باب حماية "المجتمع المتحضر" من عدوى عرفات!

الوزير الأمريكي الشهير! كان يقول فيما يقول: هذا رجل غير "متحضر"، وقد يتفشى".. والعياذ بالله!.. في شوارع نيويورك.. فينشر العدوى بين المواطنين الأمريكيين، فنصحوا غداً أو بعد غد على أمريكيين غير "متحضرين".. أي أمريكيين متخلفين

متوحشين.. إن أمريكا لا تستطيع أن تقبل بهذه الفكرة، مهما كانت المبررات.. وقد أثبتت مراكز الأبحاث كلها، أن الهمجية أو التخلف ينتقلان إلى الآخرين بسرعة البرق.. ليس فقط بالاحتكاك المدمي.. بل حتى بمجرد الملامسات اللطيفة.. وربما أيضاً بالأنفاس الحارة.. وقيل: بالباردة كذلك. وحيث إن المجتمع الأمريكي سليم البنية!.. نقي الطوية!.. طاهر الرأس والذيل!.. له قلب عصفور ووداعة قطة.. وبراءة فراشة برية بيضاء.. فإنه ليس من حقِّ أي أحد أن يلومنا على حمايته وصيانته.. والحفاظ عليه.. والدفاع عنه.. فيا أيها الناس!.. (يصيح الوزير الأمريكي): إن شعبنا محسود على كل شيء، حتى على السذاجة التي حولته إلى دجاجة!.. وحتى على العفوية التي لا يشبهه فيها سوى طيبة الذكر "نبوية" (لا أدري من هي نبوية هذه!).

يا حبيبي يا عرفات!.. كل هذه الأوبئة فيك، ونحن أهلك وأبناء عمومتك، لا ندري عنها شيئاً.. يا

للهول! (على طريقة المرحوم يوسف وهبي)! بالله عليك يا أخ ياسر، أين كنت تستر هذه الأمراض كلها؟!.

ونحن – بصراحة – سنقبل منك أي شيء، إلا أن تُسبِّب كل هذه الربكة لأجهزة الأمن وللمرافق الصحية في بلاد أصدقائنا الأمريكان.

لقد سمعنا من الإذاعات أن علوج أمريكا قالوا بلسان واحد.. وعن قلب رجل واحد: "كله.. إلا عرفات!" لقد سمعتهم شخصياً بأذني هذه.. وأذني هذه (وأشرت إلى الأذن الأخرى طبعاً!).

ولقد قرأنا أن صحف الأنذال قد كتبت بشيء من الحياد والموضوعية عن المشكلة.. (أعني مشكلة عرفات، وليست مشكلة الطفل الذي يتضخم في يده الحجر!) فقالت – أي تلك الصحف: إن الخارجية الأمريكية قد نفخت الموضوع أكثر مما ينبغي، وإلا فإن عرفات لا يزيد خطره كثيراً عن خطر الأيدز الذي يعوث في أجساد شعبنا النبيل بلا رحمة أو رأفة، حتى لكأن القدر لا يعرف ماذا يعني أن يموت أمريكي، أو

أن يختفي من على الأرض. ثم تستطرد تلك الصحف: وخطورة عرفات كذلك لا تزيد عن خطورة الإدمان على المخدرات، الذي يفتك بأكثر من سبعين مليوناً من جيلنا النادر، وكأن الموت البشع لا يُقدّر حجم الخسارة على تاريخ البشرية، كلما التهم التراب علجاً من علوجنا الصغار! ثم تتساءل تلك الصحف: فماذا يضير لو اقتحم عرفات البوابة ودخل.. ثم تفشّى هذا الرجل في شوارع نيويورك.. إن وجود عرفات لن يُغيّر كثيراً في الأوضاع.. فالشعب الأمريكي سيظل شعباً "متحضراً" كما يصفه وزيرنا الغبي شولتز (وصف الغبي من الصحافة الأمريكية نفسها، وليس من عندنا).. إذْ لن تنخفض في مجتمعنا نسبة البغايا.. ولن تقلّ فيه أعداد الشاذين، والمنحرفين، والقوادين، والساقطين.. ستحتفظ العصابات (المافيا وغيرها) بقوتها نفسها ونفوذها نفسه.. سيكون الانفتاح الأخلاقي على حاله.. أي على مصراعيه.. سيغتصب المزيد من النساء في العمارات المظلمة.. ومواقف السيارات.. والشوارع الخلفية، والغابات.. وستختطف

أعداد أخرى من الأطفال.. وسيقتل كم آخر من العواجيز.. وستتزايد أرقام الزناة في أمهاتهم، وأخواتهم، وبناتهم.. وسترتفع نسبة الاعتداءات على البنوك (هولد أب)، ونسبة الاعتداءات على الأفراد.. سيكون هناك دائماً قتلة مجهولون في السلالم، والممرات، ومحطات القطار، وممرات الـ "أندر جراوند".. سنرى دائماً في الكابريهات، والبارات، وأوكار الدعارة رجالاً من شجعان أمريكا العظيمة يخرجون مسدساتهم (بعد كأسين من الويسكي) ليجربوها (فقط يجربونها) في أجساد بعض رعاع المكسيك مثلاً.. نقول: مثلاً!! وبهذا يا سيدي الوزير (تستطرد الصحف الأمريكية كما يذكر رواتنا الخاصون!): فإن شعب أمريكا تتوفَّر فيه جميع شروط حضارتنا المعاصرة، ولاسيما الأخلاقية منها.. حتى ولو اقتحم هدوءه رجل بحجم ياسر عرفات!!

نعم!. إن صحف أمريكا تشير دائماً إلى أن هناك شواذاً وقتلة من الأمريكيين، وهي ترى في الفلسطينيين أيضاً نموذجاً لـ "القتلة".. وترى في

عرفات (الذي كان يقف أمام البوبة المهيبة) محرضاً لأولئك القتلة.. لكن الفرق، هو أن ما يحدث من قِبل الفلسطينيين في أمريكا "قتل" حضاري، أما ما يحدث في الأرض المحتلة مثلاً فـ" قتل" غير حضاري.. إنه قتل همجي متوحش، فالأول يحدث بسبب طمع، أو نزوة، أو شهوة.. أي من أجل عاهرة مثلاً، وبعد كاسين من "الويسكي".. أما الثاني فيحدث من أجل "وطن"، وأنت في كامل صحوك!.. من أجل "كبرياء"، وأنت بكامل عقلك.. من أجل تاريخ وحضارة، وأنت في عنف زهوك.. وفي الحالة الأولى، قانون المجتمعات المتحضرة يقول – يا حبيبي! – بأن الجاني قد اقترف جنايته بعد استفزاز ملح لغريزته البشرية من قِبل الضحية، الذي كان يعطي موعداً آخر للعاهرة إياها على مرأى ومسمع من هذا الطفل الوديع (الذي هو طبعاً الجاني)، وهو لم يكن ليرتكب جنايته بهذا الشكل الحاسم، لولا فعل المسكر الإسكتلندي الخبيث الذي أذهب عقله. أما في الحالة الثانية،

فالوضع مختلف تماماً، فأخلاق المجتمعات المتحضرة، وعقلية "الانفتاح" على الإنسانية، ترى أن أرض الله الواسعة كلها "وطن".. فأنت تعيش في القدس، أو برج البراجنة.. في الخليل، أو في صبرا وشاتيلا.. في غزة، أو مشرداً في شوارع كوبنهاغن، أو أمستردام، أو لندن، أو العالم كله.. فالأمر سيان.. هناك بيت وهنا بيت.. ثم إنك هناك تستطيع أيضاً أن تأكل، وتشرب، وتستحم، وتتزوج، وتُعاشر النساء.. وتنجب كذلك.. فلماذا القتل؟!.. لماذا ضرورة أن يكون هناك وطن بعينه؟! لماذا ضرورة أن يكون هناك ذاكرة وتاريخ؟! لماذا أنت موجود أصلاً؟!

مشكلة عرفات أنه رجل ذو "ملف" أسود.. وتاريخ أسود.. فهو – مع الأسف!! يُحرّض على القتل.. ويدعو إلى الموت.. لكنه الموت من أجل الوطن.. وهذا هو خطؤه الكبير!! كم يبدو هذا الرجل متخلفاً وغير متحضِّر.. لو كان يدعو إلى القتل من أجل شيء آخر.. لو كان عضواً في المافيا، أو في إحدى عصابات

التهريب، لكان قد تأكَّدت فيه ملامح "المتحضرين"، ولاستطاع أن يدخل أمريكا دون تردد أو خوف!

مشكلة عرفات أنه يهز في يمينه راية لمعركة شعب كامل مشرد، ولهذا قام السيد جورج شولتز يمنع دخوله إلى أمريكا؛ حماية لمجتمعه "المتحضر"، وأستغفر الله أن نفتئت أو نكذب على الرجل، فهذا ما قالته الإذاعات، وهذا ما رددته وكالات الأنباء في مختلف أرجاء الأرض.. وهذا هو بعينه الذي ومن أجله شقَّ نساؤنا جيوبهن.. وبسببه أخذن يلطمن، في الغدو وفي الرواح، على خدودهن، فماذا نحن بدون أمريكا.. وكم سيكون مستقبلنا غامضاً وحالكاً، إن لم تأخذ هي بأيدينا.. ونحن ندين لها بأشياء كثيرة في رقابنا.. أجل، لقد طلبنا الحرب، فقمعتنا أمريكا.. ثم نادينا بالسلام، فسحقتنا أمريكا.. أجل! هي نفسها.. هي بعينها.. بشحمها ولحمها.. في قامتها الفارعة وملامحها الصارمة!..

نحن لا نعرف بالضبط ماذا تريد منا هذه

الملعونـــة.. فـــلا الحـــرب تروقها حين تكون حربنا، ولا السـلام يعجبهـا حـين يكـون سـلامنا! مـاذا تريـد بالضبط؟!

كأنني أحس، نوعاً ما، بذلك الذي تريده!..

أعتقد أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرضيها، هو أن "نذبح" ياسر عرفات.. أجل، نذبحه بالسكين.. أو ننحره، كالجمل، ثم نسلخ جلده بأناة، ثم نعلقه من رجليه على ثلاث خشبات، أمام البيت الأبيض بأناة أيضاً!.. وكل ذلك نفعله نكالاً به؛ لأنه غير "مُتحضّر"، فهو يقاتل من أجل وطن.

وسيكون عبرة لغيره من "الشوفينيين!" الذين يُصرّون على المطالبة بالوطن، وعلى الكفاح من أجله!..

أعتقد أنه مما سيرضى الحبيبة أمريكا كذلك، أن نخفّض رأس ذلك الطفل الشامخ!.. رأسه الذي يغيب في السحاب.. ثم نجرّه من أذنه جرّاً شديداً، حتى يلقى ذلك الحجر الضخم الذي يملأ الكف.. بل هو يملأ الفؤاد..

ويجدر بنا أن نقول له بعد ذلك: عليك الآن يا بنيّ أن تنسى النشيد الذي علمناك! وأن تقتل الحنين الذي لقحناك!.. وأن تئد الطموح الذي شرّبناك!.. وأن تشطب الحدود الجغرافية التي لقناك!.. وأن تمحو فصول التاريخ التي درّسناك وحفّظناك!.. عليك يا بني، أن تعلم بأن "التحضر" على الطريقة الأمريكية، هو أن تعيش بلا وطن، وأن الكرامة عند هؤلاء العلوج، هي أن يدوسك أوغاد اليهود بأقدامهم.. وأن يسحقوك بكعوب أحذيتهم.. وأن يفشفشوا جمجمتك بهراواتهم وحراب بنادقهم.. عليك أن تدرك يا صغيري، أن الكبرياء عند هؤلاء الغلف العطر، هي أن تلغي ذاكرتك.. وأن تنسى ملامحك.. وأن تضيف إلى دمك قليلاً من الزيت فتحرقه.. وإلى رأسك شيئاً من البارود فتفجره.. وإلى قلبك "نتفة!" من الملح، فلتوكه بين فكيك، ثم تقذفه للقطط والكلاب والدود.

بمثل هذه الأمور، "قد" نصل إلى ما تريده أمريكا من الفلسطينيين.. فتأخذهم قليلاً إلى حضنها.. وقليلاً أيضاً إلى صدرها.. تضمهم ضمّاً.. وتلثمهم لثماً.. فلا تدعهم أبداً للوحوش والذئاب وأشباه الذئاب..

وعندها فقط ستؤوب النساء إلى رشدهن!.. سيرخين عليهن من جلابيبهن.. وسيضعن أيديهن في الماء البارد، ويتوقفن عن البكاء.

وهنا لم يعد من الضروري أن تفتح أمريكا بوابتها أو لا تفتحها.. فجميع الأطفال الوادعين ألقوا حجارتهم، وأصبحوا في حضنها.. وعلى فخذها (ما أفخمه وأنصعه ذلك الفخذ!) وها هم أولئك الأطفال، قد كفوا تماماً عن العبث بتلك الحجارة، التي كانت لاتتوقَّف عن القفز والتطاير في الهواء!.. وفي كل اتجاه!.. أما كبيرهم الذي علمهم ذلك العبث (أي عرفات!)، فها هو مُعلّق من رجليه أمام محراب "البيت"، الذي لم يكن قط "أبيض".

ما رأيكم في هذه الفكرة الجهنمية يا شباب العرب؟! لا تستعجلوا في اتخاذ القرار، فمازال هناك وقت للعار!!

المحتويات

الموضوع	الصفحة
أنتِ قبيحة هذا الصباح	5
علي.. والكلب	65
السكين	97
مجنون!	111
عوض الخمشة!	117
الجنازة	139

مطر_____145

تشعله بالغي_____151

موسيقى_____169

الزنزانة رقم 6_____185

القَملَ... هو المسؤول!!!_____197

رسالة من قتيل الباخرة،_____205

الرد من "مجنون القاهرة"_____219

الزحمة_____231

فـــلان_____247

الحب أحلى!!_____251

نوم_____273

بوسعك أن تموت _____287

مجرد كلام_____315

صدر للمؤلف

* "وقت للعار!" في السياسة، الرياض 1411هـ/1990م.
* "قال إبن عباس.. حدثتنا عائشة" فصول في تآخي "الأدبي" و"الشرعي" في الثقافة العربية، الرياض 1416هـ/1995م.
* له مع آخرين كتاب: "اتجاهات الكتّاب السعوديين والمطبوعات السعودية نحو الحرب على العراق" 1424هـ/2003م.
* "أمريكا التي تعلمنا الديمقراطية والعدل" بيروت 1428هـ/2007م.
* "المعرفة قوة.. والحرية أيضاً!" بيروت 1431هـ/2010م.
* "هؤلاء.. وأنا" الرياض 1433هـ/2012م.
* "أنتِ قبيحة هذا الصباح" (نصوص قصصية) 1434هـ/2013م.

أشرف على إعداد وإصدار مجموعة من الموسوعات والمعاجم والمؤلفات منها:

* موسوعة "أسبار للعلماء والمتخصصين في الشريعة الإسلامية في المملكة العربية السعودية" ثلاثة مجلدات 1419هـ/1999م.

* معجم "أسبار للنساء السعوديات" مجلدان 1418هـ/1997م.
* معجم "السفراء السعوديين" 1423هـ/2002م.
* "مسيرة الإعلام السعودي" 1419هـ/1999م، باللغات: العربية، الإنجليزية، الفرنسية.
* المملكة العربية السعودية: (ماضياً وحاضراً) الأرض. الإنسان. الحضارة" 1434هـ/2013م.
* رأس الفريق العلمي الذي قام بإعداد الدراسات التأسيسية والإستشارية لإنشاء صحيفة "الوطن" وقاد فريق العمل الذي خاض مرحلة تأسيس الصحيفة.
* رأس فريق العمل الذي تولّى إعادة تأسيس صحيفة "الندوة".
* رأس الفريق العلمي الذي أعدّ مشروع "الإستراتيجية الإعلامية لدول مجلس التعاون الخليجية" ومدتها عشر سنوات (2020) من عام 2010 - عام 2020م.
* رأس بعض المجموعات البحثية التي كلفت بتحديث أداء بعض الشركات وإعادة هيكلتها، ولا سيما في مجال الطباعة والصحافة والإعلام.
* وغيرها